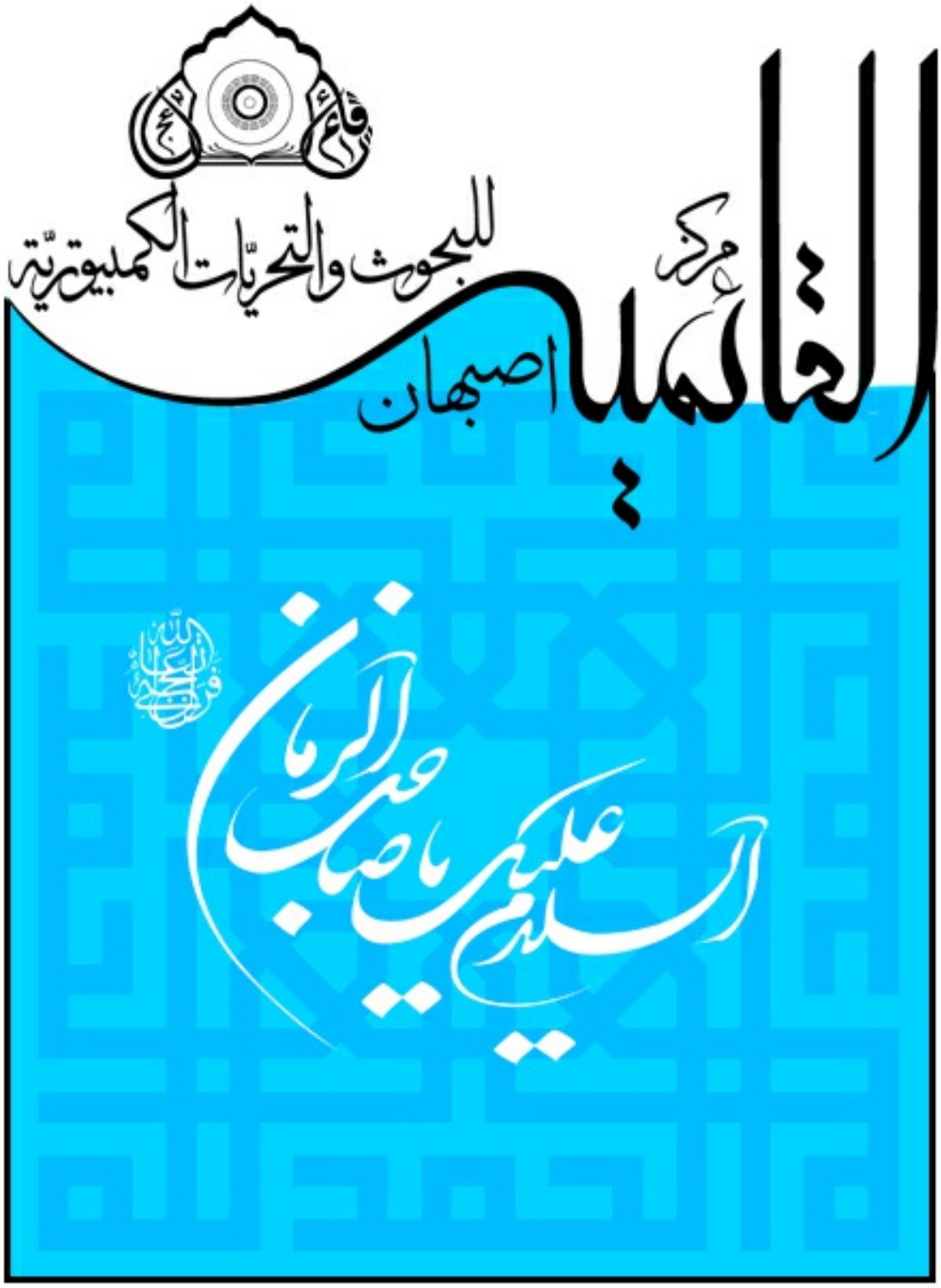

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

إعجاز القرآن

تأليف

القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني

المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحیم

اعجاز القرآن

كاتب:

ابوبكر محمد بن طيب باقلانى

نشرت فى الطباعة:

مكتبه و مطبعه محمد على صبيح و اولاده

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

إعجاز القرآن (الباقلانی) ----- ۷

اشاره ----- ۷

اشاره ----- ۷

ترجمه المؤلف ----- ۹

نسبه: ----- ۹

شیوخه: ----- ۹

مؤلفاته: ----- ۹

وفاته: ----- ۹

انظر ترجمته فی: ----- ۹

مقدمه ----- ۱۱

فصل: فی أن نبوه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجزتها القرآن ----- ۱۵

فصل: فی الدلاله علی أنّ القرآن معجزه ----- ۲۱

فصل: فی جمله وجوه إعجاز القرآن ----- ۳۴

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن ----- ۴۷

فصل: فی نفی الشعر من القرآن ----- ۵۰

فصل: فی نفی السجع من القرآن ----- ۵۶

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام ----- ۶۳

فصل: فی کیفیه الوقوف علی إعجاز القرآن ----- ۱۱۱

اشاره ----- ۱۱۱

لیبلّغ الشاهد الغائب.. ----- ۱۲۰

من کان همه الآخره جمع اللّه له شمله.. ----- ۱۲۲

باب:أیهما أبلغ..الشعر أم النثر؟! ----- ۱۳۵

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن ----- ۲۰۰

اشاره ---- ۲۰۰
التحدی ---- ۲۰۰
قدر المعجز من القرآن ---- ۲۰۲
فصل: فی أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضروره؟ ---- ۲۰۵
فصل: فیما یتعلق به الإعجاز ---- ۲۰۶
فصل: فی وصف وجوه من البلاغه ---- ۲۰۷
فصل: فی حقیقه المعجز ---- ۲۲۶
فصل: فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز ---- ۲۲۸
خاتمه ---- ۲۳۲
تعریف مرکز ---- ۲۳۶

إعجاز القرآن (الباقلانی)

اشاره

نام کتاب: إعجاز القرآن(الباقلانی)

نویسنده: ابو بکر محمد بن الطیب الباقلانی

موضوع: اعجاز

تاریخ وفات مؤلف: ۴۰۳ ق

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

ناشر: دارالکتب العلمیه

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۲۱ / ۲۰۰۱

نوبت چاپ: اوّل

ص: ۱

اشاره

ترجمه المؤلف

نسبه:

هو:محمد بن الطيب أبو بكر الباقلانى رأس المتكلمين على مذهب الشافعى،و هو من أكثر الناس كلاما و تصنيفا فى الكلام.

شيوخه:

له شيوخ كثيرون منهم:أبو بكر الأبهرى،و أبو بكر القطيعى،و أبو محمد بن ماسى، و أبو عبد اللّه الشيرازى و آخرون.

مؤلفاته:

له مؤلفات عديده منها:إعجاز القرآن و هو هذا الكتاب،و التبصره،و دقائق الحقائق،و التمهيد فى أصول الفقه،و شرح الإبانه،و غير ذلك.

وفاته:

توفى سنه(۴۰۳ ه)رحمه اللّه،و رضى عنه.

انظر ترجمته فى:

۱-البدايه و النهايه ۱۱/۳۵۰-۳۵۱.

۲-وفيات الأعيان ۱/۴۸۱.

كتبه أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضه.

مقدمه

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه المنعم على عباده بما هداهم إليه من الإيمان،و المتمّم إحسانه بما أقام لهم من جلىّ البرهان،الذى حمد نفسه بما أنزل من القرآن،ليكون بشيرا و نذيرا،و داعيا إلى اللّه بإذنه و سراجا منيرا،و هاديا إلى ما ارتضى لهم من دينه،و سلطانا أوضح تبيينه،و دليلا على وحدانيته،و مرشدا إلى معرفه عزته و جبروته،و مفصحا عن صفات جلاله،و علو شأنه، و عظيم سلطانه،و حجه لرسوله الذى أرسله به،و علما على صدقه،و بينه على أنه أمينه على وحيه،و صادع بأمره.

فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمّله،و رساله تشتمل على تصحيح قول مؤدّيها،بيّن فيه سبحانه أن حجّته كافيه هاديه.لا يحتاج مع وضوحها إلى بينه تعدوها،أو حجه تتلوها،و إن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات،و الشكّ فى المشاهدات.

و لذلك قال عز ذكره: وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱).و قال عز و جل: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۲).

فله الشكر على جزيل إحسانه،و عظم مننه،و الصلاه على سيدنا محمد المصطفى و آله و سلم.

و من أهم ما يجب على أهل الدين كشفه،و أولى ما يلزم بحثه،ما كان لأصل دينهم قواما،و لقاعده توحيدهم عمادا و نظاما،و على صدق نبيهم صلّى اللّه عليه و سلّم برهانا،و لمعجزته ثبتا و حجه،لا سيما و الجهل ممدود الرواق،شديد النفاق،مستول على الآفاق.و العلم إلى عفاء و دروس،و على خفاء و طموس،و أهله فى جفوه الزمن البهيم،يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشئيم،حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه،و الأخذ فى سبله.

فالناس بين رجلين:ذاهب عن الحق،ذاهل عن الرشد،و آخر مصدود عن نصرته،

۱- آيه(۷)سوره الأنعام.

۲- آيه(۱۴،۱۵)سوره الحجر.

مکدود فی صنعته.فقد أدی ذلک إلی خوض الملحدین فی أصول الدین،و تشکیکهم أهل الضعف فی کل یقین.و قد قل أنصاره،و اشتغل عنه أعوانه،و أسلمه أهله،فصار عرضه لمن شاء أن یتعرض فیه،حتی عاد مثل الأمر الأول علی ما خاضوا فیه عند ظهور أمره، فمن قائل قال:إنه سحر.و قائل یقول:إنه شعر.و آخر یقول:إنه أساطیر الأولین.

و قالوا:لو نشاء لقلنا مثل هذا،إلی الوجوه التی حکی اللّه عز و جل عنهم أنهم قالوا فیه و تکلموا به،فصرفوه إلیه.

و ذکر لی عن بعض جهالهم أنه جعل یعدله ببعض الأشعار،و یوازن بینه و بین غیره من الکلام،و لا یرضی بذلک حتی یفضله علیه! و لیس هذا ببدیع من ملحده هذا العصر،و قد سبقهم إلی عظم ما یقولونه إخوانهم من ملحده قریش و غیرهم.إلا أن أکثر من کان طعن فیه فی أول أمره،استبان رشده،و أبصر قصده،فتاب و أناب،و عرف من نفسه الحق بغریزه طبعه،و قوه إتقانه،لا لتصرف لسانه، بل لهدایه ربه و حسن توفیقه.و الجهل فی هذا الوقت أغلب،و الملحدون فیه عن الرشد أبعد،و عن الواجب أذهب.

و قد کان یجوز أن یقع ممن عمل الکتب النافعه فی معانی القرآن،و تکلم فی فوائده من أهل صنعه العربیه و غیرهم من أهل صناعه الکلام،أن یبسطوا القول فی الإبانه عن وجه معجزته،و الدلاله علی مکانه.فهو أحق بکثیر مما صنفوا فیه من القول فی الخبر،و دقیق الکلام فی الأعراض،و کثیر من بدیع الإعراب،و غامض النحو.فالحاجه إلی هذا أمس، و الاشتغال به أوجب.

و قد قصر بعضهم فی هذه المسأله،حتی أدی ذلک إلی تحول قوم منهم إلی مذاهب البراهمه فیها،و رأوا أن عجز أصحابهم عن نصره هذه المعجزه یوجب أن لا یستنصر فیها، و لا وجه لها حین رأوهم قد برعوا فی لطیف ما أبدعوا،و انتهوا إلی الغایه فیما أحدثوا و وضعوا.ثم رأوا ما صنفوه فی هذا المعنی غیر کامل فی بابه،و لا مستوفی فی وجهه،قد أخلّ بتهذیب طرقه،و أهمل ترتیب بیانه،و قد یعذر بعضهم فی تفریط یقع منه فیه،و ذهاب عنه،لأن هذا الباب مما یمکن إحکامه بعد التقدم فی أمور شریفه المحل،عظیمه المقدار، دقیقه المسلک،لطیفه المأخذ.

و إذا انتهینا إلی تفصیل القول فیها،استبان ما قلناه من الحاجه إلی هذه المقدمات، حتی یمکن بعدها إحکام القول فی هذا الشأن.

و قد صنف«الجاحظ» (۱)فی نظم القرآن کتابا،لم یزد فیه علی ما قاله المتکلمونده

۱- الجاحظ هو:أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الکنانی اللیثی بالولاء.بلغ من الذکاء و جوده

قبله،و لم یکشف عما یلتبس فی أکثر هذا المعنی.

و سألنا سائل أن نذکر جمله من القول جامعه،تسقط الشبهات،و تزیل الشکوک التی تعرض للجهّال،و تنتهی إلی ما یخطر لهم،و یعرض لأفهامهم من الطعن فی وجه المعجزه.

فأجبناه إلی ذلک،متقربین إلی اللّه عز و جل،و متوکلین علیه و علی حسن توفیقه و معونته.و نحن نبین ما سبق فیه البیان من غیرنا،و نشیر إلیه،و لا نبسط القول؛لئلا یکون ما ألّفناه مکررا و مقولا،بل یکون مستفادا من جهه هذا الکتاب خاصه.و نضیف إلیه ما یجب وصفه من القول فی تنزیل متصرّفات الخطاب،و ترتیب وجوه الکلام،و ما تختلف فیه طرق البلاغه،و تتفاوت من جهته سبل البراعه،و ما یشتبه له ظاهر الفصاحه،و یختلف فیه المختلفون من أهل صناعه العربیه،و المعرفه بلسان العرب فی أصل الوضع.

ثم ما اختلفت به مذاهب مستعملیه فی فنون ما ینقسم إلیه الکلام،من شعر و رسائل، و خطب و غیر ذلک من مجاری الخطاب.

و إن کانت هذه الوجوه الثلاثه أصول ما یبین فیه التفاصح،و تقصد فیه البلاغه؛لأن هذه أمور یتعمّل لها فی الأغلب،و لا یتجوز فیها.ثم من بعد هذا الکلام الدائر فی محاوراتهم،و التفاوت فیه أکثر،لأن التعمل فیه أقل.إلا من غزاره طبع،أو فطانه تصنّع، و تکلّف.و نشیر إلی ما یجب فی کل واحد من هذه الطرق لیعرف عظم محل القرآن،و لیعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه،و تجاوزه الحد الذی یصح أو یجوز أن یوازن بینه و بینها،أو یشتبه ذلک علی متأمل.

و لسنا نزعم أنه یمکننا أن نبین ما رمنا بیانه،و أردنا شرحه و تفصیله لمن کان عن معرفه الأدب ذاهبا،و عن وجه اللسان غافلا،لأن ذلک مما لا سبیل إلیه إلا أن یکون الناظر فیما تعرض علیه مما قصدنا إلیه من أهل صناعه العربیه قد وقف علی جمل من محاسن الکلام و متصرفاته،و مذاهبه،و عرف جمله من طرق المتکلمین،و نظر فی شیء من أصول الدین،و إنما ضمن اللّه عز و جل فیه البیان لمثل من وصفناه فقال: کِتابٌ فُصِّلَتْ آیاتُهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۱)و قال: إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۲).ف.

۱- -القریحه ما جعله من کبار أئمه الأدب.مات سنه(۲۵۵ ه)له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۳۸۸/۱، و طبقات الأدباء(۲۵۴)،و تاریخ بغداد ۲۱۴/۱۲.

۲- آیه(۳)سوره الزخرف.

فصل: فی أن نبوه النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجزتها القرآن

الـذی یوجب الاهتمام التامّ بمعرفه إعجاز القرآن،أن نبوه نبینا علیه السّـلام بنیت علی هـذه المعجزه.و إن کان قـد أیّـد بعد ذلک بمعجزات کثیره،إلا أن تلک المعجزات قامت فی أوقات خاصه،و أحوال خاصه،و علی أشخاص خاصه،و نقل بعضها نقلا متواترا یقع به العلم وجودا.و بعضـها مما نقل نقلا خاصا،إلا أنه حکی بمشهد من الجمع العظیم،أنهم شاهدوه.فلو کان الأمر علی خلاف مـا حکی،لأنکروه،أو لأنکره بعضـهم،فحل محل المعنی الأول،و إن لم یتواتر أصل النقل فیه.و بعضـها مما نقل من جهه الآحاد،و کان وقوعه بین یدی الآحاد.

فأمـا دلالـه القرآن فهی عن معجزه عـامه عمّت الثّقلین،و بقیت بقـاء العصـرین،و لزوم الحجه بهـا فی أول وقت ورودهـا إلی یـوم القیـامه،علی حدّ واحـد،و إن کان قـد یعلم بعجز أهل العصـر الأول عن الإتیان بمثله،وجه دلالته،فیغنی ذلک عن نظر مجـدّد فی عجز أهل هـذا العصـر عن الإتیان بمثله،و کذلک قد یغنی عجز أهل هذا العصـر عن الإتیان بمثله،عن النظر فی حال أهل العصـر الأول.

و إنمـا ذکرنـا هـذا الفصـل لما حکی عن بعضـهم أنه زعم أنه و إن کان قـد عجز عنه أهل العصـر الأول،فلیس أهل هـذا العصـر بعـاجزین عنه.و یکفی عجز أهـل العصـر الأـول فی الـدلاله أنهم خصّـوا بالتحـدّی،دون غیرهم.و نحن نـبین خطأ هـذا القول فی موضعه.

فأمـا الـذی یـبین مـا ذکرنـاه من أن اللّه تعـالی،حین ابتعثه،جعـل معجزته القرآن و بنی أمر نبوته علیه سور کـثیره،و آیـات نـذکر بعضها،و ننبه بالمذکور علی غیره.فلیس یخفی بعد التنبیه علی طریقه،فمن ذلک قوله تعالی: الر کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۱)فأخبر أنه أنزله لیقع الاهتـداء به،و لا یکون کـذلک و إلا و هو حجه،و لا تکون حجه إن لم تکن معجزه.و قال عز و جل:

۱- آیه(۱)سوره إبراهیم.

وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللّهِ (۱)آیه(۵)سوره غافر.(۲) وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۳) و هذا بيّن جدا فيما قلناه من أنه جعله سببا لكونه منذرا.ثم أوضح ذلك بأن قال: بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .فلولا أن كونه بهذا اللسان حجه،لم يعقب كلامه الأول به.و ما من سوره افتتحت بذكر الحروف المقطعه،إلا و قد أشبع فيها بيان ما قلناه.و نحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، و كثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجه القرآن،و التنبيه على وجه معجزته.فمن ذلك سوره المؤمن قوله عز و جل: حم* تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۴)ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله: غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ (۵)إلى أن قال: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا (۶)فدل على أن الجدال فى تنزيله كفر و إلحاد.ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم،بقوله عز و جل:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ (۶) إلى آخر الآيه.فتوعدهم بأنه آخذهم فى الدنيا بذنبهم فى تكذيب الأنبياء،ورد براهينهم،فقال: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (۷)ثم توعدهم بالنار فقال: وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَهُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النّارِ (۸)ثم عظم شأن المؤمنين بهذه الحجه،بما أخبر من استغفار الملائكه لهم،و ما وعدهم عليه من المغفره،فقال: اَلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَهً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۹).

فلولا أنه برهان قاهر،لم يذم الكفار على العدول عنه،و لم يحمد المؤمنين على المصير إليه.ثم ذكر تمام الآيات فى دعاء الملائكه للمؤمنين،ثم عطف على وعيد الكافرين،فذكر آيات،ثم قال: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ (۱۰)فأمر بالنظر فى آياته و براهينه،ر.

۱- آیه

۲- سوره التوبه.

۳- آیه(۱۹۲،۱۹۴)سوره الشعراء.

۴- آیه(۱،۲)سوره غافر.

۵- آیه(۳)سوره غافر.

۶- آیه(۴)سوره غافر.

۷- الآیه السابقه.

۸- آیه(۶)سوره غافر.

۹- آیه(۷)سوره غافر.

۱۰- آیه(۱۳)سوره غافر.

إلی أن قال: رَفِیعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ (۱)فجعل القرآن و الوحی به کالروح،لأنه یؤدی إلی حیاه الأبد،و لأنه لا فائده للجسد بدون الروح.فجعل هذا الروح سببا للإنذار،و علما علیه،و طریقا إلیه،و لو لا أن ذلک برهان بنفسه،لم یصح أن یقع به الإنذار و الإخبار عما یقع عند مخالفته،و لم یکن الخبر عن الواقع فی الآخره عند ردّهم دلالته من الوعید حجه،و لا معلوما صدقه،فکان لا یلزمهم قبوله.

فلما خلص من الآیات فی ذکر الوعید علی ترک القبول،ضرب لهم المثل بمن خالف الآیات،و جحد الدلالات و المعجزات،فقال: أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ الَّذِینَ کانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّهً وَ آثاراً فِی الْأَرْضِ،فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَ ما کانَ لَهُمْ مِنَ اللّهِ مِنْ واقٍ (۲).

ثم بین أن عاقبتهم صارت إلی السوأی،بأن رسلهم کانت تأتیهم بالبینات و کانوا لا یقبلونها منهم.فعلم أن ما قدم ذکره فی السوره بینه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم.ثم ذکر قصه موسی و یوسف علیهما السلام،و مجیئهما بالبینات،و مخالفتهم حکمها،إلی أن قال: اَلَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ الَّذِینَ آمَنُوا،کَذلِکَ یَطْبَعُ اللّهُ عَلی کُلِّ قَلْبِ مُتَکَبِّرٍ جَبّارٍ (۳).فأخبر أن جدالهم فی هذه الآیات لا یقع بحجه،و إنما یقع عن جهل.و أن اللّه یطبع علی قلوبهم،و یصرفهم عن تفهم وجه البرهان لجحودهم، و عنادهم،و استکبارهم.

ثم ذکر کثیرا من الاحتجاج علی التوحید.ثم قال تعالی: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللّهِ أَنّی یُصْرَفُونَ (۴)ثم بین هذه الجمله،و أن من آیاته الکتاب فقال: اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِالْکِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۵)إلی أن قال: وَ ما کانَ لِرَسُولٍ أَنْ یَأْتِیَ بِآیَهٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ (۶)فدل علی أن الآیات علی ضربین:أحدهما کالمعجزات التی هی أدله فی دار التکلیف،و الثانی الآیات التی ینقطع عندها العذر،و یقع عندها العلم الضروری،و أنها إذا جاءت،ارتفع التکلیف و وجب الإهلاک.إلی أن قال: فَلَمْ یَکُد.

۱- آیه(۱۵)سوره غافر.

۲- آیه(۲۱)سوره غافر.

۳- آیه(۳۵)سوره غافر.

۴- آیه(۶۹)سوره غافر.

۵- آیه(۷۰)سوره غافر.

۶- آیه(۳۸)سوره الرعد.

يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا (۱) فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات،و لكنه إذا أقامها زال التكليف،و حقت العقوبه على الجاحدين.

كذلك ذكر فى حم السجده على هذا المنهاج الذى شرحناه،فقال عز و جل: حم.

تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيراً وَ نَذِيراً (۲) .

فلولا أنه جعله برهانا،لم يكن بشيرا و لا نذيرا،و لم يختلف بأن يكون عربيا مفصلا،أو بخلاف ذلك.ثم أخبر عن جحودهم و قله قبولهم بقوله جلّ ذكره: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۳)آيه(۴)سوره فصلت.(۵)و لو لا أنه حجه لم يضرّهم الإعراض عنه،و ليس لقائل أن يقول:قد يكون حجه و يحتاج فى كونه حجه إلى دلاله أخرى،كما أن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم حجه.و لكنه يحتاج إلى دلاله على صدقه و صحه نبوته،و ذلك أنه إنما احتجّ عليهم بنفس هذا التنزيل.و لم يذكر حجه غيره.

و يبين ذلك أنه قال عقيب هذا: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ (۴)فأخبر أنه مثلهم لو لا الوحى،ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدقين له فقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶)آيه(۲۶)سوره فصلت(۷)و معناه الذين آمنوا بهذا الوحى و التنزيل، و عرفوا هذه الحجه.

ثم تصرف فى هذا الاحتجاج على الوحدانيه،و القدره إلى أن قال: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَهً مِثْلَ صاعِقَهِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۶)،فتوعدهم بما أصاب من قبلهم من المكذبين بآيات اللّه من قوم عاد و ثمود فى الدنيا.ثم توعّدهم بأمر الآخره فقال: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللّهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۸)،إلى انتهاء ما ذكره فيه.ثم رجع إلى ذكر القرآن،فقال: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۸).

ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول فقال: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوالت

۱- آيه(۸۵)سوره غافر.

۲- آيه(۱:۴)سوره فصلت.

۳- آيه

۴- آيه(۱۳)سوره فصلت.

۵- سوره فصلت.

۶- آيه

۷- سوره فصلت.

۸- آيه(۱۹)سوره فصلت.

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَهُ أَلاّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا (۱) ثم قال جلّ ذكره: وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۲)و هذا ينبه على أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم يعرف إعجاز القرآن،و أنه دلاله له على جهه الاستدلال لأن الضروريات لا يقع فيها نزغ الشيطان.

و نحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل فى موضعه ثم قال: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آياتِنا (۳)إلى أن قال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ (۴)و هذا و إن كان متأولا على أنه لا يوجد فيه غير الحق،مما يتضمنه من أقاصيص الأولين،و أخبار المرسلين،و كذلك لا يوجد خلاف فيما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب،و عن الحوادث التى أنبأ أنها تقع فى الآتى،فلا يخرج عن أن يكون متأولا على ما يقتضيه نظام الخطاب،من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهه سابقه تقدح فى معجزته،أو تعارضه فى طريقه.

و كذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته و إعجازه.و هذا أشبه بسياق الكلام و نظامه،ثم قال: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ (۵)فأخبر أنه لو كان أعجميا،لكانوا يحتجون فى رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم،و كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفه معناه،و بأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه، لأنه ليس من شأنهم و لا من لسانهم.أو بغير ذلك من الأمور،و أنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم و شأنهم فعجزوا عنه،وجبت الحجه عليهم به،على ما نبينه فى وجه هذا الفصل إلى أن قال: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقاقٍ بَعِيدٍ (۶).

و الذى ذكرنا من نظم هاتين السورتين،ينبه على غيرهما من السور،فكرهنا سرد القول فيها.فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يجده كذلك.ثم مما يدل على هذا قوله عز و جل: وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَ وَ لَمْت.

۱- آیه(۳۰)سوره فصلت.

۲- آیه(۳۶)سوره فصلت.

۳- آیه(۴۰)سوره فصلت.

۴- آیه(۴۱)سوره فصلت.

۵- آیه(۴۴)سوره فصلت.

۶- آیه(۵۲)سوره فصلت.

يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ (۱) فأخبر أن الكتاب آيه من آياته،و علم من أعلامه و أن ذلك يكفى فى الدلاله،و يقوم مقام معجزات غيره،و آيات سواه من الأنبياء، صلوات اللّه عليهم.و يدل عليه قوله عز و جل: تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً. اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ (۲)و قوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً،فَإِنْ يَشَإِ اللّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ (۳)فدل على أنه جعل قلبه مستودعا لوحيه،و مستنزلا لكتابه،و أنه لو شاء صرف ذلك إلى غيره.و كان له حكم دلالته على تحقيق الحق،و إبطال الباطل،مع صرفه عنه.و لذلك أشباه كثيره تدل على نحو الدلاله التى وصفناها،فبان بهذا و نظائره ما قلناه من أن بناء نبوته(صلّى اللّه عليه و سلّم)على دلاله القرآن و معجزته،و صار له من الحكم فى دلالته على نفسه،و صدقه،أنه يمكن أن يعلم أنه كلام اللّه تعالى،و فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزله على الأنبياء،لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد،و وصف مضاف إليها،لأن نظمها ليس معجزا،و إن كان ما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزا.

و ليس كذلك القرآن؛لأنه يشاركها فى هذه الدلاله و يزيد عليها فى أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه،و حل فى هذا من وجه محل سماع الكلام من القديم سبحانه و تعالى،لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامه علم أنه فى الحقيقه كلامه.

و كذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام اللّه،و إن اختلف الحال فى ذلك من بعض الوجوه،لأن موسى عليه السلام سمعه من اللّه عز و جل،و أسمعه نفسه متكلما،و ليس كذلك الواحد منا.و كذلك قد يختلفان فى غير هذا الوجه،و ليس ذلك قصدنا بالكلام فى هذا الفصل.

و الذى نرومه الآن ما بيّنا من اتفاقهما فى المعنى الذى وصفنا،و هو أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام اللّه من جهه الاستدلال.و كذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهه الاستدلال.ى.

۱- آيه(۵۰-۵۱)سوره العنكبوت.

۲- آيه(۱،۲)سوره الفرقان.

۳- آيه(۲۴)سوره الشورى.

فصل: فی الدلاله علی أنّ القرآن معجزه

قد ثبت فی الفصل الأول أن نبوه نبینا صلّی اللّه علیه و سلّم،مبنیه علی دلاله معجزه القرآن،فیجب أن نبین وجه الدلاله،من ذلک قد ذکر العلماء،أن الأصل فی هذا هو أن تعلم أن القرآن الذی هو متلو محفوظ مرسوم فی المصاحف،هو الذی جاء به النبی صلّی اللّه علیه و سلّم.و أنه هو الذی تلاه علی من فی عصره ثلاثا و عشرین سنه.

و الطریق إلی معرفه ذلک،هو النقل المتواتر (۱)الذی یقع عنده العلم الضروری به.

و ذلک أنه قام به فی الموقف،و کتب به إلی البلاد،و تحمله عنه إلیها من تابعه،و أورده علی غیره من لم یتابعه،حتی ظهر فیهم الظهور الذی لا یشتبه علی أحد.و لا یحتمل أنه قد خرج من أتی بقرآن یتلوه،و یأخذه علی غیره،و یأخذ غیره علی الناس،حتی انتشر ذلک فی أرض العرب کلها،و تعدی إلی الملوک المعاقبه لهم،کملک الروم و العجم و القبط و الحبش، و غیرهم من ملوک الأطراف.

و لما ورد ذلک مضادّا لأدیان أهل ذلک العصر کلهم،و مخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفه فی الکفر،وقف جمیع أهل الخلاف علی جملته،و وقف جمیع أهل دینه الذین أکرمهم اللّه بالإیمان علی جملته و تفاصیله،و تظاهر بینهم،حتی حفظه الرجال،و تنقّلت به الرّحال،و تعلّمه الکبیر و الصغیر،إذ کان عمده دینهم،و علما علیه،و المفروض تلاوته فی صلواتهم،و الواجب استعماله فی أحکامهم.

ثم تناقله خلف عن سلف.هم مثلهم فی کثرتهم و توفر دواعیهم علی نقله،حتی

۱- قال البلقینی:«اعلم أنّ القراءات تنقسم إلی متواتر و شاذ. فالمتواتر:القراءات السبع المشهوره،و المراد بذلک:ما قرءوه من الحرکات و الحروف دون ما کان من قبیل تأدیه اللفظ من أنواع الإماله و المدّ و التخفیف فلیس بمتواتر.نعم أصل المدّ و الإماله و التخفیف متواتر لاشتراک القراء فیه. و أما ما عدا السبعه من قراءه أبی جعفر یزید بن القعقاع و یعقوب و اختیارات خلف التی هی تمام العشر فإنها لیست من المتواتر علی الأرجح».التحبیر ص(۱۲۹).

انتهى إلينا على ما وصفناه من حاله.فلن يتشكّك أحد،و لا يجوز أن يتشكك،مع وجود هذه الأسباب،فى أنه أتى بهذا القرآن من عند اللّه تعالى.فهذا أصل،و إذا ثبت هذا الأصل وجودا فإنا نقول:إنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله،و قرّعهم على ترك الإتيان به طول السنين التى وصفناها.فلم يأتوا بذلك.

و الذى يدل على هذا الأصل،أنا قد علمنا أن ذلك مذكور فى القرآن فى المواضع الكثيره؛كقوله: وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَهٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَهُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (۱).و كقوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۲).

فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله،دليلا على أنه منه،و دليلا على وحدانيته.و ذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن يعلم بالقرآن الوحدانيه،و زعم أن ذلك مما لا سبيل إليه،إلا من جهه العقل.لأن القرآن كلام اللّه عز و جل،و لا يصح أن يعلم الكلام حتى يعلم المتكلم أولا.

فقلنا:إذا ثبت بما نبيّنه إعجازه،و أن الخلق لا يقدرون عليه،ثبت أن الذى أتى به غيرهم،و أنه إنما يختصّ بالقدره عليه،من يختصّ بالقدره عليهم،و أنه صدق،و إذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقا.و ليس إذا أمكن معرفته من جهه العقل،امتنع أن يعرف من الوجهين.و ليس الغرض تحقيق القول فى هذا الفصل لأنه خارج عن مقصود كلامنا،و لكنّا ذكرناه من جهه دلاله الآيه عليه.

و من ذلك قوله عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۳)و قوله: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴)فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه،و لم يأتوا بمثله.

و فى هذا أمران:أحدهما التحدى إليه؛و الآخر أنهم لم يأتوا له بمثل.و الذى يدلر.

۱- آيه(۲۳،۲۴)سوره البقره.

۲- آيه(۱۳،۱۴)سوره هود.

۳- آيه(۸۸)سوره الإسراء.

۴- آيه(۳۳،۳۴)سوره الطور.

على ذلك النقل المتواتر الذى يقع به العلم الضرورى،فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين.

و إن قال قائل:لعله لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكر التحدى،و إنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن،كان كذلك قولا باطلا،يعلم بطلانه مثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا!و هو يبلغ حمل جمل!و إنه كتم،و سيظهره المهدى!!أو يدّعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبى صلّى اللّه عليه و سلّم،و إنما هو شيء وضعه عمر (۱)أو عثمان (۲)رضى اللّه عنهما،حيث وضع المصحف.أو يدعى فيه زياده أو نقصانا.

و قد ضمن اللّه حفظ كتابه أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه،و وعده الحق، و حكايه قوله من قال ذلك يغنى عن الردّ عليه،لأن العدد الذين أخذوا القرآن فى الأمصار، و فى البوادى،و فى الأسفار،و الحضر،و ضبطوه حفظا من بين صغير و كبير،و عرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف،لا يجوز عليهم السهو و النسيان،و لا التخليط فيه و الكتمان.

و لو زادوا و نقصوا أو غيّروا لظهر.و قد علمت أن شعر امرئ القيس (۳)و غيره لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن،و لا أن يحفظ كحفظه،و لا أن يضبط كضبطه،و لا أن تمسّ الحاجه إليه مساسها إلى القرآن،لو زيد فيه بيت أو نقص منه بيت.لا بل لو غير فيه لفظ لتبرأ منه أصحابه.و أنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن فى شعر امرئ القيس و نظرائه،مع أن الحاجه إليه تقطع لحفظ العربيه،فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه فى القرآن،مع شده الحاجه إليه فى أصل الدين،ثم فى الأحكام و الشرائع،و اشتمال الهمم المختلفه على ضبطه.

فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته،و معرفه وجوهها،و صحه أدائها.

و منهم من يحفظه للشرائع،و الفقه.).

۱- عمر هو:ابن الخطاب بن نفيل بن رياح القرشى العدوى أمير المؤمنين.كان من قديمى الإسلام و الهجره،و ممن صلى إلى القبلتين،و شهد المشاهد كلها،و أخباره فى العلم و الحلم و الفهم أكثر من أن تحصر.له ترجمه فى:أسد الغابه ۱۴۵/۴،و الإصابه ۵۱۱/۲،و النجوم الزاهره ۷۸/۱.

۲- عثمان هو:ابن عفان بن أبى العاص بن أميه القرشى الأموى المكى.كان من السابقين الأولين و ممن صلى إلى القبلتين،و هاجر الهجرتين،ثم إنه أحد العشره المبشرين بالجنه.له ترجمه فى:أسد الغابه ۵۸۴/۳،و الإصابه ۴۵۵/۲،و النجوم الزاهره ۹۲/۱.

۳- امرؤ القيس هو:ابن حجر الكندى.كان أشرف شعراء الجاهليه و أشهرهم،و أرفعهم منزله.مات سنه (۵۴۰ م).له ترجمه فى:خزانه الأدب ۵۳۲/۳،و الشعر و الشعراء ص(۳۷).

و منهم من يضبطه ليعرف تفسيره و معانيه.

و منهم من يقصد بحفظه الفصاحه و البلاغه.و من الملحدين من يحصّله لينظر فى عجيب شأنه.

و كيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفه،و الآراء المتباينه على كثره أعدادهم، و اختلاف بلادهم،و تفاوت أغراضهم،أن يجتمعوا على التغيير و التبديل و الكتمان؟ و يبين ذلك أنك إذا تأملت ما ذكر فى أكثر السور مما بينا،و من نظائره فى رد قومه عليه ورد غيرهم،و قولهم لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا (۱)،و قول بعضهم: ما سَمِعْنا بِهذا فِى الْمِلَّهِ الْآخِرَهِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ (۲)،إلى الوجوه التى يصرف إليها قولهم فى الطعن عليه.

فمنهم من يستهين بها و يجعل ذلك سببا لتركه الإتيان بمثله.

و منهم من يزعم أنه مفترى،فلذلك لا يأتى بمثله.

و منهم من يزعم أنه دارس،و أنه أساطير الأولين.و كرهنا أن نذكر كل آيه تدل على تحديه لئلا يقع التطويل.و لو جاز أن يكون بعضه مكتوما،جاز على كله.و لو جاز أن يكون بعضه موضوعا،جاز ذلك فى كله.فثبت بما بيناه،أنه تحدّاهم و أنهم لم يأتوا بمثله.

و هذا الفصل قد بينا أن الجميع قد ذكروه،و بنوا عليه،فإذا ثبت هذا،وجب أن يعلم بعده أن تركهم للإتيان بمثله،كان لعجزهم عنه.و الذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن،أنه تحداهم إليه حتى طال التحدى.و جعله دلاله على صدقه،و نبوّته، و تضمّن أحكامه استباحه دمائهم و أموالهم،و سبى ذريتهم.فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا و توصلوا إلى تخليص أنفسهم و أهليهم و أموالهم من حكمه،بأمر قريب،هو عادتهم فى لسانهم،و مألوف من خطابهم.و كان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال و إكثار المراء و الجدال،و عن الجلاء عن الأوطان،و عن تسليم الأهل و الذريه للسبى.

فلما لم يحصل هناك معارضه منهم علم أنهم عاجزون عنها يبيّن ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه،من المكايد،لا سيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجىء من خلع آلهته،و تسفيه رأيه فى ديانته،و تضليل آبائه،و التغريب عليه بما جاء به،و إظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته،و التصرف على حكم إرادته،و العدول عن إلفه و عادته،و الانخراط فى سلك الأتباع بعد أن كان متبوعا،و التشييع بعد أن كان مشيّعا،و تحكيم الغير فى ماله و تسليطه إياه على جمله أحواله،و الدخول تحت تكاليف شاقه،و عبادات متعبه بقوله.و قدص.

۱- آيه(۳۲)سوره الأنفال.

۲- آيه(۷)سوره ص.

علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه.

هذا و الحميّه حميتهم،و الهمم الكبيره هممهم.و قد بذلوا له السيف و أخطروا بنفوسهم و أموالهم.فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه،و إلى تكذيبه بأهون سعيهم، و مألوف أمرهم.و ما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين،أو يشتغل به خاطر،و هو لسانهم الذى يتخاطبون به،مع بلوغهم فى الفصاحه النهايه التى ليس وراءها مطلع و الرتبه التى ليس وراءها منزع،و معلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، و تكذيب قوله،و تفريق جمعه،و تشتيت أسبابه.و كان من صدق به يرجع على أعقابه، و يعود فى مذهب أصحابه،فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المده،و وقوع الفسحه، و كان أمره يتزايد حالا فحالا،و يعلو شيئا فشيئا،و هم على العجز عن القدح فى آيته، و الطعن فى دلالته،علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته،و لا على توهين حجته.

و قد أخبر اللّه تعالى عنهم أنهم قوم خصمون،و قال: وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (۱)و قال:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَهٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۲)آيه(۳۶)سوره القصص.(۳) و علم أيضا أن ما كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما حكى اللّه عز و جل عنهم من قولهم: لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۴)و قولهم: ما هذا إِلاّ سِحْرٌ مُفْتَرىً،وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِى آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۴)و قالوا: يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۵)آيه(۳)سوره الأنبياء.(۶)و قالوا: أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۶)و قالوا: أَ إِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۷)و قال الذين كفروا: إِنْ هَذا إِلاّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (۸)فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً.

وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَهً وَ أَصِيلاً (۹) و قوله سبحانه: وَ قالَ الظّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّ رَجُلاً مَسْحُوراً (۱۰)و قوله: اَلَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ.

۱- آيه(۹۷)سوره مريم.

۲- آيه

۳- سوره النحل.

۴- آيه(۳۱)سوره الأنفال.

۵- آيه

۶- سوره الحجر.

۷- آيه(۳۶)سوره الصافات.

۸- آيه(۴)سوره الفرقان.

۹- آيه(۵)سوره الفرقان.

۱۰- آيه(۸)سوره الفرقان.

عِضِينَ (۱) .

إلی آیات کثیره فی نحو هذا،تدل علی أنهم کانوا متحیرین فی أمرهم،متعجبین من عجزهم،یفزعون إلی نحو هذه الأمور من تعلیل،و تعذیر،و مدافعه،بما وقع التحدی إلیه،و عرف الحث علیه.

و قد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب،و جاهروه و نابذوه و قطعوا الأرحام،و أخطروا بأنفسهم،و طالبوه بالآیات،و الإتیان بغیر ذلک من المعجزات،یریدون تعجیزه لیظهروا علیه بوجه من الوجوه.

فکیف یجوز أن یقدروا علی معارضته القریبه السهله علیهم،و ذلک یدحض حجّته و یفسد دلالته،و یبطل أمره،فیعدلون عن ذلک إلی سائر ما صاروا إلیه من الأمور التی لیس علیها مزید فی المنابذه و المعاداه،و یترکون الأمر الخفیف؟ هذا مما یمتنع وقوعه فی العادات،و لا یجوز إتقانه من العقلاء.و إلی هذا قد استقصی أهل العلم الکلام،و أکثروا فی هذا المعنی و أحکموه.و یمکن أن یقال:إنهم لو کانوا قادرین علی معارضته،و الإتیان بمثل ما أتی به،لم یجز أن یتفق منهم ترک المعارضه، و هم علی ما هم علیه من الذرابه و السلاقه و المعرفه بوجوه الفصاحه.و هو یستطیل علیهم بأنهم عاجزون عن مباراته،و إنهم یضعفون عن مجاراته،و یکرر فیما جاء به ذکر عجزهم عن مثل ما یأتی به،و یقرعهم و یؤنبهم علیه،و یدرک آماله فیهم،و ینجح ما یسعی له بترکهم المعارضه.

و هو یذکر فیما یتلوه تعظیم شأنه و تفخیم أمره،حتی یتلو قوله تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (۲)و قوله: یُنَزِّلُ الْمَلائِکَهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاّ أَنَا فَاتَّقُونِ (۳)و قوله: وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ (۴)و قوله:

إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنّا لَهُ لَحافِظُونَ (۵) و قوله: إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ وَ سَوْفَ.

۱- آیه(۹۱)سوره الحجر.

۲- آیه(۸۸)سوره الإسراء.

۳- آیه(۲)سوره النحل.

۴- آیه(۸۷)سوره الحجر.

۵- آیه(۹)سوره الحجر.

تُسْئَلُونَ (۱) و قوله: هُدیً لِلْمُتَّقِینَ (۲)و قوله: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللّهِ (۳)إلی.

غیر ذلک من الآیات التی تتضمن تعظیم شأن القرآن،فمنها ما یتکرر فی السوره فی مواضع منها،و منها ما ینفرد فیها.و ذلک مما یدعوهم إلی المباراه،و یحضّهم علی المعارضه،و إن لم یکن متحدیا إلیه.

أ لا ترک أنهم قد کان ینافر شعراؤهم بعضهم بعضا و لهم فی ذلک مواقف معروفه، و أخبار مشهوره،و أیام منقوله،و کانوا یتنافسون علی الفصاحه و الخطابه و الذلاقه، و یتبجحون بذلک و یتفاخرون بینهم.فلن یجوز و الحاله هذه،أن یتغافلوا عن معارضته لو کانوا قادرین علیها،تحداهم إلیها أو لم یتحداهم.

و لو کان هذا القبیل مما یقدر علیه البشر،لوجب فی ذلک أمر آخر،و هو أنه لو کان مقدورا للعباد لکان قد اتفق إلی وقت مبعثه من هذا القبیل ما کان یمکنهم أن یعارضوه به.

و کانوا لا یفتقرون إلی تکلف وضعه،و تعمل نظمه فی الحال.

فلما لم نرهم احتجوا علیه بکلام سابق،و خطبه متقدمه،و رساله سالفه،و نظم بدیع،و لا عارضوه به،فقالوا هذا أفصح مما جئت به،و أغرب منه،أو هو مثله،علم أنه لم یکن إلی ذلک سبیل،و أنه لم یوجد له نظیر.و لو کان وجد له مثل لکان ینقل إلینا، و لعرفناه کما نقل إلینا أشعار أهل الجاهلیه،و کلام الفصحاء و الحکماء من العرب،و أدی إلینا کلام الکهان و أهل الرجز و السجع و القصید و غیر ذلک من أنواع بلاغاتهم و صنوف فصاحاتهم.

فإن قیل الذی بنی علیه الأمر فی تثبیت معجزه القرآن،أنه وقع التحدی إلی الإتیان بمثله،و أنهم عجزوا عنه بعد التحدی إلیه.فإذا نظر الناظر و عرف وجه النقل المتواتر فی هذا الباب،وجب له العلم بأنهم کانوا عاجزین عنه،و ما ذکرتم یوجب سقوط تأثیر التحدی.و أن ما أتی به قد عرف العجز عنه بکل حال.

قیل:إنما احتیج إلی التحدّی لإقامه الحجه و إظهار وجه البرهان،لأن المعجزه إذا ظهرت فإنما تکون حجه،بأن یدعیها من ظهرت علیه،و لا تظهر علی مدّع لها إلا و هی معلومه أنها من عند اللّه.فإذا کان یظهر وجه الإعجاز فیها للکافه،بالتحدی وجب فیهار.

۱- آیه(۴۴)سوره الزخرف.

۲- آیه(۲)سوره البقره.

۳- آیه(۲۳)سوره الزمر.

التحدى،لأنه تزول بذلك الشبهه عن الكل،و ينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضه.

و إلا فإن مقتضى ما قدمناه من الفصل أن من كان يعرف وجوه الخطاب،و يتقن مصارف الكلام،و كان كاملا فى فصاحته،جامعا للمعرفه بوجوه الصناعه،لو أنه احتج عليه بالقرآن،و قيل له إن الدلاله على النبوه و الآيه على الرساله ما أتلوه عليك منه،لكان ذلك بلاغا فى إيجاب الحجه،و تماما فى إلزامه فرض المصير إليه.

و مما يؤكد هذا،أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم،قد دعا الآحاد إلى الإسلام محتجا عليهم بالقرآن؛لأنّا نعلم أنه لم يلزمهم تصديقه تقليدا.و نعلم أن السابقين الأولين إلى الإسلام لم يقلدوه.

و إنما دخلوا على بصيره.و لم نعلمه قال لهم ارجعوا إلى جميع الفصحاء،فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتت حجتى.بل لما رآهم يعلمون إعجازه،ألزمهم حكمه،فقبلوه و تابعوا الحق،و بادروا إليه مستسلمين،و لم يشكوا فى صدقه،و لم يرتابوا فى وجه دلالته.فمن كانت بصيرته أقوى،و معرفته أبلغ كان إلى القبول منه أسبق.و من اشتبه عليه وجه الإعجاز،و اشتبه عليه بعض شروط المعجزات،و أدله النبوات كان أبطأ إلى القبول،حتى تكاملت أسبابه،و اجتمعت له بصيرته،و ترادفت عليه موادّه.

و هذا فصل يجب أن يتمّم القول فيه بعد،فليس هذا بموضع له،و يبين ما قلناه أن هذه الآيه علم يلزم الكل قبوله،و الانقياد له.و قد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه و معرفه وجه دلالته،لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه.و هو يحتاج فى معرفه ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعه الفصاحه.فإذا عرف عجز أهل الصنعه حل محلهم،و جرى مجراهم،فى توجه الحجه عليه.

و كذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن،ما يعرفه العالى فى هذه الصنعه.فربما حل فى ذلك محل الأعجمى فى أن لا يتوجه عليه الحجه.حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعه عنه.و كذلك لا يعرف المتناهى فى معرفه الشعر وحده،أو الغايه فى معرفه الخطب،أو الرسائل وحدها غور هذا الشأن،ما يعرف من استكمل معرفه جميع تصاريف الخطاب،و وجوه الكلام و طرق البراعه،فلا تكون الحجه قائمه على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها،دون تحققه بعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه.

فأما من كان متناهيا فى معرفه وجوه الخطاب،و طرق البلاغه و الفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحه،فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه،و إن لم نقل ذلك أدى هذا القول إلى أن يقال إن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحى إليه،حتى سبر الحال بعجز أهل

اللسان عنه،و هذا خطأ من القول.فصحّ من هذا الوجه،أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،حین أوحی إلیه القرآن عرف کونه معجزا،و بأن قیل له إنه دلاله و علم علی نبوتک أنه کذلک،من قبل أن یقرأه علی غیره أو یتحدی إلیه سواه.

و لذلک قلنا:إن المتناهی فی الفصاحه و العلم،بالأسالیب التی یقع فیها التفاصح، متی سمع القرآن عرف أنه معجز،لأنه یعرف من حال نفسه أنه لا یقدر علیه،و یعرف من حال غیره،مثل ما یعرف من حال نفسه،فیعلم أن عجز غیره کعجزه هو،و إن کان یحتاج بعد هذا إلی استدلال آخر علی أنه علم علی نبوه،و دلاله علی رساله،بأن یقال له إن هذه آیه لنبیه،و إنما ظهرت علیه و ادعاها معجزه له و برهانا علی صدقه.

فإن قیل:فإن من الفصحاء من یعلم عجز نفسه عن قول الشعر،و لا یعلم مع ذلک عجز غیره عنه.فکذلک التبلیغ.و إن علم عجز نفسه عن مثل القرآن فهو قد یخفی علیه عجز غیره.قیل هو مع مستقر العاده،و إن عجز عن قول الشعر و علم أنه معجز فإنه یعلم أن الناس لا ینفکون من وجود الشعراء فیهم.و متی علم البلیغ المتناهی فی صنوف البلاغات عجزه عن القرآن،علم عجز غیره لأنه کهو،لأنه یعلم أن حاله و حال غیره فی هذا الباب سواء،إذ لیس فی العاده مثل للقرآن یجوز أو یعلم قدره أحد من البلغاء علیه.

فإذا لم یکن لذلک مثل فی العاده،و عرف هذا الناظر جمیع أسالیب الکلام و أنواع الخطاب،و وجد القرآن مباینا لها،علم خروجه عن العاده،و جری مجری ما یعلم أن إخراج الید البیضاء من الجیب خارج عن العادات،فهو لا یجوزه من نفسه،و کذلک لا یجوز وقوعه من غیره إلا علی وجه نقض العاده.بل یری وقوعه موقع المعجزه،و هذا و إن کان یفارق فلق البحر،و إخراج الید البیضاء.و نحو ذلک من وجه.و هو أن یستوی الناس فی معرفه عجزهم عنه،فکونه ناقضا للعاده من غیر تأمل شدید،و لا نظر بعید.

فإن النظر فی معرفه إعجاز القرآن یحتاج إلی تأمل،و یفتقر إلی مراعاه مقدمات، و الکشف عن أمور نحن ذاکروها بعد هذا الموضع.فکل واحد منها یؤول إلی مثل حکم صاحبه فی الجمع الذی قدمنا.و مما یبین ما قلناه من أن البلیغ المتناهی فی وجوه الفصاحه،یعرف إعجاز القرآن.و تکون معرفته حجه علیه إذا تحدی إلیه و عجز عن مثله.

و إن لم ینتظر وقوع التحدی فی غیره.و ما الذی یصنع ذلک الغیر،و هو ما روی فی الحدیث:أن جبیر (۱)بن مطعم ورد علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،فی معنی حلیف له أراد أن یفادیه فدخلض-

---

۱- جبیر بن مطعم بن عدی القرشی النوفلی المکی ثم المدنی.أسلم یوم الفتح،و قیل قبلها،و حسن إسلامه،و کان سیدا حکیما وقورا.مات بالمدینه سنه(۵۸)أو(۵۹).له ترجمه فی:الریاض-

و النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،یقرأ سوره: وَ الطَّورِ وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ (۱)فی صلاه الفجر،قال:فلما انتهی إلی قوله: إِنَّ عَذابَ رَبِّکَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (۲)أبو سفیان بن حرب بن أمیه القرشی الأموی المکی.ولد قبل الفیل بعشر سنین،و کان شیخ مکه، و رئیس قریش.مات بالمدینه سنه(۳۱)أو(۳۲).له ترجمه فی:الریاض المستطابه ص (۱۲۸-۱۲۹).(۳)قال:خشیت أن یدرکنی العذاب فأسلم.و فی حدیث آخر أن عمر (۴)بن الخطاب رضی اللّه عنه سمع سوره طه فأسلم.

و قد روی أن قوله عز و جل فی أول حم«السجده»إلی قوله: فَأَعْرَضَ أَکْثَرُهُمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ (۵)نزلت فی شیبه و عتبه ابنی ربیعه و أبی سفیان بن حرب و أبی جهل.و ذکر أنهم بعثوا هم و غیرهم من وجوه قریش بعتبه بن ربیعه إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم لیکلمه،و کان حسن الحدیث،عجیب الشأن،بلیغ الکلام،و أرادوا أن یأتیهم بما عنده،فقرأ النبی صلّی اللّه علیه و سلّم سوره حم السجده من أولها حتی انتهی إلی قوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُکُمْ صاعِقَهً مِثْلَ صاعِقَهِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۶)فوثب مخافه العذاب،فاستحکوه ما سمع،فذکر أنه لم یسمع منه کلمه واحده، و لا اهتدی لجوابه،و لو کان ذلک من جنس کلامهم لم یخف علیه وجه الاحتجاج و الرد.

فقال عثمان (۷)بن مظعون لتعلموا أنه من عند اللّه إذ لم یهتد لجوابه.

و أبین من ذلک قول اللّه عز و جل: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّی یَسْمَعَ کَلامَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ (۸)فجعل سماعه حجه علیه بنفسه،فدل علی أن فیهم من یکون سماعه إیاه حجه علیه.

فإن قیل:لو کان ما قلتم لوجب أن یکون حال الفصحاء الذین کانوا فی عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم علی طریقه واحده فی إسلامهم عند سماعه،قیل:لا یجب ذلک،لأن صوارفهم کانت کثیره،منها أنهم کانوا یشکّون،منهم من یشک فی إثبات الصانع،و فیهم من یشک فی التوحید،و فیهم من یشک فی النبوه،أ لا تری أن أبا سفیان (۸)بن حرب لما جاء إلی رسول).

۱- -المستطابه ص(۴۸).

۲- آیه

۳- سوره الطور.

۴- سبقت ترجمته.

۵- آیه(۴)سوره فصلت.

۶- آیه(۱۳)سوره فصلت.

۷- عثمان بن مظعون.قال ابن إسحاق:أسلم بعد ثلاثه عشر رجلا،و هاجر إلی الحبشه.له ترجمه فی: الإصابه ۴۶۴/۲.

۸- آیه(۶)سوره التوبه.

اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم ليسلم عام الفتح،قال له النبى عليه السلام:أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا اللّه؟ قال:بلى،فشهد.قال:أما آن لك أن تشهد أنى رسول اللّه؟قال:أما هذه ففى النفس منها شىء.فكانت وجوه شكوكهم مختلفه.و طرق شبههم متباينه،فمنهم من قلت شبهه، و تأمل الحجه حق تأملها و لم يستكبر فأسلم.و منهم من كبرت شبهه،و أعرض عن تأمل الحجه حق تأملها،أو لم يكن فى البلاغه على حدود النهايه،فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر و استبصر،و راعى و اعتبر،و احتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله،فلذلك وقف أمره.

و لو كانوا فى الفصاحه على مرتبه واحده،و كانت صوارفهم و أسبابهم متفقه،لتوافقوا إلى القبول جمله واحده.فإن قيل:فكيف يعرف البليغ الذى وصفتموه:إعجاز القرآن؟و ما الوجه الذى يتطرق به إليه؟و المنهاج الذى يسلكه حتى يقف به على جليه الأمر فيه؟قيل:

هذا سبيله أن يفرد له فصل،فإن قيل:فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات و تصرفهم فى أجناس الفصاحات؟و هلا قلتم:إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعه،و توجه من هذه الطرق الغريبه،كان على مثل نظم القرآن قادرا،و إنما يصرفه اللّه عنه ضربا من الصرف،أو يمنعه من الإتيان بمثله،ضربا من المنع، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده اللّه من الدلاله،و يحصل ما قصده من إيجاب الحجه.لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها.و إذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانيه إلى الأولى،و كذلك الثالثه حتى يتكامل قدر الآيه و السوره.

فالجواب أنه لو صح ذلك،صح لكل من أمكنه نظم ربع بيت،أو مصراع من بيت،أن ينظم القصائد و يقول الأشعار.و صح لكل ناطق قد يتفق فى كلامه الكلمه البديعه،نظم الخطب البليغه،و الرسائل العجيبه،و معلوم أن ذلك غير سائغ،و لا ممكن.

على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهه نظمه الممتنع،لكان مهما حط من رتبه البلاغه فيه،و وضع من مقدار الفصاحه فى نظمه كان أبلغ فى الأعجوبه،إذا صرفوا عن الإتيان بمثله،و منعوا عن معارضته و عدلت دواعيهم عنه.فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع،و إخراجه فى المعرض الفصيح العجيب،على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهليه مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحه و البلاغه و حسن النظم و عجيب الرصف،لأنهم لم يتحدوا إليه و لم يلزمهم حجته.فلما لم يوجد فى كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصرفه ظاهر البطلان.

و فيه معنى آخر،و هو:أن أهل الصنعه فى هذا الشأن إذا سمعوا كلاما مطمعا لم يخف عليهم،و لم يشتبه لديهم.و من كان متناهيا فى فصاحته،لم يجز أن يطمع فى مثل هذا القرآن بحال.فإن قال صاحب السؤال إنه قد يطمع فى ذلك.قيل له:أنت تزيد على هذا،

فتزعم أن كلام الآدمی قد یضارع القرآن،و قد یزید علیه فی الفصاحه و لا یتحاشاه.و یحسب أن ما ألفه فی الجزء و الطفره هو أبدع و أغرب من القرآن لفظا و معنی!و لکن لیس الکلام علی ما یقدره مقدر فی نفسه،و یحسبه ظان من أمره،و المرجوع فی هذا إلی جمله الفصحاء دون الآحاد.و نحن نبین بعد هذا وجه امتناعه عن الفصیح البلیغ،و نمیزه فی ذلک عن سائر أجناس الخطاب،لیعلم أن ما یقدره من مساواه کلام الناس به تقدیر ظاهر الخطأ، بیّن الغلط،و أن هذا التقدیر من جنس من حکی اللّه تعالی قوله فی محکم کتابه: إِنَّهُ فَکَّرَ وَ قَدَّرَ. فَقُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ کَیْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَکْبَرَ فَقالَ إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ یُؤْثَرُ. إِنْ هذا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ (۱)فهم یعبرون عن دعواهم أنهم یمکنهم أن یقولوا مثله،بأن ذلک من قول البشر،لأن ما کان من قولهم فلیس یقع فیه التفاضل إلی الحد الذی یتجاوز إمکان معارضته.

و مما یبطل ما ذکروه من القول بالصرفه أنه لو کانت المعارضه ممکنه،و إنما منع منها الصرفه لم یکن الکلام معجزا،و إنما یکون المنع معجزا،فلا یتضمن الکلام فضیله علی غیره فی نفسه.و لیس هذا بأعجب مما ذهب إلیه فریق منهم أن الکلّ قادرون علی الإتیان بمثله،و إنما یتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتیب لو تعلموه لوصلوا إلیه به.و لا بأعجب من قول فریق منهم إنه لا فرق بین کلام البشر و کلام اللّه تعالی فی هذا الباب،و إنه یصح من کل واحد منهما الإعجاز علی حد واحد.

فإن قیل:فهل تقولون بأن غیر القرآن من کلام اللّه عز و جل معجز کالتوراه و الإنجیل و الصحف،قیل:لیس شیء من ذلک بمعجز فی النظم و التألیف.و إن کان معجزا کالقرآن، فیما یتضمن من الإخبار بالغیوب.و إنما لم یکن معجزا لأن اللّه تعالی لم یصفه بما وصف به القرآن،و لأنّا قد علمنا أنه لم یقع التحدی إلیه کما وقع التحدی إلی القرآن.

و لمعنی آخر و هو أن ذلک اللسان لا یتأتی فیه من وجوه الفصاحه ما یقع به التفاضل الذی ینتهی إلی حد الإعجاز.و لکنه یتقارب،و قد رأیت أصحابنا یذکرون هذا فی سائر الألسنه و یقولون:لیس یقع فیها من التفاوت ما یتضمن التقدیم العجیب،و یمکن بیان ذلک بأنا لا نجد فی القدر الذی نعرفه من الألسنه للشیء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغه.

و کذلک لا نعرف فیها الکلمه الواحده تتناول المعانی الکثیره علی ما تتناول العربیه.و کذلک التصرف فی الاستعارات،و الإشارات،و وجوه الاستعمالات البدیعه التی یجیء تفصیلها بعد.ر.

۱- آیه(۱۸:۲۵)سوره المدثر.

هـذا و يشـهد لذلك من القرآن أن اللّه تعالى وصـفه بأنه بلسان عربى مبين.و كرر ذلك فى مواضع كثيره،و بين أنه رفعه عن أن يجعله أعجميا.فلو كان يمكن فى لسان العجم إيراد مثل فصاحته،لم يكن ليرفعه عن هذه المنزله.و أنه و إن كان يمكن أن يكون مـن فائـده قـوله إنـه عربى مـبين،أنه ممـا يفهمـونه و لاـ يفتقرون فيه إلى الرجـوع إلى غيرهم،و لاـ يحتـاجون فى تفسـيره إلى من سواهم،فلا يمتنع أن يفيد ما قلنا أيضا كما أفاد بظاهره ما قدمناه.

و يبين ذلك أن كثيرا من المسـلمين قد عرفوا تلك الألسـنه و هم من أهل البراعه فيها، و فى العربيه،فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها من التفاضل و الفصاحه ما يقع فى العربيه.

و معنى آخر و هـو أنّـا لم نجـد أهـل التوراه و الإنجيـل ادعوا الإعجـاز لكتـابهم،و لاـ ادعى لهم المسـلمون.فعلم أنّ الإعجـاز مما يختص به القرآن.و يبين هـذا أن الشـعر لاـ يتأتى فى تلك الألسـنه على ما قـد اتفق فى العربيه.و إن كان قـد يتفق منها صـنف أو أصـناف ضـيقه،لم يتفق فيها من البـديع ما يمكن و يتأتى فى العربيه.و كذلك لا يتأتى فى الفارسـيه جميع الوجوه التى يتبين فيها الفصاحه على ما يتأتى فى العربيه.

فإن قيل:فإن المجوس تزعم أن كتاب«زرادشت»و كتاب«مانى»معجزان،قيل:

الـذى يتضـمنه كتاب«مانى»من طريق النيرنجات و ضـروب من الشـعوذه ليس يقع فيها إعجاز.و يزعمون أن فى الكتاب الحكم و هى حكم منقوله متـداوله على الألـسن لاـ يختص بهـا أمه دون أمه.و إن كـان بعضـهم أكثر اهتمامـا بهـا و تحصـيلا لهـا و جمعا لأبوابها.

و قـد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن،و إنما فزعوا إلى الـدّره اليتيمه،و هما كتابان أحـدهما يتضـمن حكما منقوله،توجد عنـد حكماء كل أمه،مـذكوره بالفضل،فليس فيها شـىء بديع من لفظ،و لا معنى.و الآخر فى شـىء من الديانات و قد تهوس فيه مما لا يخفى على متأمل،و كتابه الذى بيّناه فى الحكم منسوخ من كتاب«بزرجمهر»فى الحكمه.

فأى صنع له فى ذلك؟و أى فضيله حازها فيما جاء به؟و بعد،فليس يوجد له كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن،بل يزعمون أنه اشـتغل بـذلك مـده،ثم مزّق ما جمع و اسـتحيا لنفسه من إظهاره.فإن كان كـذلك فقـد أصاب و أبصـر القصد،و لا يمتنع أن يشتبه عليه الحال فى الابتداء ثم يلوح له رشده،و يتبين له أمره،و ينكشف له عجزه.

و لو كان بقى على اشـتباه الحال عليه لم يخف علينا موضع غفلته،و لم يشـتبه لدينا وجه شبهته.و متى أمكن أن تدعى الفرس فى شىء من كتبهم أنه معجز فى حسن تأليفه و عجيب نظمه!

فصل: فی جمله وجوه إعجاز القرآن

ذکر أصحابنا و غیرهم فی ذلک ثلاثه أوجه من الإعجاز:

الوجه الأول:یتضمن الإخبار عن الغیوب،و ذلک مما لا یقدر علیه البشر.لا سبیل لهم إلیه:فمن ذلک ما وعد اللّه تعالی نبیه علیه السلام أنه سیظهر دینه علی الأدیان بقوله عز و جل: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ (۱)ففعل ذلک و کان أبو بکر (۲)الصدیق رضی اللّه عنه إذا أغزی جیوشه،عرّفهم ما وعدهم اللّه من إظهار دینه،لیثقوا بالنصر،و یستیقنوا بالنجاح.و کان عمر (۳)بن الخطاب رضی اللّه عنه یفعل کذلک فی أیامه،حتی وقف أصحاب جیوشه علیه،فکان سعد بن أبی وقاص رحمه اللّه،و غیره من أمراء الجیوش من جهته یذکر ذلک لأصحابه،و یحرضهم به، و یوثق لهم.و کانوا یلقون الظفر فی مواجهاتهم،حتی فتح إلی آخر أیام عمر رضی اللّه عنه إلی بلخ،و بلاد الهند و فتح فی أیامه مرو الشاهجان و مرو الروذ و منعهم من العبور بجیحون.و کذلک فتح فی أیامه فارس إلی اصطخر و کرمان،و مکران و سجستان و جمیع ما کان من مملکه کسری،و کل ما کان یملکه ملوک الفرس بین البحرین من الفرات إلی جیحون.

و أزال ملک ملوک الفرس فلم یعد إلی الیوم.و لا یعود أبدا إن شاء اللّه تعالی.ثم إلی حدود أرمینیه و إلی باب الأبواب،و فتح أیضا ناحیه الشام،و الأردن،و فلسطین،و فسطاط مصر.و أزال ملک قیصر عنها،و ذلک من الفرات إلی بحر مصر،و هو ملک قیصر.و غزت الخیول فی أیامه إلی عموریه،فأخذ الضواحی کلها و لم یبق دونها إلا ما حجز دونه بحر،أو

۱- آیه(۳۳)سوره التوبه.

۲- أبو بکر الصدیق هو:عبد اللّه بن عثمان بن عامر بن عمرو القرشی التیمی.کان أول من أسلم من الرجال،و لم یتردد حین عرض علیه الإسلام،و ثبت له أفضل الفضائل بصحبه الهجره،و کانت بیعته إجماعا من الصحابه.مات سنه(۱۳).له ترجمه فی:أسد الغابه ۳۰۹/۳،و شذرات الذهب ۲۷/۱،و مروج الذهب ۳۰۵/۲.

۳- سبقت ترجمته.

حال عنه جبل منيع،أو أرض خشنه،و أو باديه غير مسلوكه.

و قال اللّه عز و جل: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱)فصدق فيه و قال فى أهل بدر: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ (۲)و وفى لهم بما وعد.و جميع الآيات التى يتضمنها القرآن،من الإخبار عن الغيوب،يكثر جدّا،و إنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل.

و الوجه الثانى:أنه كان معلوما من حال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم،أنه كان أميا لا يكتب و لا يحسن أن يقرأ.و كذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين، و أقاصيصهم،و أنبائهم،و سيرهم.

ثم أتى بجمله ما وقع و حدث من عظيمات الأمور،و مهمات السير،من حين خلق اللّه آدم عليه السلام،إلى حين مبعثه.فذكر فى الكتاب الذى جاء به معجزه له:قصه آدم عليه السلام،و ابتداء خلقه،و ما صار إليه أمره من الخروج من الجنه،ثم جملا من أمر ولده و أحواله و توبته.

ثم ذكر قصه نوح عليه السلام،و ما كان بينه و بين قومه و ما انتهى إليه أمره.و كذلك أمر إبراهيم عليه السلام.إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين فى القرآن،و الملوك و الفراعنه الذين كانوا فى أيام الأنبياء صلوات اللّه عليهم.

و نحن نعلم ضروره أن هذا مما لا سبيل إليه،إلا عن تعلم،و إذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار و حمله الأخبار،و لا مترددا إلى التعلم منهم.و لا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهه الوحى.

و لذلك قال عز و جل: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۳)و قال: وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ.

۱- آيه(۱۲)سوره آل عمران.

۲- آيه(۷)سوره الأنفال.

۳- آيه(۴۸)سوره العنكبوت.

يَعْلَمُونَ (۱) و قد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم و يشتغل بملابسه أهل صنعه،لم يخف على الناس أمره.و لم يختلف عندهم مذهبه،و قد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم و إن كان نادرا.و كذلك كان يعرف من يختلف إليه للتعليم،و ليس يخفى فى العرف عالم كل صنعه و متعلمها فلو كان منهم لم يخف أمره.

و الوجه الثالث:أنه بديع النظم،عجيب التأليف،متناه فى البلاغه،إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه.و الذى أطلقه العلماء هو على هذه الجمله.و نحن نفصل ذلك بعض التفصيل،و نكشف الجمله التى أطلقوها.

فالذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه منها:ما يرجع إلى الجمله.

و ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه،و اختلاف مذاهبه،خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم و مباين للمألوف من ترتيب خطابهم،و له أسلوب يختص به و يتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.و ذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه،ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع،ثم إلى معدل موزون غير مسجع،ثم إلى ما يرسل إرسالا،فتطلب فيه الإصابه و الإفاده و إفهام المعانى المعترضه على وجه بديع،و ترتيب لطيف،و إن لم يكن معتدلا فى وزنه.و ذلك شبيه بجمله الكلام الذى لا يتعمل و لا يتصنع له.

و قد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه،و مباين لهذه الطرق،و يبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع،و لا فيه شىء منه.و كذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع،و منهم من يدعى أن فيه شعرا كثيرا،و الكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع،فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم،و أساليب خطابهم،أنه خارج عن العاده،و أنه معجز،و هذه خصوصيه ترجع إلى جمله القرآن.و تميّز حاصل فى جميعه.و منها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحه،و الغرابه و التصرف البديع و المعانى اللطيفه،و الفوائد الغزيره،و الحكم الكثيره،و التناسب فى البلاغه،و التشابه فى البراعه،على هذا الطول،و على هذا القدر.و إنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدوده، و ألفاظ قليله،و إلى شاعرهم قصائد محصوره،يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، و يعترضها ما نكشفه من الاختلاف،و يقع فيها ما نبديه من التعمل و التكلف و التجوز و التعسف.م.

۱- آيه(۱۰۵)سوره الأنعام.

و قد حصل القرآن على كثرته و طوله متناسبا فى الفصاحه على ما وصفه اللّه تعالى به فقال عز من قائل: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ،ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللّهِ (۱)وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (۲)فأخبر أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت،و بان عليه الاختلال.

و هذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا بذكره،فتأمله تعرف الفضل.

و فى ذلك معنى ثابت و هو أن عجيب نظمه،و بديع تأليفه،لا يتفاوت و لا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص،و مواعظ،و احتجاج و حكم، و أحكام و أعذار،و إنذار،و وعد و وعيد و تبشير،و تخويف و أوصاف،و تعليم أخلاق كريمه و شيم رفيعه،و سير مأثوره،و غير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها.و نجد كلام البليغ الكامل،و الشاعر المفلق،و الخطيب المصقع،يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور.

فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو.و منهم من يبرز فى الهجو دون المدح.

و منهم يسبق فى التقريظ دون التأبين.و منهم من يجود فى التأبين دون التقريظ.و منهم من يغرب فى وصف الإبل و الخيل،أو سير الليل،أو وصف الحرب،أو وصف الروض،أو وصف الخمر،أو الغزل أو غير ذلك،مما يشتمل عليه الشعراء و يتداوله الكلام.

و لذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب،و النابغه إذا رهب،و بزهير إذا رغب.

و مثل ذلك يختلف فى الخطب و الرسائل و سائر أجناس الكلام.و متى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها،فيأتى بالغايه فى البراعه فى معنى،فإذا جاء إلى غيره قصر عنه،و وقف دونه،و بان الاختلاف على شعره، و لذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لأنه لا خلاف فى تقدمهم فى صنعه الشعر،و لا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم،فإذا كان الاختلال بيّنا فى شعرهم لاختلاف ما يتصرفون فيه، و استغنينا عن ذكر من هو دونهم.و كذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا فى الخطب و الرسائل و نحوها.

ثم نجد فى الشعراء من يجوّد فى الرجز،و لا يمكنه نظم القصيد أصلا.و منهم من ينظم القصيد،و لكن يقصّر فيه مهما تكلفه أو عمله.و من الناس من يجوّد فى الكلام المرسل،فإذا أتى بالموزون قصر و نقص نقصانا عجيبا.و منهم من يوجد بضد ذلك.

و قد تأملنا نظم القرآن،فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها،ء.

۱- آيه(۲۳)سوره الزمر.

۲- آيه(۸۲)سوره النساء.

على حد واحد فى حسن النظم،و بديع التأليف و الرصف،لا تفاوت فيه،و لا انحطاط عن المنزله العليا،و لا إسفال فيه إلى الرتبه الدنيا.و كذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويله و القصيره،فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف.و كذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعاده ذكر القصه الواحده،فرأيناه غير مختلف و لا متفاوت،بل هو على نهايه البلاغه و غايه البراعه.فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر.لأن الذى يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار،و عند تباين الوجوه و اختلاف الأسباب التى يتضمن.

و معنى الرابع:و هو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بيّنا فى الفصل و الوصل،و العلو و النزول،و التقريب و التبعيد،و غير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم،و يتصرف فيه القول عند الضم و الجمع،أ لا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره،و الخروج من باب إلى سواه،حتى أن أهل الصنعه قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جوده نظمه و حسن وصفه فى الخروج من النسيب إلى المديح.و أطبقوا على أنه لا يحسنه و لا يأتى فيه بشىء.و إنما اتفق له فى مواضع معدوده خروج يرتضى و تنقل يستحسن.و كذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شىء إلى شىء،و التحول من باب إلى باب.و نحن نفصل بعد هذا و نفسر هذه الجمله،و نبين على أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيره،و الطرق المختلفه،يجعل المختلف كالمؤتلف،و المتباين كالمتناسب،و المتنافر فى الإفراد إلى حد الآحاد.و هذا أمر عجيب تتبين فيه الفصاحه، و تظهر به البلاغه،و يخرج به الكلام عن حد العاده،و يتجاوز العرف.

و معنى خامس:و هو أن نظم القرآن وقع موقعا فى البلاغه يخرج عن عاده كلام الإنس و الجن.فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا،و يقصرون دونه كقصورنا.و قد قال اللّه عز و جل: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۱)فإن قيل:هذه دعوى منكم،و ذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن مثله،و قد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله،و إن كنا عاجزين كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفه و أسباب غامضه،دقيقه لا نقدر نحن عليها،و لا سبيل لنا للطفها إليها،و إذا كان كذلك لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل.

قيل:قد يمكن أن تعرف ذلك بخبر اللّه عز و جل.و قد يمكن أن يقال إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبه الجن،و ما يروون لهم من الشعر،و يحكونه.

۱- آيه(۸۸)سوره الإسراء.

عنهم من الكلام.و قد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم،منقول عنهم،و القدر الذى نقلوه قد تأملناه،فهو فى الفصاحه لا يتجاوز حد فصاحه الإنس،و لعله يقصر عنها،و لا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم،و يقع بينهم و بينهم محاورات فى عهد الأنبياء صلوات اللّه عليهم.

و ذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات.على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبه الغيلان،و لهم أشعار محفوظه مرويه فى دواوينهم قال تأبط شرا (۱):

و أدهم قد حبت جلبابه كما احتابت الكاعب الخيعلا

إلى أن حدا الصبح أثناءه و مزّق جلبابه الأليلا

على شيم نار تنوّرتها فبتّ لها مدبرا مقبلا

فأصبحت و الغول لى جاره فيا جارتا أنت ما أهولا

و طالبتها بضعها فالتوت بوجه تهول و استغولا

فمن سأل أين ثوب جارتى فإن لها باللوى منزلا

و كنت إذ ما هممت اعتزمت ت و أحر إذا قمت أن أفعلا

و قال آخر:

عشوا نارى فقلت منون أنتم؟ فقالوا:الجنّ،قلت:عموا ظلاما

فقمت إلى الطعام فقال منهم زعيم يحسد الإنس الطعاما

و يذكرون لامرئ القيس (۲)قصيده مع عمرو الجنى و أشعارا لهما كرهنا ذكرها لطولها و قال عبيد بن أيوب:

فلله درّ الغول أى رفيقه لصاحب قفر خائف متقفر

أرنّت بلحن بعد لحن و أوقدت حوالىّ نيرانا تلوح و تزهر

و قال ذو الرمه (۳)بعد قوله:

قد أعسف النازح المجهول معسفه فى ظل أخضر يدعو هامه البوم۱.

۱- تأبط شرا هو:ثابت بن جابر،كان أسمع العرب و أبصرهم و أكيدهم،و كان أعدى رجل ينظر إلى الظباء فينتقى أسمنها،ثم يعدو خلفه فلا يفوته.مات سنه(۵۳۰ م).له ترجمه فى:الأغانى ۲۰۹/۱۸،و الشعر و الشعراء(۱۷۴)،و خزانه الأدب ۶۶/۱.

۲- سبقت ترجمته.

۳- ذو الرمه هو:غيلان بن عقبه بن نهيس،يعد من الشعراء المتيمين،و صاحبته ميه بنت مقاتل المنقرى، و كانت جميله،و كان هو دميما أسود،و سمعت تشبيبه بها،و لم تره ثم رأته،فقالت:«وا سوأتاه» فغضب،و هجاها.مات سنه(۱۱۷).له ترجمه فى:وفيات الأعيان ۴۰۴/۱،و خزانه الأدب ۵۱/۱.

للجنّ بالليل فی حافاتها زجل کما تناوح یوم الرّیح عیثوم

دویّه و دجی لیل کأنهما یمّ تراطن فی حافاته الروم

و قال أیضا:

و کم عرّست بعد النوی من معرّس لها من کلام الجن أصوات سامر

و قال:

و رمل عزیف الجن فی عقباته هزیز کتضراب المغنّین بالطبل

و إذا کان القوم یعتقدون کلام الجن و مخاطباتهم،و یحکون عنهم،و ذلک القدر المحکی لا یزید أمره علی فصاحه العرب،صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه،کعجز الإنس.و یبین ذلک من القرآن أن اللّه تعالی حکی عن الجن ما تفاوضوا فیه من القرآن، فقال: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا،فَلَمّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ (۱)إلی آخر ما حکی عنهم فیما یتلوه.فإذا ثبت أنه وصف کلامهم،و وافق ما یعتقدونه من نقل خطابهم،صح أن یوصف الشیء المألوف بأنه ینحط عن درجه القرآن فی الفصاحه.

و هذان الجوابان أسدّ عندی من جواب بعض المتکلمین عنه؛بأن عجز الإنس عن القرآن یثبت له حکم الإعجاز،فلا یعتبر غیره.أ لا تری أنه لو عرفنا من طریق المشاهده عجز الجن عنه،فقال لنا قائل:فدلوا علی أن الملائکه تعجز عن الإتیان بمثله،لم یکن لنا فی الجواب غیر هذه الطریقه التی قد بیناها.و إنما ضعّفنا هذا الجواب؛لأن الذی حکی و ذکر عجز الجن و الإنس عن الإتیان بمثله،فیجب أن نعلم عجز الجن عنه کما علمنا عجز الإنس عنه.و لو کان وصف عجز الملائکه عنه لوجب أن نعرف ذلک أیضا بطریقه فإن قیل:

أنتم قد انتهیتم إلی ذکر الإعجاز فی التفاصیل،و هذا الفصل إنما یدل علی الإعجاز فی الجمله.قیل هذا:کما أنه یدل علی التفصیل أیضا.فصح أن یلحق هذا القبیل،کما کان یصح أن یلحق بباب الجمل.

و معنی سادس:و هو أن الذی ینقسم علیه الخطاب،من البسط و الاقتصار،و الجمع، و التفریق (۲)،و الاستعاره و التصریح،و التجوز و التحقیق،و نحو ذلک من الوجوه التی توجدسک

۱- آیه(۲۹)سوره الأحقاف.

۲- قال السیوطی فی«الاتقان»۲۷۵/۱،«هو أن تدخل شیئین فی معنی،و تفرق بین جهتی الإدخال. و جعل منه الطیبی قوله:«اللّه یتوفی الأنفس حین موتها»الآیه.جمع النفسین فی حکم التوفی،ثم فرق بین جهتی التوفی بالحکم بالإمساک و الإرسال. أی:اللّه یتوفی بالإمساک و الإرسال.أی:اللّه یتوفی الأنفس التی تقبض و التی لم تقبض،فیمسک

فی کلامهم،موجود فی القرآن.و کل ذلک مما یتجاوز حدود کلامهم المعتاد بینهم فی الفصاحه و الإبداع و البلاغه.و قد ضمّنا بیان ذلک بعد؛لأن الوجه هاهنا ذکر المقدمات دون البسط و التفصیل.

و معنی سابع:و هو أن المعانی التی تتضمن فی أصل وضع الشریعه و الأحکام و الاحتجاجات فی أصل الدین،و الرد علی الملحدین علی تلک الألفاظ البدیعه،و موافقه بعضها بعضا فی اللطف و البراعه،مما یتعذر علی البشر،و یمنع ذلک أنه قد علم أن تخیر الألفاظ للمعانی المتداوله المألوفه،و الأسباب الدائره بین الناس،أسهل و أقرب من تخیّر الألفاظ لمعان مبتکره،و أسباب مؤسسه مستحدثه.فلو أبرع اللفظ فی المعنی البارع،کان ألطف و أعجب من أن یوجد اللفظ البارع فی المعنی المتداول المتکرر،و الأمر المتقرر المتصور.ثم إن أضیف ذلک التصرف البدیع فی الوجوه التی تتضمن تأیید ما یبتدأ تأسیسه، و یراد تحقیقه،بان التفاضل فی البراعه و الفصاحه.ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنی، و المعانی وفقها،لا یفضل أحدهما علی الآخر،فالبراعه أظهر،و الفصاحه أتم.

و معنی ثامن:و هو أن الکلام یبین فضله و رجحان فصاحته؛بأن نذکر منه الکلمه فی تضاعیف کلام،أو نقذف ما بین شعر فتأخذه الأسماع،و تتشوف إلیه النفوس و یری وجه رونقه بادیا غامرا سائر ما یقرن به،کالدرّه التی تری فی سلک من خرز،و کالیاقوته فی واسطه العقد.

و أنت تری الکلمه من القرآن یتمثل بها فی تضاعیف کلام کثیر.و هی غره جمیعه، و واسطه عقده،و المنادی علی نفسه بتمییزه و تخصصه برونقه،و جماله و اعتراضه فی جنسه و مائه.و هذا الفصل أیضا مما یحتاج فیه إلی تفصیل و شرح و نص لیتحقق ما ادعیناه منه.

و لو لا هذه الوجوه التی بیّناها لم یتحیر فیه أهل الفصاحه،و لکانوا یفزعون إلی التعمل للمقابله،و التصنع للمعارضه،و کانوا ینظرون فی أمرهم،و یراجعون أنفسهم.أو کان یراجع بعضهم بعضا فی معارضته،و یتوقفون لها.فلما لم نرهم اشتغلوا بذلک،علم أن أهل المعرفه منهم بالصنعه،إنما عدلوا عن هذه الأمور لعلمهم بعجزهم عنه،و قصور فصاحتهم دونه.و لا یمتنع أن یلتبس علی من لم یکن بارعا فیهم و لا متقدما فی الفصاحه منهم هذه الحال،حتی لا یعلم إلا بعد نظر و تأمل،و حتی یعرف حال عجز غیره.إلا أنا رأینا صنادیدهم و أعیانهم و وجوههم سلموا و لم یشتغلوا بذلک تحققا بظهور العجز و تبینا له.».

و أما قوله تعالى حكايه عنهم: قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا (۱)فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم،و قد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم و هو يدل على عجزهم.و لذلك أورده اللّه مورد تقريعهم،لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز،و الضمان إلى الوفاء.

فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدى،و تطاول زمان الفسحه فى إقامه الحجه عليهم بعجزهم.إذ لو كانوا قادرين على ذلك،لم يقتصروا على الدعوى فقط.

و معلوم من حالهم و حميتهم أن الواحد منهم يقول فى الحشرات،و الهوام، و الحيات.و فى وصف الأزمه و الاتساع و الأمور التى لا يؤبه لها،و لا يحتاج إليها، و يتنافسون فى ذلك أشد التنافس،و يتبجحون به أشد التبجح،فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحه،و العبارات الفصيحه،مع تضمن المعارضه تكذيبه و الذب عن أديانهم القديمه،و إخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم،و تضليله إياهم، و التخلص من منازعته،ثم من محاربته و مقارعته،ثم لا يفعلون شيئا من ذلك،و إنما يحيلون أنفسهم على التعاليل و يعللونها بالأباطيل.

و معنى تاسع:و هو أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعه و عشرون حرفا، و عدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان و عشرون سوره،و جمله ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجمله،و هو أربعه عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره،و ليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم، و الذى ينقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربيه و بنوا عليها وجوهها أقسام نحن ذاكروها.فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسه و أخرى مجهوره،فالمهموسه منها عشره،و هى الحاء،و الهاء،و الخاء،و الكاف،و الشين،و الثاء،و الفاء،و التاء،و الصاد، و السين.و ما سوى ذلك من الحروف فهى مجهوره.

و قد عرفنا أن نصف الحروف المهموسه مذكوره فى جمله الحروف المذكوره فى أوائل السور،و كذلك نصف الحروف المجهوره على السواء،لا زياده و لا نقصان.

و المجهور معناه:أنه حرف أشبع الاعتماد فى موضعه،و منع أن يجرى معه،حتى ينقضى الاعتماد.و يجرى الصوت و المهموس كل حرف ضعف الاعتماد فى موضعه،حتى جرى معه النفس.و ذلك مما يحتاج إلى معرفته لتبتنى عليه أصول العربيه.

و كذلك مما يقسمون إليه الحروف.يقولون إنها على ضربين:أحدهما حروفل.

۱- آيه(۳۱)سوره الأنفال.

الحلق،و هی سته أحرف:العین،و الحاء،و الهمزه،و الهاء،و الخاء،و الغین.و النصف من هذه الحروف مذکور فی جمله الحروف التی تشتمل علیها الحروف المبینه فی أوائل السور.و کذلک النصف من الحروف التی لیست بحروف الحلق.

و کذلک تنقسم هذه الحروف إلی قسمین آخرین:أحدهما حروف غیر شدیده،و إلی الحروف الشدیده،و هی التی تمنع الصوت أن یجری فیه و هی:الهمزه،و القاف،و الکاف، و الجیم،و الظاء،و الذال،و الطاء،و الباء.و قد علمنا أن نصف هذه الحروف أیضا هی مذکوره فی جمله تلک الحروف التی بنی علیها تلک السور،و من ذلک الحروف المطبقه، و هی أربعه أحرف،و ما سواها منفتحه فالمطبقه:الطاء،و الظاء،و الضاد،و الصاد.و قد علمنا أن نصف هذه فی جمله الحروف المبدوء بها فی أوائل السور.

و إذا کان القوم الذین قسموا فی الحروف هذه الأقسام،لأغراض لهم فی ترتیب العربیه و تنزیلها بعد الزمان الطویل من عهد النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،و رأوا مبانی اللسان علی هذه الجهه.

و قد نبه بما ذکر فی أوائل السور علی ما لم یذکر علی حد التصنیف الذی وصفنا،دل علی أن وقوعها الموقع الذی یقع التواضع علیه بعد العهد الطویل لا یجوز أن یقع إلا من اللّه عز و جل.لأن ذلک یجری مجری علم الغیوب.و إن کان إنما نبهوا علی ما بنی علیه اللسان فی أصله،و لم یکن لهم فی التقسیم شیء،و إنما التأثیر لمن وضع أصل اللسان.فذلک أیضا من البدیع الذی یدل علی أن أصل وضعه وقع موقع الحکمه التی یقصر عنها اللسان.فإن کان أصل اللغه توقیفا فالأمر فی ذلک أبین.و إن کان علی سبیل التواضع،فهو عجیب أیضا؛لأنه لا یصح أن تجتمع هممهم المختلفه علی نحو هذا إلا بأمر من عند اللّه تعالی.

و کل ذلک یوجب إثبات الحکمه فی ذکر هذه الحروف علی حد یتعلق به الإعجاز من وجه، و قد یمکن أن تعاد فاتحه کل سوره لفائده تخصها فی النظم إذا کانت حروفا کنحو(الم)لأن الألف المبدوء بها هی أقصاها مطلعا،و اللام متوسطه،و المیم متطرفه.لأنها تأخذ فی الشفه،فنبه بذکرها علی غیرها من الحروف.و بین أنه إنما أتاهم بکلام منظوم،بما یتعارفون من الحروف التی تردد بین هذین الطرفین.

و یشبه أن یکون التصنیف وقع فی هذه الحروف دون الألف لأن الألف قد تلغی،و قد تقع الهمزه و هی موقعا واحدا.

و معنی عاشر:و هو أنه سهّل سبیله،فهو خارج عن الوحشیّ المستکره،و الغریب المستنکر،و عن الصنعه المتکلّفه.و جعله قریبا إلی الأفهام،یبادر معناه لفظه إلی القلب، و یسابق المغزی منه عبارته إلی النفس،و هو مع ذلک ممتنع المطلب،عسیر المتناول،غیر مطمع مع قربه فی نفسه،و لا موهم مع دنوّه فی موقعه،أن یقدر علیه،أو یظفر به.

فأما الانحطاط عن هذه الرتبه إلى رتبه الكلام المبتذل،و القول المسفسف،فليس يصحّ أن تقع فيه فصاحه أو بلاغه،فيطلب فيه التمنع،أو يوضع فيه الإعجاز.و لكن لو وضع فى وحشى مستكره،أو غمر بوجوه الصنعه،و أطبق بأبواب التعسف و التكلف،لكان لقائل أن يقول فيه:و يعتذر و يعيب و يقرع.و لكنه أوضح مناره،و قرب منهاجه،و سهل سبيله،و جعله فى ذلك متشابها متماثلا.و بين مع ذلك إعجازهم فيه.و قد علمت أن كلام فصحائهم،و شعر بلغائهم،لا ينفك من تصرف فى غريب مستنكر،أو وحشى مستكره، و معان مستبعده.

ثم عدولهم إلى كلام مبتذل وضيع،لا يوجد دونه فى الرتبه.ثم تحولهم إلى كلام معتدل بين الأمرين،متصرف بين المنزلتين،فمن شاء أن يتحقق هذا نظر فى قصيده امرئ القيس (۱):

«قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل» (۲).

و نحن نذكر بعد هذا على التفصيل،ما يتصرف إليه هذه القصيده و نظائرها و منزلتها من البلاغه،و نذكر وجه فوت نظم القرآن محلها،على وجه يؤخذ باليد و يتناول من كتب، و يتصور فى النفس كتصور الأشكال،ليبين ما ادعيناه من الفصاحه العجيبه للقرآن.

و اعلم أن من قال من أصحابنا إن الأحكام معلله بعلل موافقه مقتضى العقل،جعل هذا وجها من وجوه الإعجاز،و جعل هذه الطريقه دلاله فيه كنحو ما يعللون به الصلاه، و معظم الفروض و أصولها.و لهم فى كثير من تلك العلل طرق قريبه،و وجوه تستحسن.

و أصحابنا من أهل خراسان يولعون بذلك.و لكن الأصل الذى يبنون عليه عندنا غير مستقيم،و فى ذلك كلام يأتى فى كتابنا فى الأصول.

و قد يمكن فى تفاصيل ما أوردنا من المعانى الزياده و الإفراد،فإنا جمعنا بين أمور و ذكرنا المزيه المتعلقه بها،و كل واحد من تلك الأمور مما قد يمكن اعتقاده فى إظهار الإعجاز فيه.فإن قيل:فهل تزعمون أنه معجز لأنه حكايه لكلام القديم سبحانه،أو لأنه عباره عنه،أو لأنه قديم فى نفسه،قيل:لسنا نقول بأن الحروف قديمه،فكيف يصح التركيب على الفاسد؟ و لا نقول أيضا إن وجه الإعجاز فى نظم القرآن أنه حكايه عن الكلام القديم.لأنه لوه.

۱- سبقت ترجمته.

۲- صدر البيت الأول من معلقته.

کـان کـذلک لکـانت التوراه و الإنجیل،و غیرهما من کتب اللّه عز و جل،معجزات فی النظم و التألیف.و قـد بینا أن إعجازها فی غیر ذلک.و کذلک کان یجب أن تکون کل کلمه مفرده معجزه بنفسها،و متفردها،و قد ثبت خلاف ذلک.

ص: ۳۹

فصل: فی شرح ما بیّنا من وجوه إعجاز القرآن

فأما الفصل الذی بدأنا بذکره من الإخبار عن الغیوب،و الصدق،و الإصابه فی ذلک کله،فهو کقوله تعالی: قُلْ لِلْمُخَلَّفِینَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلی قَوْمٍ أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ (۱)فأغزاهم أبو بکر (۲)،و عمر (۳)رضی اللّه عنهما،إلی قتال العرب و الفرس و الروم.

و کقوله: الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ فِی بِضْعِ سِنِینَ (۴)،و راهن أبو بکر الصدیق رضی اللّه عنه فی ذلک،و صدق اللّه وعده.

و کقوله فی قصه أهل بدر: سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ یُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۵)و کقوله: لَقَدْ صَدَقَ اللّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ (۶).

و کقوله: وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اللّهُ إِحْدَی الطّائِفَتَیْنِ أَنَّها لَکُمْ (۷)فی قصه أهل بدر و کقوله:

وَعَدَ اللّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً (۸) و صدق اللّه تعالی وعده فی کل ذلک،و قال فی قصه المتخلفین عنه فی غزوته: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ

۱- آیه(۱۶)سوره الفتح.

۲- سبقت ترجمته.

۳- سبقت ترجمته.

۴- آیه(۱:۴)سوره الروم.

۵- آیه(۴۵)سوره القمر.

۶- آیه(۲۷)سوره الفتح.

۷- آیه(۵)سوره الأنفال.

۸- آیه(۵۵)سوره النور.

أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا (۱) فحق ذلک کله و صدق و لم یخرج من المخالفین الذین خوطبوا بذلک معه أحد.

و کقوله: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ (۲)و کقوله: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (۳)فامتنعوا من المباهله و لو أجابوا إلیها اضطرمت علیهم الأودیه نارا،علی ما ذکر فی الخبر.

و کقوله: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدّارُ الْآخِرَهُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَهً مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (۴)و لو تمنوه لوقع بهم هذا و ما أشبهه.

و أما الوجه الثانی:الذی ذکرناه من إخباره عن قصص الأولین،و سیر المتقدمین، فمن العجیب الممتنع علی من لم یقف علی الأخبار،و لم یشتغل بدرس الآثار،و قد حکی فی القرآن تلک الأمور حکایه من شهدها،و حضرها.

و لذلک قال اللّه تعالی: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۵)آیه(۴۴)سوره القصص.(۶)و قال: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشّاهِدِينَ (۶)و قال: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَهً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ (۷)فبین وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبه السالفه.و قال:

تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا (۸) الآیه.

فأما الکلام فی الوجه الثالث:و هو الذی بیناه من الإعجاز الواقع فی النظم و التألیف و الرصف،فقد ذکرنا من هذا الوجه وجوها منها أنا قلنا:إنه نظم خارج عن جمیع وجوه النظم المعتاد فی کلامهم،و مباین لأسالیب خطابهم.و من ادعی ذلک لم یکن له بد من أن یصحح أنه لیس من قبیل الشعر،و لا السجع،و لا الکلام الموزون غیر المقفی،لأن قوماد.

۱- آیه(۸۳)سوره التوبه.

۲- آیه(۲۳)سوره التوبه.

۳- آیه(۶۱)سوره آل عمران.

۴- آیه(۹۴،۹۵)سوره البقره.

۵- آیه

۶- سوره العنکبوت.

۷- آیه(۴۶)سوره القصص.

۸- آیه(۴۹)سوره هود.

من كفار قريش ادعوا أنه شعر،و من الملحده من يزعم أن فيه شعرا،و من أهل المله من يقول:إنه كلام مسجّع،إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم،و منهم من يدعى أنه كلام موزون،فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب.

ص: ۴۲

فصل: فی نفی الشعر من القرآن

قد علمنا أن اللّه تعالی نفی الشعر من القرآن،و عن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم فقال: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما یَنْبَغِی لَهُ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِکْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِینٌ (۱)و قال فی ذم الشعراء: وَ الشُّعَراءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وادٍ یَهِیمُونَ (۲)إلی آخر ما وصفهم به فی هذه الآیات فقال:

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ (۳) و هذا یدل علی أن ما حکاه عن الکفار،من قولهم إنه شاعر،و إن هذا شعر،لا بد من أن یکون محمولا علی أنهم نسبوه فی القرآن إلی أن الذی أتاهم به هو من قبیل الشعر الذی یتعارفونه علی الأعاریض المحصوره المألوفه؛أو یکون محمولا علی ما کان یطلق الفلاسفه علی حکمائهم و أهل الفطنه منهم فی وصفهم إیاهم بالشعر،لدقه نظرهم فی وجوه الکلام،و طرق لهم فی المنطق.

و إن کان ذلک الباب خارجا عما هو عند العرب شعر علی الحقیقه،أو یکون محمولا علی أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم فی معرفه أوزان الشعر،و هذا أبعد الاحتمالات.فإن حمل علی الوجهین الأولین کان ما أطلقوه صحیحا؛و ذلک أن الشاعر یفطن لما لا یفطن له غیره.

و إذا قدر علی صنعه الشعر کان علی ما دونه فی رأیهم و عندهم أقدر فنسبوه إلی ذلک لهذا السبب.فإن زعم زاعم أنه قد وجد فی القرآن شعرا کثیرا،فمن ذلک ما یزعمون أنه بیت تام،أو أبیات تامه،و منه ما یزعمون أنه مصراع کقول القائل:

«قد قلت لما حاولوا سلوتی هیهات هیهات لما توعدون»

و مما یزعمون أنه بیت قوله سبحانه:

وَ جِفانٍ کَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِیاتٍ (۴) .قالوا هو من الرمل من البحر الذی قیل فیه:

«ساکن الریح نطوف ال مزن منحلّ العزالی»

۱- آیه(۶۹)سوره یس.

۲- آیه(۲۲۴-۲۲۵)سوره الشعراء.

۳- آیه(۴۱)سوره الحاقه.

۴- آیه(۱۳)سوره سبأ.

و كقوله: وَ مَنْ تَزَكّى فَإِنَّما يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ (۱)كقوله الشاعر من بحر الخفيف:

«كل يوم بشمسه و غد مثل أمسه»

و كقوله عز و جل: وَ مَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (۲).و كقوله: وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا (۳)و يشبعون حركه الميم فيزعمون أنه من الرجز،و ذكر عن أبى نواس (۴)أنه ضمن ذلك شعرا و هو قوله:

و فتيه فى مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا

«دانيه عليهم ظلالها و ذللت قطوفها تذليلا»

و قوله عز و جل: وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۵).زعموا أنه من الوافر كقوله الشاعر:

لنا غتم نسوّقها غزار كأنّ قرون جلّتها عصىّ

و كقوله عز و جل: أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (۶)ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل و قال:فذاك الذى.و شعره:

و قرا معلنا ليصدع قلبى و الهوى يصدع الفؤاد السقيما

أ رأيت الذى يكذب بالدى ن فذاك الذى يدعّ اليتيما

و هذا من الخفيف كقول الشاعر:

و فؤادى كعهده بسليمى يهوى لم يحل و لم يتغيّر

و كما ضمنه فى شعره من قوله:

«سبحان من سخر هذا لنا «حقا»و ما كنا له مقرنين»

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر،و كما يقولونه فى قوله عز و جل: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً* فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (۷)و نحو ذلك فى القرآن كثير كقوله: وَ الذّارِياتِ ذَرْواً فَالْحامِلاتِ.

۱- آيه(۱۸)سوره فاطر.

۲- آيه(۲،۳)سوره الطلاق.

۳- آيه(۱۴)سوره الإنسان.

۴- أبو نواس هو:الحسن بن هانئ،ولد فی«الأهواز»سنه(۱۴۵)فی خلافه أبی جعفر المنصور،و قبل أن یتجاوز السنه الثانیه من عمره انتقل والداه إلی البصره فنشأ فیها.مات سنه(۱۹۸).له ترجمه فی: الأغانی ۱۸/۲،و وفیات الأعیان ۱۳۵/۱،و الفهرست(۱۶۰).

۵- آیه(۱۴)سوره التوبه.

۶- آیه(۱۴،۱۵)سوره الماعون.

۷- آیه(۱،۲)سوره العادیات.

وِقْراً. فَالْجارِياتِ يُسْراً (۱) و هو عندهم شعر من بحر البسيط.

و الجواب عن هذه الدعوى التى ادعوها من وجوه أولها أنّ الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن،لو كانوا يعتقدونه شعرا،و لم يروه خارجا عن أساليب كلامهم،لبادروا إلى معارضته،لأن الشعر مسخر لهم،سهل عليهم،فيه ما قد علمت من التصرف العجيب و الاقتدار اللطيف.

فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك و لا عولوا عليه،علم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئا مما يقدره الضعفاء فى الصنعه،و المرملون فى هذا الشأن.و إن استدراك من يجىء الآن على فصحاء قريش،و شعراء العرب قاطبه فى ذلك الزمان،و بلغائهم و خطبائهم و زعمه أنه قد ظفر بشعر فى القرآن ذهب أولئك النفر عنه،و خفى عليهم شده حاجاتهم إلى الطعن فى القرآن و الغض عنه و التوصل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه.فلن يجوز أن يخفى على أولئك و أن يجهلوه و يعرفه من جاء الآن و هو بالجهل حقيق.

و إذا كان كذلك علم أن الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال شديد،و هو أنهم قالوا:إن البيت الواحد و ما كان على وزنه لا يكون شعرا،و أقل الشعر بيتان فصاعدا.و إلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعه العربيه من أهل الإسلام.و قالوا أيضا:إن ما كان وزن بيتين، إلا- أنه يختلف رويهما و قافيتهما،فليس بشعر.ثم منهم من قال:إن الرجز ليس بشعر أصلا،لا سيما إذا كان مشطورا،أو منهوكا.و كذلك ما كان يقارنه فى قله الأجزاء.و على هذا يسقط السؤال.

ثم يقولون:إن الشعر إنما يطلق متى قصد القاصد إليه على الطريق الذى يتعمد و يسلك،و لا- يصح أن يتفق مثله إلا- من الشعراء،دون ما يستوى فيه العامىّ و الجاهل، و العالم بالشعر و اللسان و تصرفه.و ما يتفق من كل واحد،فليس يكتسب اسم الشعر،و لا- صاحبه اسم شاعر،لأنه لو صح أن يسمى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر،أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض،كان الناس كلهم شعراء.لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جمله كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر،و ينتظم انتظامه،أ لا- ترى أن العامى قد يقول لصاحبه:أغلق الباب و ائتنى بالطعام،و يقول الرجل لأصحابه:أكرموا من لقيتم من تميم.و متى تتبع الإنسان هذا،عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله،و أكثر منه.

و هذا القدر الذى يصح فيه التوارد ليس يعده أهل الصناعه سرقه،إذ لم تعلم فيه حقيقت.

۱- آيه(۱:۳)سوره الذاريات.

الأخذ،كقول امرئ القيس (۱):

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى و تجلد (۲)

و مثل هـذا كثير.فإذا صـح مثل ذلك فى بعض البيت،و لم يمتنع التوارد فيه،فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقا غير مقصـود إليه.فـإذا اتفـق،لم يكن شـعرا.و كـذلك يمتنـع التـوارد على بيـتين،و كـذلك يمتنـع فى الكلام المنثـور وقوع البيـتين و نحوهما،فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يعد شعرا،و إنما يعد شعرا ما إذا قصده صاحبه،تأتى له و لم يمتنع عليه.

فإذا كان هو مع قصده،لا يتأتى له،و إنما يعرض فى كلامه عن غير قصد إليه،لم يصح أن يقال إنه شعر،و لا أن صاحبه شاعر،و لا يصح أن يقال:إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر،فيجب أن يكون شعرا؛لأنه لو قصده لكان يتأتى منه.

و إنما لم يصح ذلك؛لأن ما ليس بشعر،فلا يجوز أن يكون شعرا من أحد.و ما كان شـعرا من أحد من الناس،كان شعرا من كل أحد.

أ لا ترى أن السوقىّ قد يقول أسـقنى الماء يا غلام سريعا؟قد يتفق ذلك مع الساهى، و من لا يقصد النظم.فأما الشعر إذا بلغ الحد الذى بيّنا،فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه.

فأما الرجز فإنه يعرض فى كلام العوام كثيرا.فإذا كان بيتا واحدا فليس ذلك بشعر.

و قـد قيـل إنّ أقـل مـا يكون منه شـعرا أربعه أبيـات،بعـد أن تتفق قوافيها.و لم يتفق ذلك فى القرآن بحال.فأما دون أربعه أبيات منه،أو ما يجرى مجراه فى قله الكلمات،فليس بشعر.

و مـا اتفـق فى ذلـك من القرآن مختلـف الروى.و يقولـون إنه مـتى اختلف الروى خرج من أن يكون شـعرا.و هـذه الطرق الـتى سلكوهـا فى الجـواب معتمـده،أو أكثرهـا.و لـو كـان ذلـك شـعرا،لكـانت النفـوس تتشوف إلى معارضـته،لأـن طريق الشـعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد،و أهله يتقاربون فيه،أو يضربون فيه بسهم.

فـإن قيـل:فى القرآن كلام موزون كوزن الشـعر،و إن كان غير مقفى،بل هو مزاوج، متساوى الضـروب،و ذلك آخر أقسام كلام العرب.قيـل:من سبيـل الموزون من كلام،أن يتسـاوى أجزاءه فى الطول و القصـر و السواكن و الحركات.فإن خرج عن ذلك لم يكن موزوناه.

۱- سبقت ترجمته.

۲- بيت من معلقته الشهيره.

كقوله:

«رب أخ كنت به مغتبطا أشدّ كفّى بعرى صحبته

تمسكا منى بالود و لا أحسبه يزهد فى ذى أمل

تمسكا منى بالود و لا أحسبه بغير العهد و لا

يحول عنه أبدا فخاب فيه أملى»

و قد علمنا أن هذا القرآن ليس من هذا القبيل،بل هذا قبيل غير ممدوح،و لا مقصود من جمله الفصيح.و ربما كان عندهم مستنكرا،بل أكثره على ذلك.و كذلك ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولا،و هو الذى شرطنا فيه التعادل و التساوى فى الأجزاء،غير الاختلاف الواقع فى التقفيه،و يبين ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذى بيّنا، و تتم فائدته بالخروج منه.و أما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه.

ص: ۴۷

فصل: فی نفی السجع من القرآن

ذهب أصحابنا کلهم إلی نفی السجع من القرآن.و ذکره أبو الحسن (۱)الأشعری فی غیر موضع من کتبه.و ذهب کثیر ممن یخالفهم إلی إثبات السجع فی القرآن،و زعموا أن ذلک مما یبین به فضل الکلام.و أنه من الأجناس التی یقع بها التفاضل فی البیان،و الفصاحه کالتجنیس،و الالتفات و ما أشبه ذلک من الوجوه التی تعرف بها الفصاحه.

و أقوی ما یستدلون به علیه اتفاق الکل علی أن موسی أفضل من هارون علیهما السلام،و لمکان السجع قیل فی موضع هارُونَ وَ مُوسی (۲)و لما کانت الفواصل فی موضع آخر بالواو و النون قبل مُوسی وَ هارُونَ (۳)قالوا:هذا لا یفارق أمر الشعر؛لأنه لا یجوز أن یقع فی الخطاب إلا مقصودا إلیه.

و إذا وقع غیر مقصود إلیه،کان دون القدر الذی یسمی شعرا.و ذلک القدر ما یتفق وجوده من المفحم،کما یتفق وجوده من الشاعر.و أما ما فی القرآن من السجع فهو کثیر، لا یصح أن یتفق کله غیر مقصود إلیه.و یبنون الأمر فی ذلک علی تحدید معنی السجع.

قال أهل اللغه«هو موالاه الکلام علی وزن واحد».قال ابن درید (۴):«سجعت الحمامه معناها رددت صوتها».و أنشد:

طربت فأبکتک الحمام السواجع تمیل بها ضحوا غصون نوائع

النوائع الموائل،من قولهم جائع نائع أی متمایل ضعفا.و هذا الذی یزعمونه غیر

۱- أبو الحسن الأشعری هو:علی بن إسماعیل بن إسحاق الأشعری،من ولد أبی موسی الأشعری، صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم.مات سنه(۳۲۴).له ترجمه فی:تاریخ بغداد ۳۴۶/۱۱،و وفیات الأعیان ۲۸۴/۳،و شذرات الذهب ۳۰۳/۲.

۲- آیه(۷۰)سوره طه.

۳- آیه(۱۲۲)سوره الأعراف.

۴- ابن درید هو:أبو بکر محمد بن الحسین بن درید الأزدی،ولد بالبصره،و نشأ و تعلم فیها،و قد نبغ فی اللغه،و کان من أکابرها،مقدما فیها.مات سنه(۳۲۱).له ترجمه فی:تاریخ بغداد ۱۹۵/۲، و شذرات الذهب ۲۸۹/۲،و وفیات الأعیان ۴۹۷/۱.

صحیح.و لو کان القرآن سجعا،لکان غیر خارج عن أسالیب کلامهم،و لو کان داخلا فیها،لم یقع بذلک إعجازا.و لو جاز أن یقال هو سجع معجز لجاز لهم أن یقولوا شعر معجز.

و کیف و السجع مما کان یألفه الکهان من العرب،و نفیه من القرآن أجدر بأن یکون حجه من نفی الشعر،لأن الکهانه تنافی النبوات،و لیس کذلک الشعر.

و قد روی أن النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قال للذین جاءوا و کلموه فی شأن الجنین:کیف ندی من لا أکل و لا شرب و لا صاح.فاستهل:أ لیس دمه قد یطل؟فقال:«أ سجاعه کسجاعه الجاهلیه؟ و فی بعضها أ سجعا کسجع الکهان» (۱)؟فرأی ذلک مذموما لم یصح أن یکون فی دلالته، و الذی یقدرونه أنه سجع فهو و هم،لأنه قد یکون الکلام علی مثال السجع،و إن لم یکن سجعا،لأن ما یکون به الکلام سجعا یختص ببعض الوجوه دون بعض،لأن السجع من الکلام یتبع المعنی فیه اللفظ الذی یؤدی السجع،و لیس کذلک ما اتفق مما هو فی تقدیر السجع من القرآن.لأن اللفظ یقع فیه تابعا للمعنی.و فصل بین أن ینتظم الکلام فی نفسه بألفاظه التی تؤدی المعنی المقصود فیه،و بین أن یکون المعنی منتظما دون اللفظ.

و متی ارتبط المعنی بالسجع،کانت إفاده السجع کإفاده غیره.و متی ارتبط المعنی بنفسه دون السجع،کان مستجلبا لتجنیس الکلام دون تصحیح المعنی.

فإن قیل:فقد یتفق فی القرآن ما یکون من القبیلین جمیعا،فیجب أن تمسّوا أحدهما سجعا.قیل:الکلام فی تفصیل هذا خارج عن عرض کتابنا،و إلا کنا نأتی علی فصل فصل من أول القرآن إلی آخره،و نبین فی الموضع الذی یدعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا یخفی.و لکنه خارج عن غرض کتابنا،و هذا القدر یحقق الفرق بین الموضعین.ثم إن سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدوده،و زعم أن وقوع ذلک موقع الاستراحه فی الخطاب إلی الفواصل لتحسین الکلام بها،و هی الطریقه التی یباین القرآن بها سائر الکلام.

و زعم أن الوجه فی ذلک أنه من باب الفواصل.أو زعم أن ذلک وقع غیر مقصود إلیه،و أن ذلک إذا اعترض فی الخطاب لم یعد سجعا،علی ما قد بینا من القلیل من الشعر کالبیت الواحد،و المصراع،و البیتین من الرجز.و نحو ذلک یعرض فیه فلا یقال إنه شعر؛لأنه لا یقع مقصودا إلیه،و إنما یقع مغمورا فی الخطاب.

فکذلک حال السجع،الذی یزعمونه و یقدرونه.و یقال لهم:لو کان الذی فی القرآنف.

۱- النسائی ۵۲/۸،و الطبرانی ۱۴۲/۱۷،و المجمع ۳۰۰/۶،و عزاه إلی الأخیر من طریق محمد بن سلیمان بن مسمول،و هو ضعیف.

على ما تقدرونه سجعا،لكان مذموما مرذولا؛لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه،و اختلفت طرقه،كان قبيحا من الكلام.

و للسجع منهج مرتب،محفوظ،و طريق مضبوط،متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه،و نسب إلى الخروج عن الفصاحه.كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود، كان مخطئا،و كان شعره مرذولا،و ربما أخرجه عن كونه شعرا.و قد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا،متقارب الفواصل،متدانى المقاطع،و بعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه.و ترد الفاصله على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير.و هذا فى السجع غير مرضى، و لا محمود.فإن قيل:متى خرج السجع المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه،خرج من أن يكون سجعا.و ليس على المتكلم أن يلتزم بأن يكون كلامه كله سجعا.بل يأتى به طورا،ثم يعدل عنه إلى غيره،ثم قد يرجع إليه.

قيل:متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفا للآخر،كان تخليطا و خبطا.و كذلك متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجع و تفاوت كان خبطا.

و علم أن فصاحه القرآن غير مذمومه فى الأصل،فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب.و لو كان الكلام الذى هو فى صوره السجع منه،لما تحيروا فيه،و كانت الطباع تدعو إلى المعارضه؛لأن السجع غير ممتنع عليهم،بل هو عادتهم.فكيف تنقص العاده بما هو نفس العاده.و هو غير خارج عنها،و لا مميز منها.و قد يتفق فى الشعر كلام على منهاج السجع و ليس بسجع عندهم.و ذلك نحو قول البحترى (۱):

تشكّى الوجى و الليل ملتبس الدّجى عزيزيه الأنساب مرت نقيعها

و قوله:

قريب المدى حتى يكون إلى النّدى عدو البنا حتى يكون معالى

و رأيت بعضهم يرتكب هذا،فيزعم أنه سجع مداخل،و نظيره من القرآن قوله تعالى:

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَهِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ (۲) و قوله: أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها (۳)و قوله: أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِيء.

۱- البحترى هو:أبو عباده الوليد بن عبيد الطائى،ولد بمنبج من أعمال الشام،و تخرج بها،و انتقل إلى العراق فى خدمه المتوكل و وزيره الفتح بن خاقان،و له الحرمه التامه حتى قتلا،فرجع إلى منبج. مات سنه(۲۸۴).له ترجمه فى:شذرات الذهب ۱۸۶/۲،و وفيات الأعيان ۱۷۵/۲،و الفهرست (۱۶۵).

۲- آيه(۲۷)سوره النحل.

۳- آيه(۱۶)سوره الإسراء.

سَبِيلِهِ (۱) و قوله: وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ (۲)و قوله: إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (۳)ابن ذى أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاويه بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع ابن العرنجج،و هو:حمير بن سبأ.(۴)و لو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحيروا فيه ذلك التحير،حتى سماه بعضهم سحرا،و تصرفوا فيما كانوا يسمونه به،و يصرفونه إليه،و يتوهمونه فيه.و هم فى الجمله عارفون بعجزهم عن طريقه،و ليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتاده عندهم، المألوفه لديهم،و الذى تكلمنا به فى هذا الفصل كلام على جمله دون التفصيل.و نحن نذكر بعد هذا فى التفصيل،ما يكشف عن مباينه ذلك وجوه السجع.و من جنس السجع المعتاد عندهم قول أبى طالب،لسيف بن ذى يزن (۴):«انبتك منبتا طابت أرومته،و عزت جرثومته،و ثبت أصله،و بسق فرعه،و نبت زرعه،فى أكرم موطن و أطيب معدن»و ما يجرى هذا المجرى من الكلام.

و القرآن مخالف لنحو هذه الطريقه،مخالفته للشعر،و سائر أصناف كلامهم الدائر بينهم.و لا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامه صوتها على نسق واحد،و رويّ غير مختلف.لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده،و لو بنى عليه لكان الشعر سجعا،لأن رويّه يتفق و لا يختلف،و تتردد القوافى على طريقه واحده.و أما الأمور التى يستريح إليها الكلام،فإنها تختلف.فربما كان ذلك يسمى قافيه،و ذلك إنما يكون فى الشعر.و ربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع.و ربما سمى ذلك فواصل.و فواصل القرآن مما هو مختص بها،لا شركه بينه و بين سائر الكلام فيها،و لا تناسب.

و أما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع،و تأخيره عنه فى موضع لمكان السجع،و لتساوى مقاطع الكلام،فليس بصحيح.لأن الفائده عندنا غير ما ذكروه.و هى أن إعاده ذكر القصه الواحده بألفاظ مختلفه تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحه،و تتبين فيه البلاغه.و أعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفه على ترتيبات متفاوته،و نبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به و مكررا.

و لو كان فيهم تمكن من المعارضه لقصدوا تلك القصه فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى معناها، و تحويها،و جعلوها بإزاء ما جاء به،و توصلوا بذلك إلى تكذيبه و إلى مساواته فيما جاء به.أ.

۱- آيه(۲۴)سوره التوبه.

۲- آيه(۴۸،۴۹)سوره آل عمران.

۳- آيه

۴- سوره مريم.

کیف و قد قال لهم: فَلْیَأْتُوا بِحَدِیثٍ مِثْلِهِ إِنْ کانُوا صادِقِینَ (۱)فعلی هذا یکون المقصد بتقدیم بعض الکلمات،و تأخیرها إظهارا للإعجاز علی الطریقین جمیعا،دون التسجیع الذی توهموه.فإن قال قائل:القرآن مختلط من أول أوزان کلام العرب،ففیه من جنس خطبهم و رسائلهم و سجعهم و موزون کلامهم الذی هو غیر مقفی.و لکنه أبدع فیه ضربا من الإبداع لبراعته و فصاحته،قیل:قد علمنا أن کلامهم ینقسم إلی نظم،و نثر، و کلام مقفی غیر موزون،و نظم موزون،لیس بمقفی،کالخطب و السجع،و نظم مقفی موزون له رویّ،و من هذه الأقسام ما هو سجیه الأغلب من الناس،فتناوله أقرب،و سلوکه لا یتعذر،و منه ما هو أصعب تناولا کالموزون عند بعضهم،أو الشعر عند الآخرین،و کل هذه الوجوه لا تخرج عن أن یقع لهم بأحد أمرین:إما بتعمل،أو بتکلف و تعلم و تصنع،أو باتفاق من الطبع و قذف من النفس علی اللسان للحاجه إلیه.

و لو کان ذلک مما یجوز اتفاقه من الطبائع،لم ینفک العالم من قوم یتفق ذلک منهم و یتعرض علی ألسنتهم،و تجیش به خواطرهم.و لا ینصرف عند الکل مع شده الدواعی إلیه.و لو کان طریقه التعلم لتصنعوه و لتعلموه فالمهله لهم فسیحه،و الأمد واسع.

و قد اختلفوا فی الشعر کیف اتفق لهم؟فقد قیل:إنه اتفاق فی الأصل غیر مقصود إلیه علی ما یعرض من أصناف النظام فی تضاعیف الکلام،ثم لما استحسنوه و استطابوه و رأوا أنه تألفه الأسماع و تقبله النفوس،تتبعوه من بعد و تعلموه.

و حکی لی بعضهم عن أبی عمر (۲)و غلام ثعلب،عن ثعلب (۳):أن العرب تعلّم أولادها قول الشعر بوضع غیر معقول یوضع علی بعض أوزان الشعر کأنه علی وزن:«قفا نبک من ذکری حبیب و منزل»و یسمون ذلک الوضع المیتر،و اشتقاقه من المتر،و هو الجذب أو القطع،یقال مترت الحبل،بمعنی قطعته أو جذبته.و لم یذکر هذه الحکایه عنهم غیره فیحتمل ما قاله،و أما ما وقع السبق إلیه فیشبه أن یکون علی ما قدمنا ذکره أولا.

و قد یحتمل علی قول من قال:بأن اللغه اصطلاح،أنهم تواضعوا علی هذا الوجه من النظم.و قد یمکن أن یقال مثله علی المذهب الآخر،و أنهم وقفوا علی ما ینصرف إلیه).

۱- آیه(۳۴)سوره الطور.

۲- اختلف فی اسمه علی أحد و عشرین قولا أصحها زبان.

۳- ثعلب هو:أبو العباس ثعلب إمام الکوفیین فی النحو و اللغه.و من مصنفاته:معانی القرآن،و معانی الشعر،و القراءات،و غریب القرآن.مات سنه(۲۹۱).له ترجمه فی:بغیه الوعاه ۳۹۶/۱،و وفیات الأعیان ۳۰/۱،و معجم الأدباء ۱۳۳/۲،و الفهرست(۷۴).

القول من وجوه التفاصح،أو توافقوا هم بينهم على ذلک،و يمكن أن يقال:إن التواضع وقع على أصل الباب،و كذلک التوقيف،و لم يقع على فنون تصرف الخطاب،و إن اللّه تعالى أجرى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى،و فطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد و بنوا عليه و طلبوه و رتبوا فيه المحاسن التى يقع الاضطراب بوزنها،و تهش النفوس إليها،و جمع دواعيهم و خواطرهم على استحسان وجوه من ترتيبها،و اختيار طرق من تنزيلها.

و عرفهم محاسن الكلام و دلهم على كل طريقه عجيبه،ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان بالقرآن،و القدر الذى يتناهى إليه قدرهم،هو ما لم يخرج عن لغتهم،و لم يشذ من جميع كلامهم.بل قد عرض فى خطابهم و وجدوا أن هذا إنما تعذر عليهم مع التحدى و التقريع الشديد،و الحاجه الماسه إليه مع علمهم بطريق وضع النظم و النثر.

و تكامل أحوالهم فيه دل على أنه اختص به ليكون دلاله على النبوه و معجزه على الرساله،و لو لا ذلک لكان القوم إذا اهتدوا فى الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التى يتصرف إليها الخطاب على براعته و حسن انتظامه،فلأن يقدروا بعد التنبيه على وجهه،و التحدى إليه أولى أن يبادروا إليه لو كان لهم إليه سبيل،فلو كان الأمر على ما ذكره السائل،لوجب أن لا يتحيروا فى أمرهم،و لا تدخل عليهم شبهه فيما نابهم،و لكانوا يسرعون إلى الجواب،و يبادرون إلى المعارضه.

و معلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيده عن الوهم و الأسباب التى لا يحتاج إليها،فيكثر فيها من شعر و رجز،و نجد من يعينه على نقله عنه على ما قدمنا ذكره من وصف الإبل و نتاجها.و كثير من أمرها لا فائده فى الاشتغال به فى دين و لا دنيا.ثم كانوا يتفاخرون باللسن و الذلاقه و الفصاحه و الذرابه،و يتنافرون فيه.و تجرى بينهم فيه الأسباب المنقوله فى الآثار على ما لا يخفى على أهله.

فاستدللنا بتحيّرهم فى أمر القرآن على خروجه عن عاده كلامهم،و وقوعه موقعا يخرق العادات،و هذه سبيل المعجزات،فبان بما قلنا إن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبه موقع النظائر التى تقع فى الإسجاع،لا يخرجها عن حدها و لا يدخلها فى باب السجع.

و قد بينا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء،فكان بعض مصاريعه كلمتين،و بعضها تبلغ كلمات،و لا يرون فى ذلک فصاحه؛بل يرونه عجزا.فلو رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعا،لقالوا:نحن نعارضه بسجع معتدل،فنزيد فى الفصاحه على طريقه القرآن،و نتجاوز حده فى البراعه و الحسن،و لا معنى لقول من قدر أنه ترک السجع

تاره إلى غيره ثم رجع إليه؛لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع لأنه لو كان من باب السجع،لكان أرفع نهاياته و أبعد غاياته،و لا بد لمن جوز السجع فيه و سلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام،و عباد بن سلمان،و هشام القرظى،و يذهب مذهبهم فى أنه ليس فى نظم القرآن و تأليفه إعجاز،و أنه يمكن معارضته، و إنما صرفوا عنه ضربا من الصرف،و يتضمن كلامه تسليم الخبط فى طريقه النظم،و أنه منتظم من فرق شتى،و من أنواع مختلفه ينقسم إليها خطابهم و لا يخرج عنها،و يستهين ببديع نظمه و عجيب تأليفه الذى وقع التحدى إليه،و كيف يعجزهم الخروج عن السجع و الرجوع إليه.و قد علمنا عادتهم فى خطبهم و كلامهم،أنهم كانوا لا يلزمون أبدا طريقه السجع و الوزن،بل كانوا يتصرفون فى أنواع مختلفه،فإذا ادّعوا على القرآن مثل ذلك،لم يجدوا فاصله بين نظمى الكلامين.

فصل: فی ذکر البدیع من الکلام

إن سأل سائل فقال:«هل یمکن أن یعرف إعجاز القرآن من جهه ما یتضمنه من البدیع؟».

و قیل:ذکر أهل الصنعه و من صنّف فی هذا المعنی من صفه البدیع ألفاظا نحن نذکرها،ثم نبین ما سألوا عنه،لیکون الکلام واردا علی أمر مبیّن مقرر،و باب مصور.

ذکروا أن من البدیع فی القرآن قوله عز ذکره: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ (۱)و قوله: وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتابِ لَدَیْنا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (۲)آیه(۳۷)سوره یس.(۳)و قوله: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً (۴)و قوله: وَ آیَهٌ لَهُمُ اللَّیْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۴)و قوله: أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ (۵)و قوله: نُورٌ عَلی نُورٍ (۶).

و قد یکون البدیع من الکلمات الجامعه الحکیمه کقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصاصِ حَیاهٌ (۷)و فی الألفاظ الفصیحه کقوله: فَلَمَّا اسْتَیْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِیًّا (۸)و فی الألفاظ الإلهیه کقوله: وَ لَهُ کُلُّ شَیْءٍ (۹)و قوله: وَ ما بِکُمْ مِنْ نِعْمَهٍ فَمِنَ اللّهِ (۱۰)و قوله: لِمَنِ الْمُلْکُ الْیَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (۱۱).

و یذکرون من البدیع قول النبی صلّی اللّه علیه و سلّم:(خیر الناس رجل ممسک عنان فرسه فی سبیل

۱- آیه(۲۴)سوره الإسراء.

۲- آیه

۳- سوره الزخرف.

۴- آیه(۴)سوره مریم.

۵- آیه(۵۵)سوره الحج.

۶- آیه(۳۵)سوره النور.

۷- آیه(۱۷۹)سوره البقره.

۸- آیه(۸۰)سوره یوسف.

۹- آیه(۹۱)سوره النمل.

۱۰- آیه(۵۳)سوره النحل.

۱۱- آیه(۱۶)سوره غافر.

اللّه،كلما سمع هيعه (۱)طار إليها) (۲).و قوله:(ربنا تقبل توبتى و اغسل حوبتى) (۳)و قوله:

(غلب عليكم داء الأمم قبلكم؛الحسد و البغضاء،و هى الحالقه،حالقه الدين لا حالقه الشّعر) (۴).

و كقوله:(الناس كإبل مائه لا تجد فيها راحله) (۵).

و كقوله:(و هل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) (۶)سبقت ترجمته.(۷).

و كقوله:(إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلمّ) (۸).

و كقول أبى بكر الصديق (۸)رضى اللّه عنه فى كلام له قد نقلناه بعد هذا على وجهه، و قوله لخالد بن الوليد (۹):«احرص على الموت توهب لك الحياه».

و قوله:(فر من الشرف يتبعك الشرف)و كقول على بن أبى طالب (۱۰)رضى اللّه عنه و كرم اللّه وجهه فى كتابه إلى ابن عباس (۱۱)و هو عامله على البصره:«أرغب راغبهم،،-

---

۱- قوله:«هيعه».قال ابن الأثير فى«النهايه»۲۸۸/۵:«الهيعه:الصوت الذى تفزع منه و تخافه من عدو،و قد هاع يهيع هيوعا:إذا جبن».

۲- أورده ابن الأثير فى«النهايه»۲۸۸/۵.

۳- أبو داود فى:الوتر(۲۵)،و الترمذى فى:الدعوات(۱۰۳)و قال:حسن صحيح،و ابن ماجه فى: الدعاء(۲)و أحمد ۲۲۷/۱.

۴- الترمذى ۸۳/۲،و أحمد ۱۶۵/۱ و ۱۶۷،و البيهقى ۲۳۲/۱۰،و شرح السنه ۲۵۹/۱۲،و الإرواء ۲۳۸/۳ و عزاه إلى«البزار»بسند جيد.

۵- البخارى فى:الرقاق(۳۵)،و مسلم فى:فضائل الصحابه(۲۳۲)،و الترمذى فى:الأدب(۸۲)، و ابن ماجه فى:الفتن(۱۶)،و أحمد ۷/۲ و ۵۵ و ۷۰ و ۸۸ و ۱۰۹ و ۱۲۱-۱۲۳ و ۱۳۹.

۶- الترمذى فى:الإيمان

۷- ،و ابن ماجه فى:الفتن(۱۲)،و أحمد ۲۳۱/۵ و ۲۳۶ و ۲۳۷.

۸- البخارى فى:الجهاد(۳۷)و الرقاق(۷)،و مسلم فى:الزكاه(۱۲۱)،و ابن ماجه فى:الفتن(۱۸)، و أحمد ۷/۳ و ۲۱ و ۹۱.

۹- خالد بن الوليد بن المغيره أبو سليمان القرشى المخزومى.أسلم قبل غزوه مؤته بشهرين،و كان له الأثر العظيم فى قتال أهل الرّده،و فتوح الشام و العراق.مات سنه(۲۱)بحمص.له ترجمه فى: الرياض المستطابه ص(۶۲-۶۴).

۱۰- على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى المكى ثم المدنى الكوفى.ابن عم النبى صلّى اللّه عليه و سلّم،و أقرب العشره نسبا إليه.كان أول من أسلم من الصبيان،و أول من هاجر بعد النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و أبى بكر،و أول من صلى من المسلمين.مات سنه(۴۰).له ترجمه فى:أسد الغابه ۹۱/۴. و الإصابه ۱۰۵/۲،و تاريخ بغداد ۱۳۳/۱.

۱۱- ابن عباس هو:عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى المكى،و هو حبر الأمه، و ترجمان القرآن.توفى بالطائف

سنه(۷۰).له ترجمه فی:أسد الغابه ۲۹۰/۳،و الإصابه ۳۲۲/۱،-

و احلل عقده الخوف عنهم»و قوله حين سئل عن قول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:«إنما قال ذلك و الدين فى قلّ،فأما و قد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ و ما اختار».

و سأل على رضى اللّه عنه بعض كبراء فارس عن أحمد ملوكهم عندهم،فقال:

«لأردشير فضيله السبق،غير أن أحمدهم أنو شروان»قال:«فأى أخلاقه كان أغلب عليه؟» قال:«الحلم و الإناءه».

فقال على رضى اللّه عنه:«هما توأمان ينتجهما علوّ الهمه».و قال:«قيل كل امرئ ما يحسن»و قال:«العلم قفل و مفتاحه المسأله».

و كتب خالد بن الوليد إلى مرازبه فارس:«أما بعد،فالحمد للّه الذى فض خدمتكم، و فرق كلمتكم».و الخدمه الحلقه المستديره؛و لذلك قيل للخلاخيل خدام.

و قال الحجاج«دلونى على رجل سمين الأمانه»و لما عقدت الرئاسه لعبد اللّه بن وهب الراسبى على الخوارج أرادوه على الكلام فقال:«لا خير فى الرأى الفطير»و قال:

«دعوا الرأى يغب».

و قال أعرابى فى شكر نعمه:«ذاك عنوان نعمه اللّه عز و جل».و وصف أعرابى قوما فقال:«إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام،و إذا تصافحوا بالسيوف قعد الحمام»و سئل أعرابى عن رجل فقال:«صفرت عياب الود بينى و بينه بعد امتلائها و اكفهرت وجوه كانت بمائها».و قال آخر:«من ركب ظهر الباطل نزل دار الندامه».

و قيل لرؤبه:«كيف خلفت ما وراءك»؟فقال:«التراب يابس،و المال عابس».

و من البديع فى الشعر طرق كثيره قد نقلنا منها جمله لنستدل بها على ما بعدها،فمن ذلك قول امرئ القيس (۱):

و قد أغتدى و الطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

قوله:«قيد الأوابد»عندهم من البديع،و من الاستعاره.و يرونه من الألفاظ الشريفه.

و عنى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد،صار قيدا لها،و كانت بحاله المقيد من جهه سرعه إحضاره.و اقتدى به الناس و اتبعه الشعراء،فقيل:قيد النواظر،و قيد الألحاظ، و قيد الكلام،و قيد الحديث،و قيد الرهان.و قال الأسود بن يعفر:

بمقلص عنز جهير شده قيد الأوابد و الرهان جواده.

۱- سبقت ترجمته.

و قال أبو تمام (۱):

لها منظر قید الأوابد لم یزل یروح و یغدو فی خفارته الحب

و قال آخر:

ألحاظه قید عیون الوری فلیس طرف یتعداه

و قال آخر:«قید الحسن علیه الحدقا».

و ذکر الأصمعی (۲)و أبو عبیده (۳)و حماد و قبلهم أبو عمرو أنه أحسن فی هذه اللفظه، و أنه أتبع فیها فلم یلحق،و ذکروه فی باب الاستعاره البلیغه،و سماها بعض أهل الصنعه باسم آخر،و جعلوها من باب الإرداف،و هو أن یرید الشاعر دلاله علی معنی فلا یأتی باللفظ الدال علی ذلک المعنی،بل بلفظ هو تابع له و ردف،قالوا و مثله قوله:«نئوم الضحی لم تنتطق عن تفضل»و إنما أراد و ترفهها بقوله:«نئوم الضحی»و من هذا الباب قول الشاعر:

بعیده مهوی القرط إما لنوفل أبوها و إما عبد شمس و هاشم

و إنما أراد أن یصف طول جیدها فأتی بردفه،و من ذلک قول امرئ القیس (۴):«و لیل کموج البحر أرخی سدوله»،و ذلک من الاستعاره الملیحه،و یجعلون من هذا القبیل ما قدمنا ذکره من القرآن وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً (۵)وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَهِ (۶)و مما یعدونه من البدیع التشبیه الحسن کقول امرئ القیس:

کأن عیون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذی لم یثقبء.

۱- أبو تمام هو:حبیب بن أوس الطائی،ولد فی منبج فی بلاد الشام،و جاء مصر صغیرا،و کان یسقی الماء فی الجامع بالفسطاط،ثم جالس الأدباء،و أخذ عنهم و تعلم.مات سنه(۲۳۲).له ترجمه فی: تاریخ بغداد ۲۴۸/۸،و مروج الذهب ۱۴۷/۷،و وفیات الأعیان ۱۲۱/۱.

۲- الأصمعی هو:عبد الملک بن قریب من قیس،و قد اشتهر بکنیته«الأصمعی»،و کان أتقن القوم و أعلمهم بالشعر،و أحضرهم حفظا.مات سنه(۲۱۴).له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۲۸۸/۱، و الفهرست(۵۵)،و تاریخ بغداد ۴۱۰/۱۰.

۳- أبو عبیده هو:معمر بن المثنی التیمی،کان أجمع سائر الرواه لعلوم العرب و أخبارهم و أنسابهم. مات سنه(۲۰۹).له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۱۰۵/۲،و الفهرست(۵۳)،و تاریخ بغداد ۲۵۲/۱۳.

۴- سبقت ترجمته.

۵- آیه(۴)سوره مریم.

۶- آیه(۲۴)سوره الإسراء.

و قوله:

كأن قلوب الطير رطبا و يابسا لدى و كرها العناب و الحشف البالى

و استبدعوا تشبيهه شيئين بشيئين على حسن تقسيم،و يزعمون أن أحسن ما وجد فى هذا للمحدثين قول بشار (۱):

كأن مثار النقع فوق رءوسنا و أسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و قد سبق امرؤ القيس إلى صحه التقسيم فى التشبيه،و لم يتمكن بشار إلا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى دون صحه التقسيم و التفصيل.و كذلك عدّوا من البديع قول امرئ القيس فى أذنى الفرس:

و سامعتان يعرف العنق فيهما كسامعتى مذعوره وسط ديرب

و اتبعه طرفه (۲)فقال فيه:

و سامعتان يعرف العنق فيهما كسامعتى شاه بحومل مفرد

و مثله قول امرئ القيس فى وصف الفرس:

و عينان كالماويتين و محجر إلى سند مثل الصفيح المنصب

و قال طرفه فى وصف عينى ناقته:

و عينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجابى صخره قلت مورد

و من البديع فى التشبيه قول امرئ القيس:

له أيطلا ظبى و ساقا نعامه و إرخاء سرحان و تقريب تتفل

و ذلك فى تشبيه أربعه أشياء بأربعه أشياء أحسن فيها.و من التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۳)و قوله تعالى: كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴)و مواضع نذكرها بعد هذا.و من البديع فى الاستعاره قول امرئ القيس:

و ليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه و أردف إعجازا و ناء بكلكل.

۱- بشار هو:ابن برد الفارسی،نشأ فی البصره،ثم قدم بغداد بعد أن بناها المنصور،و ولد أعمی،و کان ضخما طویلا عظیم الخلق و الوجه مجدرا.و کان أطبع الشعراء علی الشعر.مات سنه(۱۱۷)له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۸۸/۱،و الفهرست(۱۵۹)،و تاریخ بغداد ۱۱۲/۷.

۲- طرفه هو:ابن العبد أبو عمرو.نبغ فی الشعر منذ حداثته،حتی صار یعد من الطبقه الأولی،و توفی صغیر السن سنه(۵۰۰).له ترجمه فی:خزانه الأدب ۴۱۴/۱.

۳- آیه(۲۴)سوره الرحمن.

۴- آیه(۴۹)سوره الصافات.

و هذه كلها استعارات أتى بها فى ذكر طول الليل،و من ذلك قول النابغه (۱):

و صدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

فاستعاره من إراحه الراعى إبله إلى مواضعها التى تأوى إليها بالليل و أخذ منه ابن الدمينه فقال:

أقضى نهارى بالحديث و بالمنى و يجمعنى و الهم و الليل جامع

و من ذلك قول زهير (۲):

صحا القلب عن ليلى و أقصر باطله و عرى أفراس الصبا و رواحله

و من ذلك قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

و أخذه أبو تمام فقال:«سمو عباب الماء جاشت غواربه»،و إنما أراد امرؤ القيس إخفاء شخصه،و من ذلك قوله:«كأنى و أصحابى على قرن أعفرا»يريد أنهم غير مطمئنين.

و من ذلك ما كتب إلى الحسن بن عبد اللّه بن سعيد قال:أخبرنى أبى،قال أخبرنا عسل بن ذكوان،أخبرنا أبو عثمان المازنى،قال سمعت الأصمعى يقول:أجمع أصحابنا أنه لم يقل أحسن و لا أجمع من قول النابغه:

فإنك كالليل الذى هو مدركى و إن خلت أن المنتأى عنك واسع

قال الحسن بن عبد اللّه:و أخبرنا محمد بن يحيى،أخبرنا عون بن محمد الكندرى، أخبرنا قعنب بن محرز قال:سمعت الأصمعى يقول:سمعت أبا عمرو يقول:كان زهير يمدح السوق،و لو ضرب على أسفل قدميه مائتا دقل،على أن يقول كقول النابغه:

فإنك كالليل الذى هو مدركى و إن خلت أن المنتأى عنك واسع

لما قال يريد أنه سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان،و اتبعه الفرزدق (۳)فقال:

لو حملتنى الريح ثم طلبتنى لكنت كشىء أدركتنى مقادره۲.

۱- النابغه هو:زياد بن معاويه الذبيانى،أحد الثلاثه المقدمين على سائر الشعراء،كان يفد هو و حسان بن ثابت على صاحب الحيره فيمدحانه،لكن النابغه كان مقدما على الجميع.مات سنه (۶۰۴ م).له ترجمه فى:تاريخ ابن عساكر ۴۲۴/۵،و الأغانى ۱۶۲/۹.

۲- زهير بن أبى سلمى،أحد الثلاثه المقدمين على سائر الشعراء.مات سنه(۶۱۵ م).له ترجمه فى الأغانى ۴۸/۹ و ۱۴۶،و خزانه

الأدب ۳۷۵/۱،و الشعر و الشعراء(۵۷).

۳- الفرزدق هو:همام بن غالب بن صعصعه.ولد بالبصره،و أقام فی بادیتها مع أبیه،و ظهرت فیه ملکه الشعر و هو غلام،و لم یکن من مداح بنی أمیه لأنه کان یتشیع لعلی.مات سنه(۱۱۰).له ترجمه فی: خزانه الأدب ۱۰۵/۱،و وفیات الأعیان ۱۹۶/۲.

فلم يأت بالمعنى و لا اللفظ على ما سبق إليه النابغه،ثم أخذه الأخطل (۱)فقال:

و إن أمير المؤمنين و فعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

و قد روى نحو هذا عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:(نصرت بالرعب،و جعل رزقى تحت ظل رمحى، و ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل) (۲).و أخذه على بن...فقال:

و ما لامرئ حاولته عنك مهرب و لو كان فى جوف السماء المطالع

بل هارب لا يهتدى لمكانه ظلام و لا ضوء من الصبح طالع

و مثله قول سلم الخاسر (۳):

فأنت كالدهر مبثوثا حبائله و الدهر لا ملجأ منه و لا هرب

و لو ملكت عنان الريح أصرفه فى كل ناحيه ما فاتك الطلب

فأخذه البحترى (۴)فقال:

و لو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم من خوف بأسك مهرب

و من بديع الاستعاره قول زهير (۵):

فلما وردن الماء زرقا حمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

و قول الأعشى:

و إن عناق العيس سوف يزوركم ثناء على إعجازهن معلق

و منه أخذ نصيب فقال:

فعاجوا فاثنوا بالذى أنت أهله و لو سكتوا أثنت عليك الحقائب

و من ذلك قول تأبط شرا (۶):

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحه و الموت خزيان ينظره.

۱- الأخطل هو:غیاث بن غوث بن الصلت،و الأخطل لقب له.ظهرت الشاعریه فی الأخطل منذ حداثته و کان یشرب الخمر،و لا یجید النظم إلّا إذا شرب.مات سنه(۹۵).له ترجمه فی:الأغانی ۱۶۹/۷،و خزانه الأدب ۲۲۰/۱.

۲- البخاری ۴۹/۴،و أحمد ۵۰/۲ و ۹۲،و ابن أبی شیبه ۳۱۳/۵ و ۳۲۲.

۳- سلم الخاسر هو:سلم بن عمرو،أحد موالی أبی بکر الصدیق،نشأ بالبصره،و کان شاعرا مطبوعا متصرفا فی فنون الشعر،و کان متظاهرا بالخلاعه و الفسوق و المجون.مات سنه(۱۸۶).له ترجمه فی:الأغانی ۱۱۰/۲۱،و وفیات الأعیان ۱۹۸/۱،و تاریخ بغداد ۱۳۶/۹.

۴- سبقت ترجمته.

۵- سبقت ترجمته.

۶- تقدمت ترجمته.

و من الاستعاره فی القرآن کثیر کقوله: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ (۱)یرید ما یکون الذکر عنه شرفا.و قوله: صِبْغَهَ اللّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَهً (۲)قیل دین اللّه أراد و قوله:

اِشْتَرَوُا الضَّلالَهَ بِالْهُدی فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ (۳) و من البدیع عندهم الغلو کقول النمر بن تولب:

أبقی الحوادث و الأیام من نمر إسناد سیف قدیم أثره بادی

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعین و القدین و الهادی

و کقول النابغه (۴):

تقدّ السّلوقیّ المضاعف نسجه و یوقدن بالصّفاح نار الحباحب

و کقول عنتره (۵):

فازورّ من وقع القنا بلبانه و شکا إلیّ بعبره و تحمحم

و کقول أبی تمام (۶):

لو یعلم الرکن من قد جاء یلثمه لخرّ یلثم منه موطئ القدم

و کقول البحتری (۷):

و لو أن مشتاقا تکلف فوق ما فی وسعه لمشی إلیک المنبر

و من هذا الجنس فی القرآن: یَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِیدٍ (۸)و قوله: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۹)و قوله: تَکادُ تَمَیَّزُ مِنَ الْغَیْظِ (۱۰).

و مما یعدونه من البدیع المماثله و هو ضرب من الاستعاره،و ذلک أن یقصد الإشاره إلی معنی فیضع ألفاظا تدل علیه.و ذلک المعنی بألفاظه مثال للمعنی الذی قصد الإشاره إلیهک.

۱- آیه(۴۴)سوره الزخرف.

۲- آیه(۸۸)سوره البقره.

۳- آیه(۱۶)سوره البقره.

۴- سبقت ترجمته.

۵- عنتره هو:ابن شداد من قبیله عبس،و هو من الشعراء الفرسان الشجعان،و عشق فهاجت شاعریته، و اتسع خیاله.مات سنه(۶۱۵ م).له ترجمه فی:الأغانی ۱۴۸/۷،و خزانه الأدب ۶۲/۱.

۶- سبقت ترجمته.

۷- سبقت ترجمته.

۸- آیه(۳۰)سوره ق.

۹- آیه(۱۲)سوره الفرقان.

۱۰- آیه(۸)سوره الملک.

نظیره من المنثور:أن یزید (۱)بن الولید:بلغه أن مروان بن محمد یتلکأ عن بیعته فکتب إلیه:«أما بعد،فإنی أراک تقدم رجلا و تؤخر أخری،فاعتمد علی أیتهما شئت»و کنحو ما کتب به الحجاج إلی المهلّب:«فإن أنت فعلت ذاک و إلا أشرعت إلیک الرمح»،فأجابه المهلّب:(فإن أشرع الأمیر الرمح قلبت إلیه ظهر المجنّ)و کقول زهیر:

و من یعص أطراف الزّجاج فإنه یطیع العوالی رکّبت کلّ لهذم

و کقول امرئ القیس:

و ما ذرفت عیناک إلا لتضربی بسهمیک فی أعشار قلب مقتّل

و کقول عمر (۲)بن معدیکرب :

فلو أنّ قومی أنطقتنی رماحهم نطقت و لکنّ الرماح أجرّت

و کقول القائل:

بنی عمّنا لا تذکروا الشعر بعد ما دفنتم بصحراء الغمیر القوافیا

و کقول الآخر:

أقول و قد شدوا لسانی بنسعه أ معشر تیم أطلقوا عن لسانیا

و من هذا الباب فی القرآن کقوله: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَی النّارِ (۳)و کقوله وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ (۴)قال الأصمعی (۵):«أراد البدن».قال:و تقول العرب:«فدی لک ثوبای یرید نفسه».

و أنشد:

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدا لک من أخی ثقه إزاری

و یرون من البدیع أیضا ما یسمونه المطابقه،و أکثرهم علی أن معناها أن یذکر الشیء و ضده،کاللیل و النهار،و السواد و البیاض،و إلیه ذهب الخلیل (۶)بن أحمد و الأصمعی،۱.

۱- له ترجمه فی:تاریخ الخلفاء ص(۲۵۰).

۲- عمرو بن معدی کرب،أدرک الإسلام و أسلم،و جاهد حتی مات فی آخر خلافه عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه.مات سنه(۶۴۳ م).له ترجمه فی:الأغانی ۲۵/۱۴،و خزانه الأدب ۴۲۵/۱.

۳- آیه(۱۷۵)سوره البقره.

۴- آیه(۴)سوره المدثر.

۵- سبقت ترجمته.

۶- الخلیل بن أحمد أبو عبید الرحمن البصری الفراهیدی الأزدی،کان من تلامذه أبی عمرو العلاء، و عنه أخذ سیبویه،و هو أول من استخرج علم العروض.مات سنه(۱۸۰ ه).له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۱۷۲/۱،و تاریخ ابن خلدون ۴۸۲/۱.

و من المتأخرين؛عبد اللّه بن المعتز.و ذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور،ما قاله بعضهم:«أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع،فأدخلتنا فى ضيق الضمان»و نظيره من القرآن:

وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ (۱) و قوله: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ (۲)و قوله: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ (۳)و مثله كثير جدا.

و كقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم للأنصار:«إنكم تكثرون عند الفزع،و تقلون عند الطمع» و قال آخرون:بل المطابقه أن يشترك معنيان بلفظه واحده،و إليه ذهب قدامه بن جعفر الكاتب،فمن ذلك قول الأفوه (۴)الأودى:

و أقطع الهواجل مستأنسا بهوجل مستأنس عنتريس

عنى بالهوجل الأول الأرض و بالثانى الناقه.و مثله قول زياد (۵)الأعجم:

و نبّئتهم يستنصرون بكاهل و للّؤم فيهم كاهل و سنام

و مثله قول أبى داود:

عهدت لها منزلا دائرا و آلا على الماء يحملن آلا

فالآل الأول:أعمده الخيام تنصب على البئر للسقى،و الآل الثانى:السراب.و ليس عنده قول من قال المطابقه،إنما تكون باجتماع الشىء و ضده بشىء.و من المعنى الأول قول الشاعر:

أهين لهم نفسى لأكرمها بهم و لن تكرم النّفس التى لا تهينها

و مثله قول امرئ القيس:

و تردى على صمّ صلاب ملاطس شديدات عقد لبّنات متان

و كقول النابغه:

و لا يحسبون الخير لا شرّ بعده و لا يحسبون الشرّ ضربه لازب۱.

۱- آيه(۱۷۹)سوره البقره.

۲- آيه(۱۹)سوره الروم.

۳- آيه(۶۱)سوره الحج.

۴- الأفوه الأودی هو:صلاءه بن عمرو من أود و ینتهی نسبه إلی مذحج من قبائل الیمن،و کان سید قومه و قائدهم،و کانوا یصدرون عن رأیه،و العرب تعده من حکمائها.مات سنه(۵۷۰ م).له ترجمه فی: الأغانی ۴۴/۱۱،و الشعر و الشعراء(۱۱۰).

۵- زیاد الأعجم،کان ینزل اصطخر،فغلبت العجمه علی لسانه،فسمی الأعجم،و کان شاعرا جزل الشعر،فصیح الألفاظ.مات سنه(۱۰۰ ه).له ترجمه فی:خزانه الأدب ۱۹۳/۴،و فوات الوفیات ۱۶۴/۱.

و كقول زهير و قد جمع فيه طباقين:

بعزمه مأمور مطيع و آمر مطاع فلا يلفى لحزمهم مثل

و كقول الفرزدق:

و الشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

و مما قيل فيه ثلاث تطبيقات قول جرير:

و باسط خير فيكم بيمينه و قابض شر عنكم بشماليا

و كقول رجل من بلعنبر:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفره و من إساءه أهل السوء إحسانا

و روى عن الحسن (١)بن على رضى اللّه عنهما أنه تمثل بقول القائل:

فلا الجود يفنى المال و الجدّ مقبل و لا البخل يبقى المال و الجدّ مدبر

و كقول الآخر:

فسرّى كإعلانى و تلك سجيّتى و ظلمه ليلى مثل ضوء نهاريا

و كقول قيس (٢)بن الخطيم:

إذا أنت لم تنفع فضرّ؛فإنما يرجّى الفتى كيما يضرّ و ينفعا

و كقول السموأل:

و ما ضرنا أنا قليل و جارنا عزيز و جار الأكثرين ذليل

فهذا باب يرونه من البديع.

و باب آخر و هو«التجنيس»؛و معنى ذلك:أن تأتى بكلمتين متجانستين،فمنه ما تكون الكلمه فى تجانس الأخرى فى تأليف حروفها،و إليه ذهب الخليل.

و منهم من زعم أن المجانسه أن تشترك اللفظتان على جهه الاشتقاق كقوله عز و جل:

فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّم (۳) و کقوله: وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمانَ (۴)و کقوله: یا أَسَفی عَلی یُوسُفَ (۵)و کقوله: اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یَلْبِسُوا إِیمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِکَ لَهُمُ.

ص: ۶۵

۱- الحسن بن علی بن أبی طالب الهاشمی سبط رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم،و ریحانته فی الدنیا،و أحد سیدی شباب أهل الجنه.روی عن جده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم،و کان أشبه الناس به.له ترجمه فی:تهذیب التهذیب ۲۵۷/۲۰-۵۲۸/۲۶۱.

۲- قیس بن الخطیم،کان شاعرا فارسا من الأوس.مات سنه(۶۱۲ م).له ترجمه فی:الأغانی ۱۵۹/۲،و الجمهره(۱۲۳)،و خزانه الأدب ۱۶۸/۳.

۳- آیه(۴۲)سوره الروم.

۴- آیه(۴۴)سوره النمل.

۵- آیه(۸۴)سوره یوسف.

اَلْأَمْنُ (۱) و كقوله: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ (۲).

و كقول النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:(أسلم سالمها اللّه،و غفار غفر اللّه لها،و عصيّه عصت اللّه.

و رسوله) (۳).و كقوله:(الظلم ظلمات يوم القيامه) (۴)و قوله:(لا يكون ذو الوجهين وجيها عند اللّه).

*و كتب بعض الكتاب:(العذر مع التعذر واجب،فرأيك فيه)و قال معاويه (۵)لابن عباس (۶):«ما لكم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم؟»فقال:«كما تصابون فى بصائركم».

و قال عمر (۷)بن الخطاب رضى اللّه عنه:«هاجروا و لا تهجروا»و من ذلك قول قيس ابن عاصم:

و نحن حفرنا الحوفزان بطعنه كسته نجيعا من دم الجوف أشكلا

و قال آخر:«أمل عليها بالبلى الملوان» (۸).

و قال الآخر:

و ذاكم أن ذل الجار حالفكم و إن أنفكم لا تعرف الأنفا

و كتب إلى بعض مشايخنا قال:أنشدنا الأخفش عن المبرد (۹)عن التوزى:۳.

۱- آيه(۸۲)سوره الأنعام.

۲- آيه(۲۶)سوره الأنعام.

۳- البخارى ۳۳/۲ و ۲۲۰/۴،و مسلم فى:فضائل الصحابه(۱۸۷،۱۸۶،۱۸۵،۱۸۴،۱۳۲)، و الترمذى(۳۹۴۱ و ۳۹۴۹)،و أحمد ۲۰/۲ و ۵۰ و ۱۰۷ و ۱۱۷.

۴- البخارى ۱۶۹/۳،و الترمذى(۲۰۳۰)،و أحمد ۱۳۷/۲ و ۱۵۶ و ۱۵۹،و البيهقى ۹۳/۶ و ۱۳۴/۱۰.

۵- معاويه هو:ابن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى،أسلم يوم الفتح،و كتب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بعد ذلك،و كان من الموصوفين بالدهاء و الحلم.مات بدمشق سنه(۶۰).له ترجمه فى:الرياض المستطابه ص(۲۵۴-۲۵۶).

۶- سبقت ترجمته.

۷- سبقت ترجمته.

۸- الملوان:الليل و النهار.

۹- المبرد هو:أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى،نسبه إلى ثماله قبيله من الأزد.كان شيخ أهل النحو و العربيه،و إليه انتهى علمهما،و كان قوى الذاكره،كثير الحفظ،و له مؤلفات منها: الكامل فى الأدب و غير ذلك.مات سنه(۲۸۵ ه).له ترجمه فى:وفيات الأعيان ۴۹۵/۱، و الفهرست(۵۹)،و انباه الرواه ۲۴۱/۳.

و قالوا:حمامات فحمّ لقاؤها و طلح فزيرت و المطىّ طلوح

عقاب بأعقاب من النأى بعد ما جرت نيه تنسى المحبّ طروح

و قال صحابى:

هدهد فوق بانه هدى و بيان بالنجاح يلوح

و قالوا:دم دامت مواثيق عهده و دام لنا حسن الصفاء صريح

و قال آخر:«أقبلن من مصر يبارين البرى».

و قال القطامى:

و لما ردّها فى الشّول شالت بذيّال يكون لها لفاعا

و قد يكون التجنيس بزياده حرف؛أو ما يقارب ذلك،كقول البحترى:

هل لما فات من تلاف تلاف أم لشاك من الصبابه شاف؟

و قال ابن مقبل:

يمشين هيل النّقا مالت جوانبه ينهال حينا و ينهاه الثّرى حينا

و قال زهير:

هم يضربون حييك البيض إذ لحقوا لا ينكلون إذا ما استلحموا و حموا

و من ذلك قول أبى تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

و أبو نواس يقصد فى مصراعى مقدمات شعره هذا الباب كقوله:

ألا دارها بالماء حتى تلينها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها

و كذلك قوله:

ديار نوار ما ديار نوار كسونك شجوا هنّ منه عوار

و كقول ابن المعتز (۱):

سأثنى على عهد المطيره و القصر و أدعو لها بالساكنين و بالقطر

و كقوله أيضا:

هى الدار إلا أنها منهم قفر و أنّى بها ثاو و أنهم سفر

و كقوله:

للأمانىّ حديث[قد]يقر و يسوء الدهر من قد يسر۲.

۱- ابن المعتز هو:أبو العباس عبد اللّه بن المعتز بن المتوكل من أبناء الخلفاء العباسيين،كان شاعرا مطبوعا مقتدرا على الشعر،جيد القريحه.مات سنه(۲۹۶ ه).له ترجمه فى:وفيات الأعيان ۲۵۸/۱،و الأغانى ۱۴۰/۹،و شذرات الذهب ۲۲۱/۲.

و کقول المتنبی:

و قد أرانی الشباب الرّوح فی بدنی و قد أرانی المشیب الرّوح فی بدلی

و قد قیل إن من هذا القبیل قوله عز و جل: خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِیکُمْ آیاتِی فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (۱)و قوله تعالی: قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِینِی. فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ (۲).

و یعدون من البدیع المقابله،و هی أن یوفق بین معان و نظائرها،و المضاد بضده، و ذلک مثل قول النابغه (۳)الجعدی:

فتی تم فیه ما یسرّ صدیقه علی أنّ فیه ما یسوء الأعادیا

و قال تأبط شرا:

أهزّ به فی ندوه الحی عطفه کما هزّ عطفی بالهجان الأوارک

و کقول الآخر:

و إذا حدیث ساءنی لم أکتئب و إذا حدیث سرّنی لم أشرز

و کقول الآخر:

و ذی إخوه قطّعت أرحام بینهم کما ترکونی واحدا لا أخالیا

و نظیره من القرآن ثُمَّ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ. ثُمَّ إِذا کَشَفَ الضُّرَّ عَنْکُمْ إِذا فَرِیقٌ مِنْکُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ (۴).

و یعدون من البدیع«الموازنه»،و ذلک کقول بعضهم:«اصبر علی حرّ اللقا و مضض النزال و شده المصاع».

و کقول امرئ القیس:

سلیم الشّطا عبل الشّوی شنج النّسا له حجبات مشرفات علی الفال

و نظیره من القرآن: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ. وَ الْیَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۵).

و یعدون من البدیع المساواه،و هی أن یکون اللفظ مساویا للمعنی،لا یزید علیه و لاج.

۱- آیه(۳۷)سوره الأنبیاء.

۲- آیه(۱۴،۱۵)سوره الزمر.

۳- النابغه الجعدی من«جعده»قیس،مخضرم،قال الشعر فی الجاهلیه،و سکت دهرا،ثم نبغ فی الإسلام.له ترجمه فی:الأغانی ۱۲۸/۴،و خزانه الأدب ۵۱۲/۱.

۴- آیه(۵۳،۵۴)سوره النحل.

۵- آیه(۱:۳)سوره البروج.

ينقص عنه،و ذلك يعد من البلاغه،و ذلك كقول زهير:

و مهما تكن عند امرئ من خليقه و إن خالها تخفى على الناس تعلم

و كقول جرير (۱):

فلو شاء قومى كان حلمى فيهم و كان على جهّال أعدائهم جهلى

و كقول الآخر:

إذا أنت لم تقصر عن الجهل و الخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل

و كقول الهزلى:

فلا تجزعن من سنّه أنت سرتها و أوّل راض سنه من يسيرها

و كقول الآخر:

فإن هم طاوعوك فطاوعيهم و إن عاصوك فاعصى من عصاك

و نظير ذلك فى القرآن كثير..و مما يعدّونه من البديع«الإشاره»؛و هو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيره.و قال بعضهم فى وصف البلاغه:لمحه داله.و من ذلك قول طرفه (۲):

فظل لنا يوم لذيذ بنعمه فقل فى مقيل نحسه متغيّب

و كقول زيد الخيل (۳):

فخيبه من يخيب على غنىّ و باهله بن أعصر و الرّباب

و نظيره من القرآن وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى (۴)و مواضع كثيره.

و يعدون من البديع المبالغه و الغلو،و المبالغه تأكيد معانى القول و ذلك كقول الشاعر:

و نكرم جارنا ما كان فينا و نتبعه الكرامه حيث مالاد.

۱- جرير هو:ابن عطيه بن الخطفى،نشأ فى البادیه أيام معاويه،و كان واسع الخيال،قوى الشاعريه مع ميل إلى الهجاء.مات

سنه(۱۱۱ ه).له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۱۰۲/۱،و الشعر و الشعراء (۲۸۳).و خزانه الأدب ۳۹۷/۳.

۲- سبقت ترجمته.

۳- زید الخیل هو:ابن مهلهل من طی،و کان فارسا شجاعا بعید الصیت فی الجاهلیه،و أدرک الإسلام و وفد علی النبی،فسر به و لقبه،و سماه زید الخیل.له ترجمه فی:الأغانی ۴۷/۱۶،و خزانه الأدب ۴۸۸/۲.

۴- آیه(۳۱)سوره الرعد.

و من ذلك قول الآخر:

و هم تركوكم أسلح من حبارى رأت صقرا و أشرد من نعام

فقوله:رأت صقرا مبالغه،و من الغلو قول أبى نواس:

توهّمتها فى كأسها فكأنما توهمت شيئا ليس يدركه العقل

فما يرتقى التكييف فيها إلى مدى يحدّ به إلا و من قبله قبل

و قول زهير:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأوّلهم أو مجدهم قعدوا

و كقول النابغه:

بلغنا السماء مجدنا و سناؤنا و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

و كقول الخنساء (۱):

و ما بلغت كفّ امرئ متناول بها المجد إلا حيثما نلت أطول

و ما بلغ المهدون فى القول مدحه و إن أطنبوا إلا الذى فيك أفضل

و قول الآخر:

له همم لا منتهى لكبارها و همته الصغرى أجلّ من الدّهر

له راحه لو أن معشار جودها على البرّ صار البرّ أندى من البحر

و يرون من البديع«الإيغال»فى الشعر خاصه،فلا يطلب مثله فى القرآن إلا فى الفواصل.كقول امرئ القيس (۲):

كأن عيون الوحش حول خبائنا و أرحلنا الجزع الذى لم يثقّب

و قد أوغل بالقافيه فى الوصف فأكد التشبيه بها.و المعنى قد يستقبل دونها.

و من البديع عندهم«التوشيح»و هو أن يشيد أول البيت بقافيته،و أول الكلام بآخره، كقول البحترى (۳):

فليس الذى حلّلته بمحلل و ليس الذى حرّمته بحرام

و مثله فی القرآن: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ یَتُوبُ عَلَیْهِ (۴)و من ذلکه.

ص: ۷۰

۱- الخنساء هی:تماضر بنت عمرو بن الشرید،و قد أجمع رواه الشعر علی أنه لم تقم امرأه فی العرب قبلها و لا بعدها أشعر منها.ماتت سنه(۶۴۶ م).لها ترجمه فی:خزانه الأدب ۲۰۸/۱،و الشعر و الشعراء(۱۹۷).

۲- سبقت ترجمته.

۳- سبقت ترجمته.

۴- آیه(۳۹)سوره المائده.

رد عجز الكلام على صدره،كقول اللّه عز و جل: اُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (۱)و كقوله: لا تَفْتَرُوا عَلَى اللّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ،وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۲)و من هذا الباب قول القائل:

و إن لم يكن إلّا تعلّل ساعه قليلا فإنى نافع لى قليلها

و كقول جرير (۳):

سقى الرّمل جون مستهل غمامه و ما ذاك إلا حبّ من حلّ بالرمل

و كقول الآخر:

يود الفتى طول السلامه و الغنى فكيف يرى طول السّلامه يفعل

و كقول أبى صخر (۴)الهذلى:

عجبت لسعى الدهر بينى و بينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

و كقول الآخر:

أصد بأيدى العيس عن قصد أرضها و قلبى إليها بالمودّه قاصد

و كقول عمرو بن معدى كرب:

إذا لم تستطع شيئا فدعه و جاوزه إلى ما تستطيع

و من البديع«صحه التقسيم»،و من ذلك قول نصيب:

فقال فريق القوم:لا و فريقهم نعم،و فريق قال:ويحك ما ندرى

و ليس فى أقسام الجواب أكثر من هذا.و كقول الآخر:

فكأنما فيه نهار ساطع و كأنه ليل عليها مظلم

و قول المقفع الكندى:

و إن يأكلوا لحمى وفرت لحومهم و إن يهدموا مجدى بنيت لهم مجدا

و إن ضيّعوا غيبى حفظت غيوبهم و إن هم هووا غيّى هويت لهم رشدا

و إن زجروا طیرا بنحس تمرّ بی زجرت لهم طیرا تمر بهم سعدا

و کقول عروه بن حزام:

بمن لو رآه غائبا لفدیته و من لو رآنی غائبا لفدانی۱.

۱- آیه(۲۱)سوره الإسراء.

۲- آیه(۶۱)سوره طه.

۳- سبقت ترجمته.

۴- أبو صخر الهذلی هو:عبد اللّه بن سلم،کان متعصبا لآل مروان،هجا ابن الزبیر فحبسه حتی مات. له ترجمه فی:خزانه الأدب ۵۵۵/۱،و الأغانی ۹۴/۲۱.

و نحوه قول اللّه عز و جل: اَللّهُ وَلِیُّ الَّذِینَ آمَنُوا،یُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَوْلِیاؤُهُمُ الطّاغُوتُ یُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَی الظُّلُماتِ (۱)و نحوه صحه التفسیر کقول القائل:

ولی فرس للحلم بالحلم ملجم ولی فرس للجهل بالجهل مسرج

و من البدیع التکمیل و التتمیم کقول نافع بن خلیفه:

رجال إذا لم یقبلوا الحق منهم و یعطوه عادوا بالسیوف القواطع

و إنما تم جوده المعنی بقوله:و یعطوه،و ذلک کقول اللّه عز و جل إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَهِ (۲)إلی آخر الآیه ثم قال إِنَّ اللّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ (۳).

و من البدیع«الترصیع»و ذلک من ألوان منها:قول امرئ القیس:

مخشّ مجشّ مقبل مدبر معا کتیس ظباء الحلّب فی العدوان

و من ذلک کثیر من مقدمات أبی نواس:

یا منّه امتنّها السّکر ما ینقضی منّی لها الشکر

و کقوله،و قد ذکرناه قبل هذا:

دیار نوار ما دیار نوار کسونک شجوا هنّ منه عوار

و من ذلک:«الترصیع»مع التجنیس کقول ابن المعتز:

أ لم نجزع علی الربع المحیل و أطلال و آثار محول

و نظیره من القرآن کقوله: إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّیْطانِ تَذَکَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ. وَ إِخْوانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الغَیِّ ثُمَّ لا یُقْصِرُونَ (۴)و قوله: ما أَنْتَ بِنِعْمَهِ رَبِّکَ بِمَجْنُونٍ. وَ إِنَّ لَکَ لَأَجْراً غَیْرَ مَمْنُونٍ (۵)و کقوله: وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ. وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ (۶)و کقوله: وَ الطُّورِ. وَ کِتابٍ مَسْطُورٍ (۷)و قوله: وَ السّابِحاتِ سَبْحاً.

فَالسّابِقاتِ سَبْقاً (۸) و قد أولع الشعراء بنحو هذا فأکثروا فیه،و منهم من اقتنع بالترصیع فیت.

۱- آیه(۲۵۷)سوره البقره.

۲- آیه(۳۴)سوره لقمان.

۳- آیه(۱۳)سوره الحجرات.

۴- آیه(۱،۲)سوره الأعراف.

۵- آیه(۲،۳)سوره القلم.

۶- آیه(۷،۸)سوره العادیات.

۷- آیه(۱،۲)سوره الطور.

۸- آیه(۳،۴)سوره النازعات.

بعض أطراف الكلام،و منهم من بنى كلامه عليه كقول ابن الرومى:

أبدانهن و ما لبس ن من الحرير معا حرير

أردانهنّ و ما مس ن من العبير معا عبير

و كقوله:

فلراهب أن لا يريب أمانه و لراغب أن لا يريث نجاحه

و مما يقارب الترصيع،ضرب يسمى«المضارعه»و ذلك كقول الخنساء:

حامى الحقيقه محمود الخليقه مه دىّ الطريقه نفّاع و ضرّار

جواب قاصيه جزّاز ناصيه عقّاد ألويه للخيل جرّار

و من البـديع باب:«التكافؤ»و ذلك قريب من«المطابقه»كقول المنصور:«لا تخرجوا من عز الطاعه إلى ذل المعصيه»و قول عمر بن ذر:

«إنا لم نجد لك إذا عصيت اللّه فينا خيرا من أن نطيع اللّه فيك».

و منه قول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم

و من البديع باب«التعطف»كقول امرئ القيس:«عود على عود على عود خلق»، و قد تقدم مثاله.

و من البديع«السلب»و الإيجاب كقول القائل:

و ننكر إن شئنا على الناس قولهم و لا ينكرون القول حين نقول

و من البديع:«الكنايه و التعريض»كقول القائل:

و أحمر كالديباج أما سماؤه فريّا،و أما أرضه فمحول

و من هذا الباب«لحن القول»:

و من ذلك«العكس و التبـديل»كقول الحسن:«إن من خوّفك لتأمن،خير ممن أمنك لتخاف»،و كقوله:«اللهم أغننى بالفقر إليك و لا تفقرنى بالاستغناء عنك».و كقوله:«بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا و لا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا»و كقول

القائل:

و إذا الدّر زان حسن وجوه كان للدرّ حسن وجهک زينه

و قد يدخل فى هذا الباب قوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ .

و من البـديع«الالتفات»فمن ذلک ما كتب إلى الحسن بن عبد اللّه العسـكرى،أخبرنا محمد بن عبد اللّه الصولى،حدثنى يحيى بن على المنجم عن أبيه عن إسحاق بن إبراهيم

ص: ٧٣

قال:قال لى الأصمعى أ تعرف التفاتات جرير؟قلت:لا.فما هى؟قال:

أ تنسى إذ تودعنا سليمى بفرع بشامه سقى البشام

و مثل ذلك لجرير (۱):

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

و معنى الالتفاتات أنه اعترض فى الكلام قوله:(سقيت الغيث)و لو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتا،و كان الكلام منتظما،و كان يقول:متى كان الخيام بذى طلوح أيتها الخيام،متى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف،كان ذلك التفاتا.

و مثله قول النابغه (۲)الجعدى:

أ لا زعمت بنى سعد بأنى ألا كذبوا كبير السن فانى

و مثله قول كثير (۳):

لو أن الباذلين و أنت منهم رأوك تعلّموا منك المطالا

و مثله قول أبى تمام:

و أنجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

و كقول جرير:

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لا زلت فى غلل و أيك ناضر

التفت إلى الحمام فدعا لها.

و مثله قول حسان (۴):

إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

و منه قول عبد اللّه بن معاويه بن عبد اللّه بن جعفر:

و أجمل إذا ما كنت لا بدّ مانعا و قد يمنع الشىء الفتى و هو مجمل

و كقول ابن مياده:

فلا صرمه يبدو و فی اليأس راحه و لا وصله يصفو لنا فنكارمه).

ص: ۷۴

۱- سبقت ترجمته.

۲- سبقت ترجمته.

۳- كثير هو:ابن عبد الرحمن،و يعرف بكثير عزه نسبه إلى حبيبته التی كان يشبب بها،و كان شيعيا، شديد التعصب لآل أبی طالب.مات سنه(۱۰۵ ه).له ترجمه فی:الأغانی ۴۶/۱۱،و خزانه الأدب ۳۸۱/۲.

۴- حسان هو:ابن ثابت،عاصر الجاهليه و الإسلام فهو من المخضرمين،و اشتهر فی الجاهليه بمدح ملوك غسان و ملوك الحيره،و اختص بعد الإسلام بمدح النبی و الدفاع عنه.مات سنه(۵۴ ه).له ترجمه فی:خزانه الأدب ۱۱۱/۱،و الشعر و الشعراء(۱۷۰).

و نظیر ذلک من القرآن ما حکی اللّه تعالی عن إبراهیم الخلیل من قوله: اُعْبُدُوا اللّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْکاً (۱)إلی قوله: فَما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ (۲)و قوله عز و جل إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِیدٍ.

وَ ما ذلِکَ عَلَی اللّهِ بِعَزِیزٍ. وَ بَرَزُوا لِلّهِ جَمِیعاً (۳) و مثله قوله: حَتّی إِذا کُنْتُمْ فِی الْفُلْکِ وَ جَرَیْنَ بِهِمْ بِرِیحٍ طَیِّبَهٍ (۴)إلی آخر الآیه.

و مثله قوله: وَ اتْلُ عَلَیْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَیْناهُ آیاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها إلی قوله: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ (۵)و مثله قوله تعالی: وَ السّارِقُ وَ السّارِقَهُ فَاقْطَعُوا أَیْدِیَهُما جَزاءً بِما کَسَبا نَکالاً مِنَ اللّهِ وَ اللّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ. فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ (۶)و منهم من لا یعد الاعتراض و الرجوع من هذا الباب،و منهم من یفرده عنه کقول زهیر:

قف بالدیار التی لم یعفها القدم نعم و غیّرها الأرواح و الدّیم

و کقول الأعرابی:

أ لیس قلیلا نظره إن نظرتها إلیک و کلّا لیس منک قلیل

و کقول ابن هرمه:

لیت حظی کلحظه العین منها و کثیر منها القلیل المهنّا

و من الرجوع قول القائل:

بکلّ تداوینا فلم یشف ما بنا علی أنّ قرب الدار خیر من البعد

و قال الأعشی:

صرمت و لم أصرمکم و کصارم أخ قد طوی کشحا و آب لیذهبا

و کقول بشار:

لی حیله فیمن ینم م و لیس فی الکذّاب حیله

من کان یخلق ما یقو ل فحیلتی فیه قلیله

و قال آخر:

و ما بی انتصار إن عدا الدهر ظالما علیّ،بلی إن کان من عندک النصره.

۱- آیه(۱۶،۱۷)سوره العنکبوت.

۲- آیه(۲۴)سوره العنکبوت.

۳- آیه(۱۹:۲۱)سوره إبراهیم.

۴- آیه(۲۲)سوره یونس.

۵- آیه(۱۷۵،۱۷۶)سوره الأعراف.

۶- آیه(۳۸،۳۹)سوره المائده.

و باب آخر من البديع،يسمى«التذييل»،و هو ضرب من«التأكيد»و هو ضد ما قدمنا ذكره من الإشاره كقول أبى داود:

إذا ما عقدنا له ذمّه شددنا العناج و عقد الكرب

و أخذه الحطيئه (۱)فقال:

فدعوا نزال فكنت أول نازل و علام أركبه إذا لم أنزل

و كقول جرير:

لقد كنت فيها يا فرزدق تابعا و ريش الذّنابى تابع للقوادم

و مثله قوله عز و جل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِى الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً إلى قوله: إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ .إلى قوله: خاطِئِينَ (۲).

و باب من البديع يسمى الاستطراد،فمن ذلك ما كتب إلى الحسن بن عبد اللّه قال:

أنشدنى أبو بكر بن دريد قال:أنشدنا أبو حاتم عن أبى عبيده،لحسان بن ثابت رضى اللّه تعالى عنه:

إن كنت كاذبه التى حدّثتنى فنجوت منجى الحرث بن هشام

ترك الأحبّه أن يقاتل دونهم و رمى برأس طمرّه و لجام

و كقول السموأل:

و إنا لقوم لا نرى القتل سبّه إذا ما رأته عامر و سلول

و كقول الآخر:

خليلىّ من كعب أعينا أخاكما على دهره،إن الكريم معين

و لا تبخلا بخل ابن قزعه إنه مخافه أن يرجى تراه حزين

و كقول الآخر:

فما ذرّ قرن الشّمس حتّى كأننا من العىّ نحكى أحمد بن هشام

و كقول زهير:

إن البخيل ملوم حيث كان و ل كنّ الجواد على علاّته هرمص.

ص: ۷۶

۱- الحطیئه هو:جرول بن أوس من بنی عبس،و من فحول الشعراء و مقدمیهم و فصحائهم،متین الشعر، و کان إذا نزل فی مدینه أو نجع دب الخوف فی أهله،و أرصدوا له العطایا خوفا من لسانه.له ترجمه فی:خزانه الأدب ۴۰۹/۱،و الجمهره(۱۵۳)،و الشعر و الشعراء(۱۸۰).

۲- آیه(۴:۸)سوره القصص.

و فیما کتب إلی الحسن بن عبد اللّه قال:أخبرنی محمد بن یحیی،حدثنی محمد بن علی الأنباری قال:سمعت البحتری یقول:أنشدنی أبو تمام لنفسه:

و سابح هطل التّعداء هتّان علی الجراء أمین غیر خوّان

أظمئ الفصوص و لم تظمأ قوائمه فجل عینک فی ریان ظمئان

و لو تراه مشیحا و الحصی قلق بین السنابک من مثنی و وحدان

أیقنت إن لم تثبت أن حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

و قال لی:ما هذا من الشعر؟قلت:لا أدری.قال:هذا المستطرد،أو قال:

الاستطراد قلت:و ما معنی ذلک،قال:یری أنه یصف الفرس،و یرید هجاء عثمان،فقال:

و قال البحتری:

ما إن یعاف قذی و لو أوردته یوما خلائق حمدویه الأحول

قال:فقیل للبحتری:إنک أخذت هذا من أبی تمام،فقال:ما یعاب علیّ أن آخذ منه و اتبعه فیما یقول.

و من هذا الباب قول أبی تمام:

صبّ الفراق علینا صبّ من کثب علیه إسحاق یوم الرّوع منتقما

و منه قول السری الرفاء:

نزع الوشاه لنا بسهم قطیعه یرمی بسهم الحین من یرمی به

لیت الزمان أصاب حب قلوبهم بقنا ابن عبد اللّه أو بحرابه

و نظیره من القرآن: أَ وَ لَمْ یَرَوْا إِلی ما خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَیْءٍ یَتَفَیَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْیَمِینِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ. وَ لِلّهِ یَسْجُدُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ دابَّهٍ وَ الْمَلائِکَهُ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ (۱)کأنه کان المراد أن یجری بالقول الأول إلی الإخبار عن أن کل شیء یسجد للّه عز و جل،و إن کان ابتداء الکلام فی أمر خاص.و من البدیع عندهم التکرار کقول الشاعر:

هلّا سألت جموع کن ده یوم ولّوا أین أینا

و کقول الآخر:

و كانت فزاره تصلى بنا فأولى فزاره أولى لها

و نظيره من القرآن كثير كقوله: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِل.

ص: ۷۷

۱- آيه(۴۸،۴۹)سوره النحل.

يُسْراً (۱) ،و كالتكرار فى قوله: قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (۲)و هذا فيه معنى زائد على التكرار؛لأنه يفيد الإخبار عن الغيب.

و من البديع عندهم ضرب من الاستثناء كقول النابغه (۳):

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

و كقول النابغه الجعدى (۴):

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فلا يبقى من المال باقيا

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

و كقول الآخر:

حليم إذا ما الحلم زيّن أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب

كقول أبى تمام (۵):

تنصّل ربّها من غير جرم إليك سوى النصيحه و الوداد

و وجوه البديع كثيره جدا،فاقتصرنا على ذكر بعضها،و نبهنا بذلك على ما لم نذكر كراهه التطويل،فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع.

و قد قدر مقدرون أنه يمكن استفاده إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها،و إن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه،و ليس كذلك عندنا؛لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرب و التعود و التصنع لها،و ذلك كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له،و أمكنه نظمه.

و الوجوه التى تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها،فليس مما يقدر البشر على التصنع له و التوصل إليه بحال.

و يبين ما قلنا:أن كثيرا من المحدثين قد تصنّع لأبواب الصنعه،حتى حشى جميع شعره منها،و اجتهد أن لا يفوته بيت إلا و هو يملؤه من الصنعه،كما صنع أبو تمام فى لاميته:

متى أنت عن ذهليّه الحى ذاهل و صدرك منها مده الدهر آهله.

۱- آيه(۵،۶)سوره الانشراح.

۲- آيه(۱)سوره الكافرون.

۳- سبقت ترجمته.

۴- سبقت ترجمته.

۵- سبقت ترجمته.

تطل طلول الدمع فی کلّ موقف و تمثل بالصبر الدیار المواثل

دوارس لم یحف الربیع ربوعها و لا مرّ فی أغفالها و هو غافل

فقد سحبت فیها السحاب ذیولها و قد اخملت بالنور تلک الخمائل

تعفین من زاد العفاه إذا انتحی علی الحیّ صرف الأزمه المتماحل

لهم سلف سمر العوالی و سامر و فهم جمال لا یعیض و جامل

لیالی أضللت العزاء و خزّلت بعقلک آرام الخدور العقائل

من الهیف لو أن الخلاخیل صیّرت لها و شحا جالت علیه الخلاخل

مها الوحش إلا أن هاتا أو أنس قنا الخطّ إلا أن تلک ذوابل

هوی کان خلسا إن من أطیب الهوی هوی جلت فی أفیائه و هو خامل

و من الأدباء من عاب علیه هذه الأبیات و نحوها علی ما قد تکلف فیها البدیع و تعمل من الصنعه،فقال:قد أذهب ماء هذا الشعر و رونقه و فائدته اشتغالا بطلب التطبیق و سائر ما جمع فیه.

و قد تعصب علیه أحمد بن عبد اللّه بن عمار،و أسرف حتی تجاوز إلی الغض من محاسنه،و لما قد أولع به من الصنعه ربما غطی علی بصره حتی یبدع فی الحسن کقوله فی قصیده له أولها:

سرت تستجیر الدمع خوف نوی غد و عاد قتادا عندها کلّ مرقد

فقال لها:

لعمری لقد حرّرت یوم لقیته لو أن القضاء وحده لم یبرّد

و کقوله:

لو لم تدارک من المجد مذ زمن بالجود و البأس کان المجد قد خرفا

فهذا من الاستعارات القبیحه،و البدیع المقیت کقوله:

تسعون ألفا کآساد الشّری نضجت أعمارهم قبل نضج التین و العنب

و کقوله:

لو لم يمت بين أطراف الرماح إذا لمات إذ لم يمت من شده الحزن

و كقوله:«خشنت عليه أخت بنى خشين».و كقوله:

ألا لا يمد الدهر كفا بسيّئ إلى مجتدى نصر فتقطع من الزند

و قال فى وصف المطايا:

لو كان كلّفها عبيد حاجه يوما لزنّى شدقما و جديلا

و كقوله:

فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربه غادرته عودا ركوبا

فهذا و ما أشبه إنما يحدث من غلوّه فى محبه الصنعه،حتى يعميه عن وجه الصواب، و ربما أسرف فى المطابق و المجانس و وجوه البديع من الاستعاره و غيرها،حتى استقلّ نظمه،و استوخم رصعه،و كان التكلف باردا،و التصرف جامدا،و ربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح،كما يتفق البارد القبيح.

فأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام،و يقل التصنع له.فإذا وقع فى كلامه،كان فى الأكثر حسنا رشيقا،و ظريفا جميلا،و تصنعه للمطابق كثير حسن،و تعمقه فى وجوه الصنعه على وجه طلب السلامه و الرغبه فى السلاسه،فلذلك يخرج سليما من العيب فى الأكثر.

و أما وقوف الألفاظ به عن تمام الحسنى،و قعود العبارات عن الغايه القصوى،فشىء لا بد منه،و أمر لا محيص عنه،و كيف و قد وقف على من هو أجل منه و أعظم قدرا فى هذه الصنعه،و أكبر فى الطبقه،كامرئ القيس،و زهير،و النابغه،و إلى يومه و نحن نبين تميز، كلامه و انحطاط درجه قولهم،و نزول طبقه نظمهم عن بديع نظم القرآن فى باب مفرد، يتصور به ذو الصنعه ما يجب تصوره،و يتحقق وجه الإعجاز فيه بمشيئه اللّه و عونه.

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه،من أنه لا سبيل إلى معرفه إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر و وصفوه فيه.و ذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العاده،و يخرج عن العرف،بل يمكن استدراكه بالتعلم و التدرب به و التصنع له،كقول الشعر،و وصف الخطب،و صناعه الرساله،و الحذق فى البلاغه.و له طريق يسلك،و وجه يقصد،و سلّم يرتقى فيه إليه،و مثال قد يقع طالبه عليه.فرب إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعرا،أو يتعود أن يكون جميع خطابه سجعا،أو صنعه متصله،لا يسقط من كلامه حرف،و قد يبادئ به ما قد تعوده،و أنت ترى أدباء زماننا يضيفون المحاسن فى جزء،و كذلك يؤلفون أنواع البارع،ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيده،أو رساله،أو خطبه،فيحشون به كلامهم.

و من كان قد تدرب و تقدم فى حفظ ذلك،اشتغل عن هذا التصنيف و لم يحتج إلى تكلف هذا التأليف،و كان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطا من باع كلامه،و موشحا بأنواع البديع ما يحاوله من قوله،و هذا طريق لا يتعذر،و باب لا يمتنع،و كل يأخذ فيه مأخذا،و يقف فيه موقفا على قدر ما معه من المعرفه،و بحسب ما يمده من الطبع.

فأما شأو نظم القرآن،فليس له مثال يحتذى إليه،و لا إمام يقتدى به،و لا يصح وقوع مثله اتفاقا؛كما يتفق للشاعر البيت النادر،و الكلمه الشارده،و المعنى الفذ الغريب،

و الشیء القلیل العجیب.و کما یلحق بکلامه بالوحشیات،و یضاف من قوله إلی الأوابد؛ لأن ما جری هذا المجری،و وقع هذا الموقع،فإنما یتفق للشاعر فی لمع من شعره، و للکاتب فی قلیل من رسائله،و للخطیب فی یسیر من خطبه،و لو کان کل شعره نادرا و مثلا- سائرا،و معنی بدیعا،و لفظا رشیقا،و کل کلامه مملوءا من رونقه،و مائه و مملأ ببهجته و حسن روائه،و لم یقع فیه المتوسط بین الکلامین،و المتردد بین الطرفین،و لا- البارد المستثقل،و الغث المستنکر،لم یبن الإعجاز فی الکلام،و لم یبن التفاوت العجیب بین النظام و النظام.

و هذه جمله تحتاج إلی تفصیل،و مبهم قد یحتاج فی بعض إلی تفسیر،و سنذکر ذلک بمشیئه اللّه و عونه،و لکن قد یمکن أن یقال فی البدیع الذی حکیناه،و أضفناه إلیهم،أن ذلک باب من أبواب البراعه،و جنس من أجناس البلاغه،و أنه لا ینفک القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم،و لا وجه من وجوه فصاحاتهم.و إذا أورد هذا المورد،و وضع هذا الموضع،کان جدیرا.

و إنما لم نطلق القول إطلاقا،لأنّا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصه، و وقفا علیها.و مضافا إلیها،و إن صح أن تکون هذه الوجوه مؤثره فی الجمله،آخذه بخطها من الحسن و البهجه متی وقعت فی الکلام علی غیر وجه التکلف المستبشع،و التعمل المستبشع.

فصل: فی کیفیه الوقوف علی إعجاز القرآن

اشاره

قد بینا أنه لا- یتهیأ لمن کان لسانه غیر العربیه،من العجم و الترک و غیرهم،أن یعرفوا إعجاز القرآن إلا أن یعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلک.فإذا عرفوا هذا بأن علموا أنهم قد تحدّوا علی أن یأتوا بمثله،و قرّعوا علی ترک الإتیان بمثله،و لم یأتوا به،تبینوا أنهم عاجزون عنه.و إذا عجز أهل ذلک اللسان،فهم عنه أعجز.

و کذلک نقول إن من کان أهل اللسان العربی إلاّ- أنه لیس یبلغ فی الفصاحه الحد الذی یتناهی إلی معرفه أسالیب الکلام،و وجوه تصرّف اللغه،و ما یعدّونه فصیحا بلیغا بارعا من غیره،فهو کالأعجمی،فی أنه لا یمکنه أن یعرف إعجاز القرآن،إلا بمثل ما بینا أن یعرف به الفارسی الذی بدأنا بذکره،و هو و من لیس من أهل اللسان سواء.

فأما من کان قد تناهی فی معرفه اللسان العربی،و وقف علی طرقها و مذاهبها،فهو یعرف القدر الذی ینتهی إلیه وسع المتکلم من الفصاحه،و یعرف ما یخرج عن الوسع، و یتجاوز حدود القدره،فلیس یخفی علیه إعجاز القرآن،کما یمیز بین جنس الخطب و الرسائل و الشعر،و کما یمیز بین الشعر الجید و الردیء،و الفصیح و البدیع،و النادر و البارع و الغریب.

و هذا کما یمیز أهل کل صناعه صنعتهم،فیعرف الصّیرفیّ من النقد ما یخفی علی غیره،و یعرف البزاز من قیمه الثوب و جودته و رداءته ما یخفی علی غیره،و إن کان یبقی مع معرفه هذا الشأن أمر آخر.و ربما اختلفوا فیه؛لأن من أهل الصنعه من یختار الکلام المتین و القول الرصین.

و منهم من یختار الکلام الذی یروق ماؤه،و تروع بهجته و رواؤه،و یسلس مأخذه، و یسلم وجهه و منفذه،و یکون قریب المتناول،غیر عویص اللفظ و لا- غامض المعنی.کما یختار قوم ما یغمض معناه و یغرب لفظه،و لا یختار ما سهل علی اللسان و سبق إلی البیان.

و روی أن عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه وصف زهیرا فقال:«کان لا یمدح الرجل

إلا بما فيه»و قال لعبد بنى الحسحاس حين أنشده:

«كفى الشيب و الإسلام للمرء ناهيا» أما إنه لو قلت مثل هذا لأجزتك عليه.

و روى أن جريرا سأل عن أحسن الشعر،فقال قوله:

إن الشقى الذى فى النار منزله و الفوز فوز الذى ينجو من النار

كأنه فضله لصدق معناه.و منهم من يختار الغلو فى قول الشعر و الإفراط فيه حتى ربما قالوا«أحسن الشعر أكذبه»كقول النابغه:

يقدّ السلوقىّ المضاعف نسجه و يوقدن بالصّفاح نار الحباحب

و أكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين فى الغلو و الاقتصاد،و فى المتانه و السلامه،و منهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعه،و ألطف تعملا،و أن يتخير الألفاظ الرشيقه للمعانى البديعه و القوافى الواقعه،كمذهب البحترى،و على ما وصفه عن بعض الكتاب:

فى نظام من البلاغه ما شك ك امرؤ أنه نظام فريد

و بديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد

حزن مستعمل الكلام اختيارا و تجنبن ظلمه التعقيد

و ركبن اللفظ القريب فأدركن به غايه المراد البعيد

و يرون أن من تعدى هذا كان سالكا مسلكا عاميا و لم يروه شاعرا و لا مصيبا.و فيما كتب الحسن بن عبد اللّه أبو أحمد العسكرى قال:أخبرنى محمد بن يحيى،قال:أخبرنى عبد اللّه بن الحسن،قال:قال لى البحترى:دعانى على بن الجهم فمضيت إليه،فأفضنا فى أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا شعر أشجع،فقال لى:إنه يخلى،و أعادها مرات،و لم أفهمها؛و أنفت أن أسأله عن معناها،فلما انصرفت فكرت فى الكلمه،و نظرت فى شعره، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسوله ليس فيها بيت رائع؛و إذا هو يريد هذا بعينه،أن يعمل الأبيات،فلا يصيب فيها ببيت نادر،كما أن الرامى إذا رمى برشقه فلم يصب بشىء قيل قد أخلى.قال:و كان على بن الجهم أحسن الناس علما بالشعر.

و قوم من أهل اللغه يميلون إلى الرصين من الكلام،الذى يجمع الغريب و المعانى، مثل أبى عمرو بن العلاء،و خلف الأحمر،و الأصمعى.و منهم من يختار الوحشى من الشعر،كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات.و قيل:إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن.

و ذكر الحسن بن عبد اللّه أنه أخبره بعض الكتاب عن على بن العباس قال:«حضرت مع البحترى مجلس عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر،و قد سئل البحترى عن أبى نواس و مسلم بن الوليد،أيهما أشعر؟فقال البحترى:أبو نواس أشعر،فقال عبيد اللّه:إن أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك،و يفضل مسلما،فقال البحترى:ليس هذا من عمل ثعلب و ذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عملهن،إنما يعلم ذلك من وقع فى سلك الشعر إلى مضايقه،و انتهى إلى ضروراته.

فقال له عبيد اللّه:وريت بك زنادى يا أبا عباده،و قد وافق حكمك حكم أخيك بشار ابن برد فى جرير و الفرزدق أيهما أشعر؟ فقال:جرير أشعرهما،فقيل له:بما ذا؟ فقال:لأن جريرا يشتد إذا شاء،و ليس كذلك الفرزدق؛لأنه يشتد أبدا.

فقيل له:فإن يونس و أبا عبيده يفضلان الفرزدق على جرير.

فقال:ليس هذا من عمل أولئك القوم.إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله.و فى الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق،و لقد ماتت النّوار امرأته فناح عليها بقول جرير:

لو لا الحياء لعادنى استعبار و لزرت قبرك و الحبيب يزار

و روى عن أبى عبيده أنه قال للفرزدق:ما لك لا تنسب كما ينسب جرير؟فغاب حولا ثم جاء فأنشد:

يا أخت ناجيه بن سامه إننى أخشى عليك بنىّ إن طلبوا دمى

و الأعدل فى الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذى جمعه فى كتاب«الحماسه» و ما اختاره من«الوحشيات»و ذلك أنه تنكر المستنكر الوحشى،و المبتذل العامى،و أتى بالواسطه.و هذه الطريقه من ينصف فى الاختيار،و لا يعدل به غرض يخص؛لأن الذين اختاروا الغريب فإنما اختاروه لغرض لهم فى تفسير ما يشتبه على غيرهم،و إظهار التقدم فى معرفته و عجز غيرهم عنه،و لم يكن قصدهم جيد الأشعار لشىء يرجع إليها فى أنفسها، و يبين هذا أن الكلام موضوع للإبانه عن الأغراض التى فى النفوس.

و إذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلاله على المراد، و أوضح فى الإبانه عن المعنى المطلوب،و لم يكن مستكره المطلع على الأذن،و مستنكر المورد على النفس،حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الإفهام،أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانه.و يجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ،مبتذل العباره،ركيك المعنى،سفسافى

الوضع،مجتنب التأسيس على غير أصل ممهد،و لا طريق موطد،و إنما فضلت العربيه على غيرها لاعتدالها فى الوضع.

و لـذلك وضع أصـلها على أكثرها بالحروف المعتدله،فقد أهملوا الألفاظ المسـتكرهه فى نظمها،و أسـقطوها من كلامهم،فجرى لسـانهم على الأعـدل،و لـذلك صـار أكثر كلامهم من الثلاثى لأنهم بـدءوا بحرف و سـكتوا على آخر،و جعلوا حرفا وصـله بين الحرفين ليتم الابتداء و الانتهاء على ذلك.

و الثنـائى أقل،و كـذلك الرباعى و الخماسـى أقل.و لو كان كله ثنائيا لتكررت الحروف،و لو كان كله رباعيا أو خماسـيا لكثرت الكلمـات.و كـذلك بنى أمر الحروف التى ابتـدئ بهـا السور التى ابتـدئت بـذكر الحروف ذكر فيهـا ثلاثه أحرف،و ما هو أربعه أحرف سورتان،و ما ابتـدئ بخمسه أحرف سورتان،فأما ما بـدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه، فمنهم من لم يجعل ذلك حرفا،و إنما جعله فعلا و اسما لشىء خاص.و من جعل ذلك حرفا قال:أراد أن يحقق الحروف مفردها و منظومها.

و لضـيق ما سوى كلام العرب،أو لخروجه عن الاعتـدال يتكرر فى بعض الألسـنه الحرف الواحـد فى الكلمه الواحـده.و الكلمات المختلفه كثيرا،كنحو تكرر الطاء و السـين فى لسان يونان،و كنحو الحروف الكثيره التى هى اسم لشـىء واحد فى لسان الترك.و لذلك لا يمكن أن ينظم من الشعر فى تلك الألسنه على الأعاريض التى تمكن فى اللغه العربيه.

و العربيه أشدها تمكنا و أشرفها تصرفا و أعدلها،و لذلك جعلت حليه لنظم القرآن،و علق بها الإعجاز،و صارت دلاله فى النبوه.

و إذا كان الكلام إنما يفيد الإبانه عن الأغراض القائمه فى النفوس التى لا يمكن التوصل إليها بأنفسها،و هى محتاجه إلى ما يعبر عنها.

فما كان أقرب فى تصويرها و أظهر فى كشـفها للفهم الغائب عنها،و كان مع ذلك أحكم فى الإبانه عن المراد،و أشد تحقيقا فى الإيضاح عن الطلب،و أعجب فى وضعه، و أرشق فى تصرفه،و أبرع فى نظمه،كان أولى و أحق بأن يكون شريفا.

و قد شـبهوا النطق بالخط،و الخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقه و صحه و لطف،حتى يجوز الفضيله و يجمع الكمال.و شبهوا الخط و النطق بالتصوير.و قد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صوّر لك الباكى المتضاحك،و الباكى الحزين،و الضاحك المتباكى، و الضاحـك المستبشـر.و كما أنه يحتاج إلى لطف يـد فى تصوير هـذه الأمثله،فكـذلك يحتاج إلى لطف فى اللسان و الطبع فى تصوير ما فى النفس للغير،و فى جمله الكلام إلى ما تقصر

عبارته و تفضل معانيه.و فى ما تقصر المعانى و تفضل العبارات،و فيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر،ثم ينقسم ما يقع وفقا إلى أنه قد يفيدها على تفصيل.و كل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شريفا و غريبا لطيفا.و قد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا و مصنوعا متعسفا،و قد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقا، و بهيجا نضيرا،و قد يتفق أحد الأمرين دون الآخر،و قد يتفق أن يسلم الكلام و المعنى من غير رشاقه و لا نضاره فى واحد منهما.

إنما يميز من يميز،و يعرف من يعرف،و الحكم فى ذلك صعب شديد،و الفضل فيه شأو بعيد.و قد قل من يميز أصناف الكلام؛فقد حكى عن طبقه أبى عبيده،و خلف الأحمر و غيرهم،فى زمانهم أنهم قالوا:ذهب من يعرف نقد الشعر.

و قد بينا قبل هذا اختلاف القوم فى الاختيار،و ما يجب أن يجمعوا عليه و يرجعوا عند التحقيق إليه.و كلام المقتدر نمط،و كلام المتوسع باب،و كلام المطبوع له طريق،و كلام المتكلف له منهاج،و الكلام المصنوع المطبوع له باب.و متى تقدم الإنسان فى هذه الصنعه لم تخف عليه هذه الوجوه،و لم تشتبه عنده هذه الطرق.فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه، و قدر كل كلام فى نفسه،و يحله محله،و يعتقد فيه ما هو عليه،و يحكم فيه بما يستحق من الحكم،و إن كان المتكلم يجود فى شىء دون شىء عرف ذلك منه،و إن كان يعم إحسانه عرف،أ لا ترى أن منهم من يجود فى المدح دون الهجو،و منهم من يجود فى الهجو وحده،و منهم من يجود فى المدح و السخف،و منهم من يجود فى الأوصاف.

و العالم لا يشذ عنه مراتب هؤلاء،و لا يذهب عليه أقدارهم،حتى أنه إذا عرف له طريقه شاعر فى قصائد معدوده فأنشد غيرها من شعر لم يشك أن ذلك من نسجه،و لم يرتب فى أنه من نظمه.كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه،حيث رآه من بين الخطوط المختلفه،و حتى يميز بين رسائل كاتب و بين رسائل غيره.

و كذلك أمر الخطب فإن اشتبه البعض،فهو لاشتباه الطريقين و تماثل الصورتين.كما قد يشتبه شعر أبى تمام بشعر البحترى فى القليل الذى يترك أبو تمام فيه التصنع،و يقصد فيه التسهل و يسلك الطريقه الكتابيه،و يتوجه فى تقريب الألفاظ و ترك تعويض المعانى،و يتفق له مثل بهجه أشعار البحترى و ألفاظه.

و لا يخفى على أحد يميز هذه الصنعه،سبك أبى نواس،و لا نسج ابن الرومى،من نسج البحترى،و ينبهه ديباجه شعر البحترى،و كثره مائه،و بديع رونقه،و بهجه كلامه،إلا فيما يسترسل فيه،فيشتبه بشعر ابن الرومى،و يحركه ما لشعر أبى نواس من الحلاوه و الرقه

و الرشاقه و السلاسه،حتی یفرق بینه و بین شعر مسلم.و کذلک یمیز بین شعر الأعشی،فی التصرّف و بین شعر امرئ القیس،و بین شعر النابغه و زهیر،و بین شعر جریر و الأخطل، و البعیث و الفرزدق.و کل له منهج معروف،و طریق مألوف.

و لا یخفی علیه فی زماننا الفضل بین رسائل عبد الحمید و طبقته،و بین طبقه من بعده،حتی أنه لا یشتبه علیه ما بین رسائل ابن العمید و بین رسائل أهل عصره،و من بعده ممن برع فی صنعه الرسائل،و تقدم فی شأوها حتی جمع فیها بین طرق المتقدمین،و طریقه المتأخرین،حتی خلص لنفسه طریقه،و أنشأ لنفسه منهاجا،فسلک تاره طریقه الجاحظ، و تاره طریقه السجع،و تاره طریقه الأصل،و برع فی ذلک باقتداره،و تقدم بحذقه،و لکنه لا یخفی مع ذلک علی أهل الصنعه طریقه من طریق غیره.و إن کان قد یشتبه البعض و یدق القلیل و تغمض الأطراف و تشذ النواحی.و قد یتقارب سبک نفر من شعراء عصره،و تتدانی رسائل کتاب دهر،حتی تشتبه اشتباها شدیدا،و تتماثل تماثلا قریبا،فیغمض الفصل.

و قد یتشاکل الفرع و الأصل و ذلک فیما لا یتعذر إدراک أمده،و لا یتصعب طلاب شأوه،و لا یتمنع بلوغ غایته،و الوصول إلی نهایته،لأن الذی یتفق مع الفضل بین أهل الزمان إذا تفاضلوا و تفاوتوا فی مضمار فصل قریب و أمر یسیر.و کذلک لا یخفی علیهم معرفه سارق الألفاظ،و سارق المعانی،و لا من یخترعها،و لا من یسلم بها،و لا من یجاهر بالأخذ ممن یکاتم به،و لا من یخترع الکلام اختراعا،و یبتدهه ابتداها،ممن یروّی فیه، و یجیل الفکر فی تنقیحه،و یصیر علیه حتی یتخلص له ما یرید،و حتی یتکرر نظره فیه.

قال أبو عبیده:سمعت أبا عمرو یقول:زهیر و الحطیئه و اشباههما عبید الشعر،لأنهم نقحوه و لم یذهبوا فیه مذهب المطبوعین؛و کان زهیر یسمّی کبر شعره«الحولیات المنقحه».و قال عدی بن الرقاع:

و قصیده قد بت أجمع بینها حتی أقوّم میلها و سنادها

نظر المثقّف فی کعوب قناته حتی یقیم ثقافه منادها

و کقول سوید بن کراع:

أبیت بأبواب القوافی کأنما أصادی بها سربا من الوحش نزّعا

و منهم من یعرف بالبدیهه وحده الخاطر،و نفاد الطبع و سرعه النظم،یرتجل القول ارتجالا،و یطبعه عفوا صفوا.فلا یقعد به عن قوم قد تعبوا و کدوا أنفسهم،و جاهدوا خواطرهم.

و کذلک لا یخفی علیهم الکلام العلوی و اللفظ الملوکی،کما لا یخفی علیهم الکلام

العامی و اللفظ السوقی ثم تراهم ینزلون الکلام تنزیلا،و یعطونه کیف تصرف حقوقه، و یعرفون مراتبه فلا یخفی علیهم ما یختص به کل فاضل تقدم فی وجه من وجوه النظم،من الوجه الذی لا یشارکه فیه غیره،و لا یساهمه سواه.

أ لا تراهم وصفوا زهیرا بأنه أمدحهم،و أشدهم أثر شعر.قاله أبو عبیده،و روی أن الفرزدق انتحل بیتا من شعر جریر،و قال:هذا یشبه شعری.فکان هؤلاء لا یخفی علیهم ما قد نسبناه إلیهم من المعرفه بهذا الشأن،و هذا کما یعلم البزازون هذا الدیباج عمل بتستر، و هذا لم یعمل بتستر،و أن هذا من صنعه فلان دون فلان،و من نسج فلان دون فلان،حتی لا یخفی علیه و إن کان قد یخفی علی غیره.ثم إنهم یعلمون أیضا من له سمت بنفسه، و رفت برأسه،و من یقتدی فی الألفاظ أو فی المعانی أو فیهما بغیره،و یجعل سواه قدوه له.

و من یلم فی الأحوال بمذهب غیره و یأتی فی الأحیان بمخترعه.

و هذه أمور ممهده عند العلماء،و أسباب معروفه عند الأدباء.و کما یقولون إن البحتری یغیر علی أبی تمام إغاره.و یأخذ منه صریحا و إشاره،و یستأنس بالأخذ منه، بخلاف ما یستأنس بالأخذ من غیره،و یألف اتباعه کما لا یألف اتباع سواه.

و کما کان أبو تمام یلم بأبی نواس و مسلم،و کما یعلم أن بعض الشعراء یأخذ من کل أحد لا یتحاشی،و یؤلف ما یقوله من فرق شتی.و ما الذی نفع المتنبی جحوده الأخذ، و إنکاره معرفه الطائیین.و أهل الصنعه یدلون علی کل حرف أخذه منهما جهارا،أو ألم بهما فیه سرارا؟! و أما ما لم یأخذ عن الغیر،و لکن سلک النمط،و راعی النهج،فهم یعرفونه، و یقولون هذا أشبه به من التمره بالتمره،و أقرب إلیه من الماء إلی الماء،و لیس بینهما إلا کما بین اللیله و اللیله.فإذا تباینا و ذهب أحدهما فی غیر مذهب صاحبه،و سلک فی غیر جانبه،قیل بینهما ما بین السماء و الأرض،و ما بین النجم و النون،و ما بین المشرق و المغرب.

و إنما أطلت علیک و وضعت جمیعه بین یدیک،لتعلم أن أهل الصنعه یعرفون دقیق هذا الشأن و جلیله،و غامضه و قریبه،و بعیده و معوجه و مستقیمه.فکیف یخفی علیهم الجنس الذی هو بین الناس متداول،و هو قریب متناول،من أمر یخرج عن أجناس کلامهم،و یبعد عما هو فی عرفهم،و یفوت مواقع قدرهم؟ و إذا اشتبه ذلک،فإنما یشتبه علی ناقص فی الصنعه،أو قاصر عن معرفه طرق الکلام الذی یتصرفون فیه،و یدیرونه بینهم،و لا یتجاوزنه،فکلامهم سبل مضبوطه،و طرق

معروفه محصوره.و هذا كما يشتبه على من يدّعى الشعر من أهل زماننا،و العلم بهذا الشأن،فيدّعى أنه أشعر من البحترى،و يتوهم أنه أدق مسلكا من أبى نواس و أحسن طريقا من مسلم.و أنت تعلم أنهما متباعدان،و تتحقق أنهما لا يجتمعان،و لعل أحدهما إنما يلحظ عباره صاحبه،و يطالع ضياء نجمه،و يراعى حقوق جناحه،و هو راكد فى موضعه، و لا يضر البحترى ظنه،و لا يلحقه بشأوه و همه.فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحه القرآن،و موقع بلاغته،و عجيب براعته،فما عليك منه،إنما يخبر عن نقصه و يدل على عجزه،و يبين عن جهله،و يصرح بسخافه فهمه،و ركاكه عقله.

و إنما قدمنا ما قدمناه فى هذا الفصل لتعرف أن ما ادعيناه من معرفه البليغ بعلو شأن القرآن،و عجيب نظمه،و بديع تأليفه أمر لا يجوز غيره و لا يحتمل سواه،و لا يشتبه على ذى بصيره و لا يخيل عند أخى معرفه كما يعرف الفضل بين طباع الشعراء من أهل الجاهليه، و بين المخضرمين و بين المحدثين و يميز بين من يجرى على شاكله طبعه و غريزه نفسه، و بين من يشتغل بالتكلف و التصنع،و بين ما يصير التكلف له كالمطبوع،و بين من كان مطبوعه كالتعمل المصنوع.هيهات هيهات،هذا أمر و إن دق فله قوم يقبلونه علما،و أهل يحيطون به فهما،و يعرفونه إليك إن شئت،و يصورونه لديك إن أردت،و يجلونه على خواطرك إن أحببت،و يعرضونه لفطنتك إن حاولت،و قد قال القائل:

للحرب و الضرب أقوام لها خلقوا و للدّواوين كتّاب و حسّاب

و لكل عمل رجال،و لكل صنعه ناس،و فى كل فرقه الجاهل و العالم و المتوسط.

و لكن قد قلّ من يميز فى هذا الفن خاصه،و ذهب من يحصل فى هذا الشأن إلا قليلا،فإن كنت ممن هو بالصفه التى وصفناها من التناهى فى معرفه الفصاحات،و التحقيق بمجارى البلاغات،فإنما يكفيك التأمل و يغنيك التصور،و إن كنت فى الصنعه مرمدا،و فى المعرفه بها متوسطا،فلا بد لك من التقليد،و لا غنى بك عن التسليم.إن الناقص فى هذه الصنعه كالخارج عنها،و الشادى فيها كالبائن منها.فإن أراد أن يقرب عليه أمرا،و يفسح له طريقا، و يفتح له بابا،ليعرف به إعجاز القرآن.فإنا نضع بين يديه الأمثله،و نعرض عليه الأساليب، و نصور له صوره كل قبيل من النظم و النثر،و نحضر له من كل فن من القول شيئا يتأمله حق تأمله و يراعيه حق مراعاته،فيستدل استدلال العالم،و يستدرك استدراك الناقد،و يقطع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبيه،الطالع عن الإلهيه،الجامع بين الحكم و الحكم.

و الإخبار عن الغيوب و الغائبات،و المتضمن لمصالح الدنيا و الدين.و المستوعب لجليه اليقين و المعانى المخترعه فى تأسيس أصل الشريعه و فروعها بالألفاظ الشريفه،على تفننها و تصرفها.و تعمد إلى شىء من الشعر المجمع عليه فتبين وجه النقص فيه،و تدل على

انحطاط رتبته،و وقوع أبواب الخلل فيه حتى إذا تأمل ذلك و تأمل ما نذكره من تفصيل إعجاز القرآن و فصاحته و عجيب براعته،انكشف له و اتضح،و ثبت ما وصفناه لديه و وضح.و ليعرف حدود البلاغه،و موقع البيان و البراعه،و وجه التقدم فى الفصاحه و ذكر الجاحظ فى كتاب البيان و التبيين أن الفارسى سئل فقيل له:ما البلاغه؟فقال:

معرفه الفصل من الوصل.

و سئل اليونانى عنها فقال:تصحيح الأقسام و اختيار الكلام.

و سئل الرومى عنها فقال:حسن الاقتضاب عند البداهه و الغزاره يوم الإطاله.

و سئل الهندى عنها فقال:وضوح الدلاله و انتهاز الفرصه و حسن الإشاره،و قال مره:

التماس حسن الموقع و المعرفه بساحات القول،و قله الخرق بما التبس من المعانى،أو غمض و شرد من اللفظ و تعذر.و زينته أن تكون الشمائل موزونه،و الألفاظ معدله، و اللهجه نقيه،و أن لا يكلم سيد الأمه بكلام الأمه،و يكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقه،و لا يدقق المعانى كل التدقيق،و لا ينقح الألفاظ كل التنقيح،و يصفيها كل التصفيه، و يهذبها بغايه التهذيب.

و أما«البراعه»ففيما يذكر أهل اللغه،الحذق بطريقه الكلام و تجويده.و قد يوصف بذلك كل متقدم فى قول أو صناعه.

و أما«الفصاحه»فقد اختلفوا فيها منهم من عبر عن معناها بأنه ما كان جزل اللفظ حسن المعنى،و قد قيل معناها الاقتدار على الإبانه عن المعانى الكامنه فى النفوس،على عبارات جليه،و معان نقيه بهيه.

و الذى يصور عندك ما ضمنا تصويره،و يحصل عندك معرفته إذ كنت فى صنعه الأدب متوسطا،و فى علم العربيه متبينا،أن تنظر أولا فى نظم القرآن،ثم فى شىء من كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم فتعرف الفصل بين النظمين،و الفرق بين الكلامين،فإن تبين لك الفصل و وقفت على جليه الأمور و حقيقه الفرق،فقد أدركت الغرض،و صادفت المقصد.

و إن لم تفهم الفرق و لم تقع على الفصل،فلا بد لك من التقليد،و علمت أنك من جمله العامه،و أن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان.

خطبه للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم:روى طلحه بن عبيد اللّه،قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم يخطب على منبره يقول:«ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا،و بادروا الأعمال الصالحه قبل أن تشغلوا،و صلوا الذى بينكم و بين ربكم بكثره ذكركم له،و كثره الصدقه فى السّر و العلانيه ترزقوا و تؤجروا و تنصروا.و اعلموا أن اللّه عز و جل قد افترض عليكم الجمعه فى

مقامی هذا،فی عامی هذا،فی شهری هذا،إلی یوم القیامه،حیاتی و من بعد موتی.فمن ترکها و له إمام،فلا جمع اللّه له شمله،و لا بارک اللّه فی أمره،ألا- و لا حجّ له.ألا و لا صوم له.ألا و لا صدقه له.ألا و لا برّ له.ألا و لا یؤم أعرابی مهاجرا.ألا و لا یؤم فاجر مؤمنا.

إلا أن یقهره سلطان یخاف سیفه أو سوطه» (۱).

خطبه له صلّی اللّه علیه و سلّم:«أیها الناس،إن لکم معالم فانتهوا إلی معالمکم.و إن لکم نهایه فانتهوا إلی نهایتکم.إن المؤمن بین مخافتین؛بین أجل قد مضی لا یدری ما اللّه صانع فیه،و بین أجل قد بقی لا یدری ما اللّه تعالی قاض علیه فیه.فلیأخذ العبد لنفسه من نفسه،و من دنیاه لآخرته،و من الشبیبه قبل الکبر،و من الحیاه قبل الموت،و الذی نفس محمد بیده ما بعد الموت من مستعتب،و لا بعد الدنیا دار إلا الجنه أو النار» (۲).

خطبه له صلّی اللّه علیه و سلّم:«إن الحمد للّه أحمد و أستعینه.نعوذ باللّه من شرور أنفسنا،و سیئات أعمالنا.من یهد اللّه فلا مضل له.و من یضلل فلا هادی له.و أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شریک له.إن أحسن الحدیث کتاب اللّه،قد أفلح من زینه اللّه فی قلبه،و أدخله فی الإسلام بعد الکفر،و اختاره علی ما سواه من أحادیث الناس إنه أصدق الحدیث و أبلغه.أحبوا من أحب اللّه و أحبّوا اللّه من کل قلوبکم.و لا تملوا کلام اللّه و ذکره.و لا تقسوا علیه قلوبکم.

اعبدوا اللّه و لا- تشرکوا به شیئا،اتقوا اللّه حق تقاته و صدقوا صالح ما تعملون بأفواهکم، و تحابوا بروح اللّه بینکم.و السلام علیکم و رحمه اللّه» (۳).

لیبلّغ الشاهد الغائب..

خطبه له صلّی اللّه علیه و سلّم فی أیام التشریق:قال بعد حمد اللّه:«أیها الناس،هل تدرون فی أی شهر أنتم،و فی أی یوم أنتم،و فی أی بلد أنتم،قالوا:فی یوم حرام،و شهر حرام،و بلد حرام (۴).

قال:ألا فإن دماءکم و أموالکم و أعراضکم علیکم حرام،کحرمه یومکم هذا،فی شهرکم هذا،فی بلدکم هذا،إلی یوم تلقونه» (۵).

۱- الطبرانی ۲۷۹/۱،و الجوامع(۹۵۸۹)،و الکنز(۱۰۱۷۰).

۲- القرطبی ۱۱۶/۱۸.

۳- مسلم فی:الجمعه(۴۶)،و القرطبی ۲۱۸/۱۱،و دلائل النبوه ۲۴۷/۲ و ۵۲۴.

۴- الدرّ ۲۳۴/۳.

۵- أحمد ۳۳۷/۴ و ۳۷/۵،و ۷۲ و الطبرانی ۳۱۲/۱۸،و إرواء الغلیل ۴۳/۱،و قال حفظه اللّه: صحیح.

ثم قال:«اسمعوا منی تعیشوا (۱).ألا لا تظالموا ثلاثا.ألا إنه لا یحل مال امرئ مسلم إلا بطیب نفس منه (۲).ألا إن کل دم و مال و مأثره کانت فی الجاهلیه تحت قدمی هذه (۳).

ألا و إن أول دم وضع دم ربیعه بن الحرث بن عبد المطلب کان مسترضعا فی بنی لیث فقتلته هذیل (۴).ألا و إن کل ربا کان فی الجاهلیه موضوع (۵).ألا ـ و إن اللّه تعالی قضی أن أول ربا یوضع ربا عمی العباس (۶). فَلَکُمْ رُؤُسُ أَمْوالِکُمْ لا ـ تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (۷).ألا و إن الزمان قد استدار کهیئته یوم خلق اللّه السموات و الأرض (۸)،منها أربعه حرم. ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ،فَلا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ (۹)،ألا لا ترجعوا بعدی کفارا،یضرب بعضکم رقاب بعض (۱۰).ألا و إن الشیطان قد یئس أن یعبده المصلّون..و لکن فی التحریش بینکم (۱۱).

اتقوا اللّه فی النساء فإنهن عندکم عوان لا ـ یملکن لأنفسهن شیئا،و إن لهن علیکم حقا.و لکم علیهن حق (۱۲).ألا لا یوطئن فرشکم أحد غیرکم.فإن خفتم نشوزهن فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِی الْمَضاجِعِ (۱۳)،و اضربوهن ضربا غیر مبرح.و لهن رزقهن و کسوتهن بالمعروف.فإنما أخذتموهن بأمانه اللّه تعالی.و استحللتم فروجهن بکلمه اللّه (۱۴).ألا و من۷.

۱- أحمد ۷۲/۵،و الدرّ ۲۳۴/۳،و البدایه ۲۰۱/۵.

۲- أحمد ۷۲/۵.

۳- أحمد ۷۳/۵.

۴- الدر المنثور ۲۳۴/۳.

۵- أحمد ۷۳/۵،و الدرّ ۲۳۴/۳،و الطبری ۷۲/۳.

۶- أحمد ۷۳/۵،و الدرّ ۲۳۵/۳.

۷- آیه(۲۷۹)سوره البقره.

۸- البخاری ۸۳/۶ و ۱۲۹/۷،و مسلم فی:القیامه(۱۲۹)و أبو داود(۱۹۴۷)،و أحمد ۳۷/۵ و ۷۳.

۹- آیه(۳۶)سوره التوبه.

۱۰- البخاری ۴۱/۱،و ۲۱۶/۲ و ۲۲۳/۵ و ۲۲۴ و ۱۳۰/۷ و ۴۸/۸ و ۱۹۸ و ۳/۹ و ۶۳ و ۶۴ و ۱۶۳، و مسلم فی:الإیمان(۱۱۹ و ۱۲۰)،و أبو داود(۴۶۸۶)،و الترمذی(۲۱۹۳)،و النسائی ۱۲۶/۷ و ۱۲۷،و ابن ماجه(۳۹۴۲ و ۳۹۴۳)،و أحمد ۲۳۰/۱ و ۴۰۲ و ۱۰۴/۲.

۱۱- أحمد ۳۵۴/۳،و الاتحاف ۲۸۲/۷.

۱۲- مشکل الآثار ۲۱۲/۳.

۱۳- آیه(۳۴)سوره النساء.

۱۴- مسلم فی:الحج(۱۴۷)،و الترمذی(۱۱۶۳)،و أبو داود(۱۹۰۵)،و ابن ماجه(۳۰۷۴)،و أحمد ۷۳/۵،و الدارمی ۴۸/۲،و الأرواء ۲۲۷/۷.

كانت عنده أمانه فليؤدها إلى من ائتمنه عليها» (۱).ثم بسط يده فقال:«ألا هل بلغت.ألا هل بلغت.ليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أبلغ من سامع» (۲).

خطبته صلّى اللّه عليه و سلّم يوم فتح مكه:وقف على باب الكعبه ثم قال:«لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له.صدق اللّه وعده.و نصر عبده.و هزم الأحزاب وحده (۳).ألا كل مأثره أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين،إلا سدانه البيت،و سقايه الحاج (۴).ألا و قتل الخطأ العمد بالسوط و العصا فيه الديه مغلظه.منها أربعه خلفه فى بطونها أولادها.يا معشر قريش،إن اللّه قد أذهب عنكم نخوه الجاهليه و تعظمها بالآباء (۵).الناس من آدم،و آدم خلق من تراب.ثم تلا هذه الآيه يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى (۶)الآيه.يا معشر قريش.أو يا أهل مكه.ما ترون أنى فاعل بكم؟قالوا:خيرا،أخ كريم و ابن أخ كريم.

قال:فاذهبوا فأنتم الطلقاء».

من كان همه الآخره جمع اللّه له شمله..

خطبته صلّى اللّه عليه و سلّم بالخيف:روى زيد بن ثابت أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم خطب بالخيف من منى،فقال:

«نضّر اللّه عبدا سمع مقالتى فوعاها.ثم أداها إلى من لم يسمعها.فرب حامل فقه لا فقه له.

و رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه (۷).ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن؛إخلاص العمل للّه،و النصيحه لأولى الأمر،و لزوم الجماعه.إن دعوتهم تكون من ورائه (۸).و من كان همه الآخره،جمع اللّه له شمله،و جعل غناه فى قلبه.و أتته الدنيا و هى راغمه (۹).و من كان همه الدنيا فرق اللّه أمره،و جعل فقره بين عينيه،و لم يأته من الدنيا إلا ما كتب له».

خطبه له صلّى اللّه عليه و سلّم:رواها أبو سعيد الخدرى،رضى اللّه عنه.خطب بعد العصر فقال:«ألا إن الدنيا خضره حلوه.إلا و إن اللّه مستخلفكم فيها،فناظر كيف تعملون،فاتقوا الدنيا

۱- أحمد ۷۳/۵،و الدرّ المنثور ۲۳۵/۳.

۲- البخارى ۲۶/۱ و ۳۷،و مسلم فى الحج(۴۴۶)،و الترمذى(۸۰۹)،و النسائى فى:الحج(۱۱۰)، و ابن ماجه(۲۳۳ و ۲۳۴)،و أحمد ۴۵/۵،و الدارمى ۶۸/۲.

۳- أحمد ۴۱۰/۳.

۴- سبق تخريجه.

۵- الاتحاف ۴۱۹/۸،و الدرّ المنثور ۹۸/۶.

۶- آيه(۱۳)سوره الحجرات.

۷- ابن ماجه(۲۳۱،۲۳۰)،و أحمد ۸۰/۴.

۸- أحمد ۲۲۵/۳ و ۸۰/۴ و ۸۲،و الدارمى ۷۵/۱.

٩- الترمذى(٢٤٦٥)،و الصحيحه(٩٤٩).

و اتقوا النساء (۱).ألا- لا يمنعن رجلا مخافه الناس أن يقول الحق إذ علمه» (۲).قال:و لم يزل يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمره على أطراف السعف،فقال:«إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا».

كتاب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى ملك فارس:«من محمد رسول اللّه إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهدى،و آمن باللّه و رسوله،و شهد أن لا- إله إلا- اللّه وحده لا شريك له، و أن محمدا عبده و رسوله.و أدعوك بدعاء اللّه،فإنى أنا رسول اللّه إلى الناس كافه،لأنذر من كان حيا،و يحق القول على الكافرين فأسلم تسلم».

كتاب له صلّى اللّه عليه و سلّم إلى النجاشى:«من محمد رسول اللّه إلى النجاشى ملك الحبشه؛سلم أنت.فإنى أحمد إليك اللّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن.و أشهد أن عيسى ابن مريم روح اللّه و كلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبه.فحملت بعيسى فحملته من روحه، و نفخه كما خلق آدم من طين بيده و نفخه.و إنى أدعوك إلى اللّه وحده لا شريك له، و الموالاه على طاعته.و أن تتبعنى و تؤمن بالذى جاءنى:و إنى أدعوكم و جنودك إلى اللّه تعالى.فقد بلغت و نصحت،فاقبلوا نصحى،و السلام على من اتبع الهدى» (۳).

**فلا تدخلها بغير هذا.! نسخه عهد الصلح مع قريش عام الحديبيه:«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،سهيل بن عمرو:اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين،يأمن فيهن الناس،و يكفّ بعضهم عن بعض.على أنه من أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم بغير إذن وليّه ردّه عليهم.و من جاء قريشا ممن مع رسول اللّه لم يردّوه عليه.و أن بيننا عيبه مكفوفه و أنه لا إسلال و لا إغلال.و أنه من أحبّ أن يدخل فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و عقده دخل فيه.و من أحب أن يدخل فى عهد قريش و عقدهم دخل فيه.و أنك ترجع عنّا عامك هذا،فلا تدخل علينا مكه،فإذا كان عاما قابلا،خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك،فأقمت بها ثلاثا.و أنّ معك سلاح الراكب،و السيوف فى الركب،فلا تدخلها بغير هذا».

و لا أطوّل عليك.و أقتصر على ما ألقيته إليك،فإن كان لك فى الصنعه حظ،أو كان لك فى هذا المعنى حس.أو كنت تضرب فى الأدب بسهم،أو فى العربيه بقسط،و إن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب،فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعه القرآن،۱.

۱- مسلم ص(۲۰۹۸)،و الترمذى(۲۱۹۱)،و ابن ماجه(۴۰۰۰)،و أحمد ۳۶۴/۶.

۲- أحمد ۴۷/۳،و البيهقى ۹۰/۱۰،و ابن حبان(۱۸۴۲)،و ابن عساكر ۱۱۱/۶.

۳- سيره ابن هشام ۳۱۷/۱.

و بين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم فى خطبه و رسائله،و ما عساك تسمعه من كلامه، و يتساقط إليك من ألفاظه.و أقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا،أو أمدا مديدا،و ميدانا واسعا،و مكانا شاسعا،فإن قلت:لعله أن يكون تعمل للقرآن،و تصنع لنظمه،و شبه عليه الشيطان ذلك من خبثه،فتثبت فى نفسك،و ارجع إلى عقلك،و اجمع لبك،و تيقن أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام،و المحافل الكبار،و المواسم الضخام،و لا يتجوز فيها و لا يستهان بها.و الرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه،و يشمر لها عن جد و اجتهاد،فكيف يقع بها الإخلال،و كيف يتعرض للتفريط،فستعلم لا محاله أن نظم القرآن من الأمر الإلهى،و أن كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم من الأمر النبوى.فإذا أردت زياده فى التبيّن، و تقدما فى التعرف،و إشرافا على الجليه،و فوزا بمحكم القضيه،فتأمل-هداك اللّه-ما ننسخه لك من خطب الصحابه و البلغاء،لتعلم أن نسجها و نسج ما نقلنا من خطب النبى صلّى اللّه عليه و سلّم واحد،و سبكها سبك غير مختلف.و إنما يقع بين كلامه و كلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين،و بين شعر الشاعرين.و ذلك أمر له مقدار معروف،و حدّ ينتهى إليه مضبوط.

فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج،و لجملته طريق،و تبينت ما يمكن فيه التفاوت،نظرت أخرى،و تأملته مره ثانيه،فتراعى بعد موقعه،و عالى محله و موضعه، و حكمت بواجب من اليقين،و ثلج الصدر بأصل الدين.

خطبه لأبى بكر الصديق رضى اللّه عنه:قام خطيبا فحمد اللّه و أثنى عليه،ثم قال:«أما بعد فإنى وليت أمركم،و لست بخيركم.و لكن نزل القرآن و سن النبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم،و علّمنا فعلمنا.

و اعلموا أن أكيس الكيس التقى.و أن أحمق الحمق الفجور.و أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه.و أن أضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق (۱).

إيها الناس،إنما أنا متبع،و لست بمبتدع،فإن أحسنت فأعينونى.و إن زغت فقومونى».

عهد أبى بكر الصديق إلى عمر رضى اللّه عنه:«بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر،خليفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،آخر عهده بالدنيا،و أول عهده بالآخره،ساعه يؤمن فيها الكافر،و يتّقى فيها الفاجر (۲).

إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب،فإن برّ و عدل،فذاك ظنى به،و رأيى فيه.).

۱- تاريخ الخلفاء ص(۶۹).

۲- تاريخ الخلفاء ص(۸۲).

و إن جار و بدّل،فلا علم لی بالغیب.و الخیر أردت لکم،و لکل امرئ ما اکتسب من الإثم وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ » (۱).

و فی حدیث عبد الرحمن بن عوف-رحمه اللّه علیه-قال:دخلت علی أبی بکر الصدیق رضی اللّه عنه،فی علته التی مات فیها،فقلت:أراک بارئا یا خلیفه رسول اللّه، فقال:أما إنی علی ذلک لشدید الوجع،و ما لقیت منکم یا معشر المهاجرین أشد علیّ من وجعی.

إنی ولیت أموورکم خیرکم فی نفسی،فکلکم ورم أنفه أن یکون له الأمر من دونه.

و اللّه لتتخذن نضائد الدیباج،و ستور الحریر.و لتألمنّ النوم علی الصوف الأذربی،کما یألم أحدکم النوم علی حسک السعدان.و الذی نفسی بیده لأن یقدّم أحدکم فتضرب رقبته فی غیر حد،خیر له من أن یخوض غمرات الدنیا.

یا هادی الطریق جرت إنما هو و اللّه الفجر أو البحر.

قال:فقلت:خفّض علیک یا خلیفه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم فإن هذا یهیضک إلی ما بک.فو اللّه ما زلت صالحا مصلحا،لا تأسی علی شیء فاتک من أمر الدنیا؛و لقد تخلیت بالأمر وحدک،فما رأیت إلا خیرا.

و له خطب و مقامات مشهوره اقتصرنا منها علی ما نقلنا منها قصه السقیفه:

نسخه کتاب:کتب أبو عبیده بن الجراح.و معاذ بن جبل إلی عمر بن الخطاب رضی اللّه عنهم؛سلام علیک فإنا نحمد إلیک اللّه الذی لا إله إلا هو.أما بعد:فإنا عهدناک و أمر نفسک لک مهم،فأصبحت و قد ولیت أمر هذه الأمه،أحمرها و أسودها.یجلس بین یدیک الصدیق و العدو،و الشریف و الوضیع،و لکل حصته من العدل.فانظر کیف أنت یا عمر عند ذلک،فإنا نحذرک یوما تعنو فیه الوجوه،و تحب فیه القلوب،و إنا کنا نتحدث أن هذه الأمه ترجع فی آخر زمانها أن یکون إخوان العلانیه أعداء السریره و إنا نعوذ باللّه أن تنزل کتابنا سوی المنزل الذی نزل من قلوبنا.فإنا إنما کتبنا إلیک نصیحه و السلام.

فکتب إلیهما:«من عمر بن الخطاب إلی عبیده بن الجراح،و معاذ بن جبل.سلام علیکما،فإنی أحمد إلیکما اللّه الذی لا إله إلا هو.أما بعد:فقد جاءنی کتابکما تزعمان أنه بلغکما أنی ولیت أمر هذه الأمه،أحمرها و أسودها،یجلس بین یدی الصدیق و العدو، و الشریف و الوضیع.و کتبتما أن انظر کیف أنت یا عمر عند ذلک و أنه لا حول و لا قوه لعمرء.

۱- آیه(۲۲۷)سوره الشعراء.

عنـد ذلـک إلاـ بـاللّه.و کتبتمـا تحـذرانی مـا حـذرت به الأمم قبلنا.و قـدیما کان اختلاف اللیل و النهار بآجال الناس،یقربان کل بعید،و یبلیان کل جدید،و یأتیان بکل موعود،حتی یصـیر الناس إلی منازلهم من الجنه أو النار.ثم توفّی کل نفس بما کسـبت.إن اللّه سریع الحساب.

و کتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمه یرجع فی آخر زمانها،أن یکون إخوان العلانیه أعداء السریره،و لستم بذاک.و لیس هذا ذلک الزمـان،و لکن زمـان ذلـک حین تظهر الرغبه و الرهبه،فتکون رغبه بعض الناس إلی إصـلاح دینهم،و رهبه بعض الناس إصـلاح دنیـاهم!! و کتبتمـا تعـوذاننی بـاللّه أن أنزل کتابکمـا منی سـوی المنزل الـذی نزل مـن قلوبکمـا.و إنمـا کتبتمـا نصـیحه لی،و قد صدقتکما فتعهدانی منکما بکتاب و لا غنی بی عنکما».

عهـد مـن عهـود عمر رضـی اللّه عنـه:«بسـم اللّه الرحمـن الرحیم:من عبـد اللّه،عمر بن الخطـاب أمیر المـؤمنین إلی عبـد اللّه بن قیس.سلام علیک.

أما بعد:فإن القضاء فریضه محکمه،و سنه متبعه،فافهم إذا أدلی إلیک،فإنه لا ینفع تکلّم بحق لا نفاذ له.

آس بین الناس فی وجهک و عدلک و مجلسک،حتی لا یطمع شریف فی حیفک،و لا ییأس ضعیف من عدلک.

البینه علی من ادعی،و الیمین علی من أنکر،و الصـلح جائز بین المسلمین إلا صلحا أحل حراما،أو حرم حلالا.و لا یمنعنّک قضاء قضـیته بالأـمس فراجعت فیه عقلک،و هـدیت لرشـدک،أن ترجع إلی الحق،فإن الحق قـدیم،و مراجعه الحق خیر من التمادی فی الباطل.

الفهم،الفهم،فیما تلجلج فی صدرک مما لیس فی کتاب و لا سنه.

ثم اعرف الأشـباه و الأمثـال،و قس الأمور عنـد ذلک.و اعمـد إلی أشـبهها بالحق لمن ادعی حقا غائبا،أو بینه أمرا ینتهی إلیه.فإن أحضـر بینه أخذت له بحقه،و لا اسـتحللت علیه القضـیه فإنه أنفی للشک،و أجلی للعمی.المسـلمون عدول بعضهم علی بعض إلا مجلودا فی حد أو مجربا علیه شهاده زور،أو ظنینا فی ولاء أو نسب.فإن اللّه تولی منکم السرائر، و درأ بالإیمان و البینات.و إیاک و الغلـق و الضـجر و التـأذی بـالخصوم،و التنکر عنـد الخصومـات،فـإن الحـق فی مـواطن الحـق یعظـم اللّه بـه الأـجر،و یحسن به الـذخر.فمن صـحت نیته و أقبـل علی نفسه کفـاه اللّه مـا بینه و بین النـاس.و من تخلق للناس بما یعلم اللّه أنه لیس من نفسه،شانه اللّه،فما ظنک بثواب اللّه عز و جل فی عاجل رزقه،و خزائن رحمته، و السلام».

و من کلام عثمان بن عفان رضی اللّه عنه؛خطبه له رضی اللّه عنه قال:«إن لکل شیء

آفه،و إن لكل نعمه عاهه.فى هذا الدين عيابون،ظنانون،يظهرون لكم ما تحبون، و يسرون ما تكرهون.يقولون لكم،و تقولون،طغام مثل النعام،يتبعون أول ناعق أحب مواردهم إليهم النازح.لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثر مما نقمتم علىّ،و لكنه و قمكم و قمعكم و زجركم زجر النعام المخزمه.و اللّه إنى لأقرب ناصرا،و أعز نفرا،و أقمن إن قلتم هلم أن تجاب دعوتى من عمر.هل تفقدون من حقوقكم شيئا؛فما بالى لا أفعل فى الحق ما أشاء.إذا فلم كنت إماما»! كتابه إلى على حين حضر رضى اللّه عنهما:«أما بعد:فقد بلغ السيل الزبى،و جاوز الحزام الطبين،و طمع فىّ من لا يدفع عن نفسه.فإذا أتاك كتابى هذا،فأقبل إلىّ؛علىّ كنت أم لى.

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل و إلا فأدركنى و لما أمزّق»

و من كلام على رضى اللّه عنه؛قال:لما قبض أبو بكر رضى اللّه عنه،ارتجت المدينه بالبكاء كيوم قبض النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.«و جاء على باكيا مسترجعا و هو يقول:اليوم انقطعت خلافه النبوه.حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر فقال:رحمك اللّه أبا بكر كنت إلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،و أنسه،و ثقته،و موضع سره،كنت أول القوم إسلاما و أخلصهم إيمانا و أشهدهم يقينا و أخوفهم للّه و أعظمهم غناء فى دين اللّه،و أحوطهم على رسوله.و آمنهم على الإسلام،و آمنهم على أصحابه،أحسنهم صحبه،و أكثرهم مناقب،و أفضلهم سوابق و أرفعهم درجه،و أقربهم وسيله،و أقربهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم سننا و هديا و رحمه و فضلا.

و أشرفهم منزله،و أكرمهم عليه و أوثقهم عنده.جزاك اللّه عن الإسلام و عن رسول خيرا.

كنت عنده بمنزله السمع و البصر.صدقت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم،حين كذبه الناس،فسمّاك اللّه فى تنزيله صديقا.فقال: وَ الَّذِى جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ (۱)واسيته حين بخلوا، و قمت معه عند المكاره حين عنه قعدوا،و صحبته فى الشده أكرم الصّحبه،ثانى اثنين، و صاحبه فى الغار،و المنزل عليه السّكينه و الوقار.و رفيقه فى الهجره،و خليفته فى دين اللّه و فى أمته أحسن الخلافه حين ارتدّ الناس فنهضت حين وهن أصحابك،و برزت حين استكانوا،و قويت حين ضعفوا و قمت بالأمر حين فشلوا،و نطقت حين تتعتعوا.و مضيت بنوره إذ وقفوا،و اتبعوك فهدوا و كنت أصوبهم منطقا،و أطولهم صمتا،و أبلغهم قولا، و أكثرهم رأيا و أشجعهم نفسا،و أعرفهم بالأمور و أشرفهم عملا.

كنت للدين يعسوبا أولا،حين نفر عنه الناس،و آخرا حين أقبلوا،و كنت للمؤمنين أبار.

۱- آيه(۳۲)سوره الزمر.

رحیما إذ صاروا علیک عیالا-فحملت أثقال ما ضعفوا،و رعیت ما أهملوا.و حفظت ما أضاعوا،شمرت إذ خنعوا،و علوت إذ هلعوا،و صبرت إذ جزعوا.و أدرکت أوتار ما طلبوا،و راجعوا رشدهم برأیک،فظفروا و نالوا بک ما لم یحتسبوا،و کنت کما قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم:أمنّ الناس علیه فی صحبتک،و ذات یدک.و کنت کما قال:ضعیفا فی بدنک،قویا فی أمر اللّه،متواضعا فی نفسک،عظیما عند اللّه،جلیلا فی أعین الناس،کبیرا فی أنفسهم.

لم یکن لأحد فیک مغمز،و لا لأحد مطمع،و لا لمخلوق عندک هواده.الضعیف الذلیل عندک قوی عزیز،حتی تأخذ له بحقه.و القوی العزیز عندک ضعیف ذلیل حتی تأخذ منه الحق.

القریب و البعید عندک سواء.أقرب الناس إلیک أطوعهم للّه شأنک الحق و الصدق و الرفق.قولک حکم.و أمرک حزم،و رأیک علم و عزم.فأبلغت و قد نهج السبیل،و سهل العسیر،و أطفأت النیران،و اعتدل بک الدین،و قوی الإیمان،و ظهر أمر اللّه و لو کره الکافرون.

و اتعبت من بعدک إتعابا شدیدا.و فزت بالجد فوزا مبینا.فجللت عن البکاء، و عظمت رزیتک فی السماء،و هدت مصیبتک الأنام.فإنا للّه و إنا إلیه راجعون.رضینا عن اللّه قضاءه.و سلمنا له أمره.فو اللّه لن یصاب المسلمون بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلّم بمثلک أبدا.

فالحقک اللّه بنبیه،و لا حرمنا أجرک،و لا أضلنا بعدک».

و سکت الناس حتی انقضی کلامه،ثم بکوا حتی علت أصواتهم.

خطبه أخری لعلی رضی اللّه عنه:«أما بعد:فإن الدنیا قد أدبرت و أذنت بوداع،و إن الآخره قد أقبلت و أشرفت باطلاع،و إن المضمار الیوم و غدا السباق.ألا و إنکم فی أیام مهل،و من ورائه أجل.

فمن أخلص فی أیام أمله فقد فاز.و من قصر فی أیام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله،و ضره أمله.

ألا- فاعملوا للّه فی الرغبه،کما تعملون له فی الرهبه.ألا و إنی لم أر کالجنه،نام طالبها،و لا کالنار،نام هاربها.ألا و إنه من لم ینفعه الحق یضره الباطل.و من لم یستقم به الهدی یجر به الضلال.ألا و إنکم قد أمرتم بالظّعن،و دللتم علی الزاد.ألا و إنّ أخوف ما أخاف علیکم الهوی و طول الأمل».

و خطب فقال بعد حمد اللّه:«أیها الناس؛اتقوا اللّه،فما خلق امرؤ عبثا،فیلهو.و لا أهمل سدی،فیلغو.ما دنیاه التی خسّست إلیه بخلف من الآخره التی قبحها سوء النظر

إليه.و ما الخسيس الذى ظفر به من الدنيا بأعلى همته،كالآخر الذى ظفر به من الآخره من سهمته».

و كتب على رضى اللّه عنه إلى عبد اللّه بن عباس رحمه اللّه و هو بالبصره:«أما بعد:

فإن المرء يسرّ بدرك ما لم يكن ليحرمه.و يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه.فليكن سرورك بما قدمت:من أجر أو منطق.و ليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك.

و انظر ما فاتك من الدنيا،فلا تكثر عليه جزعا،و ما نلته،فلا تنعم به فرحا.و ليكن همّك لما بعد الموت».

كلام لابن عباس رضى اللّه عنهما:قال عتبه بن أبى سفيان لابن عباس:ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبى موسى،يوم الحكمين؟ قال:«منعه و اللّه من ذلك حاجز القدر،و قصر المدّه،و محنه الابتلاء.

أما و اللّه لو بعثنى مكانه لاعترضت له فى مدارج نفسه،ناقضا لما أبرم،و مبرما لما نقض.أسف إذا طار،و أطير إذا أسفّ.و لكن مضى قدر،و بقى أسف.و مع يومنا غد.

و الآخره خير لأمير المؤمن من الأولى».

خطبه لعبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه:«أصدق الحديث كتاب اللّه.و أوثق العرا كلمه التقوى.خير الملل ملّه إبراهيم.و أحسن السنن سنه النبى صلّى اللّه عليه و سلّم.

خير الأمور أوساطها.و شر الأمور محدثاتها.ما قل و كفى،خير مما كثر و ألهى.

خير الغنى غنى النفس.و خير ما ألقى فى القلب اليقين.

الخمر جماع الإثم.النساء حباله الشيطان.الشباب شعبه من الجنون.حب الكفايه مفتاح العجزه.

من الناس من لا يأتى الجماعه إلا دبرا.و لا يذكر اللّه إلا هجرا،أعظم الخطايا اللسان الكذوب.سباب المؤمن فسق.و قتاله كفر.و أكل لحمه معصيه.من يتألّ على اللّه يكذبه من يغفر يغفر له.

مكتوب فى ديوان المحسنين:من عفا عفى عنه.الشقى من شقى فى بطن أمه و السعيد من وعظ بغيره.الأمور بعواقبها.ملاك العمل خواتيمه.أشرف الموت الشهاده.

من يعرف البلاء يصبر عليه.و من لا يعرف البلاء ينكره».

خطبه لمعاويه بن أبى سفيان رضى اللّه عنه:قال الراوى لما حضرته الوفاه قال لمولى له:من بالباب؟ فقال:نفر من قريش يتباشرون بموتك.فقال:ويحك،و لم؟ثم أذن للناس فحمد

اللّه فأوجز ثم قال:

«أيها الناس،إنا قد أصبحنا فى دهر عنود،و زمن شديد.يعدّ فيه المحسن مسيئا.

و يزداد الظالم فيه عتوا.لا ننتفع بما علمنا.و لا نسأل عما جهلنا.و لا نتخوف من قارعه حتى تحل بنا.فالناس على أربعه أصناف:

منهم:من لا يمنعه الفساد فى الأرض إلا مهانه نفسه؛و كلال حدّه،و نضيض وفره.

و منهم:المسلط لسيفه،و المجلب برجله،و المعلن بشره،قد أشرط نفسه،و أوبق دينه،لحطام ينتهزه،أو مقنب يقوده،أو منبر يقرعه و بئس المتجر أن تراها لنفسك ثمنا، و ممّا لك عند اللّه عوضا.

و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخره،و لا يطلب الآخره بعمل الدنيا،قد طامن من شخصه،و قارب من خطوه،و شمّر من ثوبه،و زخرف نفسه للأمانه،و اتخذ ستر اللّه ذريعه إلى المعصيه،و منهم من أقعده عن الملك ضئوله فى نفسه،و انقطاع سببه،فقصرته الحال، فتحلى باسم القناعه،و تزين بلباس الزهاد،و ليس من ذلك فى مراح و لا مغدى.

و بقى رجال أغض أبصارهم ذكر المرجع،و أراق دموعهم خوف المحشر.فهم بين شديد ناد،و خائف منقاد،و ساكت مكعوم،وداع مخلص،و موجع ثكلان،قد أخملتهم التّقيّه،و شملتهم الذله.فهم فى بحر أجاج.أفواههم داميه،و قلوبهم قريحه،قد وعظوا حتى ملوا،و قهروا حتى ذلوا،و قتلوا حتى قلوا.

فلتكن الدنيا فى عيونكم أقل من متانه القرظ،و قراضه الجلم،و اتعظوا بمن كان قبلكم أن يتعظ بكم من بعدكم.فارفضوها ذميمه،فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم».

خطبه لعمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه:«أيها الناس،إنكم ميتون،ثم إنكم مبعوثون.ثم إنكم محاسبين.فلعمرى لئن كنتم صادقين لقد قصرتم.و لئن كنتم كاذبين لقد هلكتم.يا أيها الناس،إنه من يقدر له رزق برأس جبل،أو بحضيض أرض يأته،فاجملوا فى الطلب».

خطبه للحجاج بن يوسف:حمد اللّه و أثنى عليه ثم قال:«يا أهل العراق،و يا أهل الشقاق و النفاق،و مساوئ الأخلاق،و بنى اللّكيعه،و عبيد العصا.و أولاد الإماء،و الفقع بالقرقر.إنى سمعت تكبيرا لا يراد به اللّه.و إنما يراد به الشيطان.و إنما مثلى و مثلكم ما قاله ابن براقه الهمدانى:

و كنت إذا قوم غزنى غزوتهم فهل أنا فى ذا بالهمذان ظالم

متى تجمع القلب الذكى و صارما و أنفا حميّا تجتنبك المظالم

أما و اللّه لا تقرع عصا إلا جعلتها كأمس الدابر».

خطبه لقس بن ساعده الأيادى:أخبرنى محمد بن على الأنصارى بن محمد بن عامر قال:حدثنا على بن إبراهيم،حدثنا عبد اللّه بن داود بن عبد الرحمن العمرى قال:حدثنا الأنصارى على بن محمد الحنظلى من ولد حنظله الغسيل،حدثنا جعفر بن محمد،عن محمد بن حسان،عن محمد بن حجاج اللخمى،عن مجالد،عن الشعبى،عن ابن عباس قال:

و لما وفد وفد عبد القيس على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم قال:أيكم يعرف قس بن ساعده؟ قالوا:كلنا نعرفه يا رسول اللّه.قال:لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير لهن أحمر فقال:

«أيها الناس اجتمعوا،و إذا اجتمعتم فاسمعوا،و إذا سمعتم فعوا،و إذا وعيتم فقولوا، و إذا قلتم فاصدقوا.من عاش مات،و من مات فات.و كل ما هو آت آت.

أما بعد:فإن فى السماء لخبرا،و إن فى الأرض لعبرا.مهاد موضوع،و سقف مرفوع،و نجوم تمور،و بحار لا تغور.أقسم باللّه قس قسما حقا لا- كاذبا فيه،و لا آثما.لئن كان فى الأرض رضا ليكونن سخط.إن اللّه تعالى دينا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه.و قد أتاكم أوانه و لحقتكم مدته.ما لى أرى الناس يذهبون فلا- يرجعون.أرضوا بالمقام فأقاموا،أم تركوا فناموا»؟ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم:أيكم يروى شعره؟فأنشدوه:

فى الذاهبين الأوّلى ن من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

و رأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر و الأكابر

لا يرجع الماضى إل ى و لا من الباقين غابر

أيقنت أنى لا محا له حيث صار القوم صائر (١)

أخبرنى الحسن بن عبد اللّه بن سعيد،حدثنا على بن الحسين بن إسماعيل،حدثنا محمد بن زكريا،حدثنا عبد اللّه بن الضحاك،عن هشام عن أبيه،أن وفدا من إياد قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فسألهم عن حال قس بن ساعده،فقالوا:قال قس:

يا ناعى الموت و الأموات فى جدث عليهم من بقايا بزّهم حرق

دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم كما ينبّه من نوماته الصّعق٢.

۱- دلائل النبوه ۲۸/۱،و البدایه و النهایه ۲۳۱/۲ و الطبرانی ۸۸/۱۲.

منهم عراه و منهم فی ثیابهم منها الجدید و منها الأورق الخلق

مطر و نبات،و آباء و أمهات و ذاهب و آت،و آیات فی إثر آیات،و أموات بعد أموات، ضوء و ظلام،و لیال و أیام،و غنی و فقیر.و شقی و سعید،و محسن و مسیء.أین الأرباب الفعله..؟لیصلحن کل عامل عمله.کلا،بل هو اللّه واحد،لیس بمولود و لا والد،أعاد و أبدی.و إلیه المآب غدا.

أما بعد یا معشر أیاد أین ثمود و عاد..؟و أین الآباء؟و الأجداد؟أین الحسن الذی لم یشکر؟أین الظلم الذی لم ینقم؟کلا و رب الکعبه لیعودن ما بدا.و لئن ذهب یوم لیعودن یوم.قال:و هو قس بن ساعده بن حذاق بن ذهل بن أیاد بن نزار أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلیه،و أول من توکأ علی عصا،و أول من تکلم بأما بعد.

خطبه لأبی طالب:«الحمد للّه الذی جعلنا من ذریه إبراهیم،و زرع إسماعیل،و جعل لنا بلدا حراما،و بیتا محجوجا.و جعلنا الحکام علی الناس،و أن محمدا بن عبد اللّه،ابن أخی،لا یوازن به فتی من قریش إلا رجح به،برکه،و فضلا،و عدلا،و مجدا،و نبلا.

و إن کان فی المال مقلا،فإن المال عاریه مسترجعه،و ظل زائل.و له فی خدیجه بنت خویلد رغبه.و لها فیه مثل ذلک.و ما أردتم من الصداق فعلیّ».

قد نسخت لک جملا من کلام الصدر الأول و محاورتهم و خطبهم.و أحیلک فیما لم أنسخ علی التواریخ و الکتب المصنفه فی هذا الشأن فتأمل ذلک،و سائر ما هو مسطر من الأخبار المأثوره،عن السلف و أهل البیان و اللسان،و الفصاحه و الفطن،و الألفاظ المنثوره،و الأمثال المنقوله عنهم.

ثم انظر بسکون طائر،و خفض جناح،و تفریغ لب،و جمع عقل فی ذلک،فسیقع لک الفضل بین کلام الناس،و بین کلام رب العالمین.و تعلم أن نظم القرآن یخالف نظم کلام الآدمیین.و تعلم الحد الذی یتفاوت بین کلام البلیغ و البلیغ،و الخطیب و الخطیب، و الشاعر و الشاعر،و بین نظم القرآن جمله.

فإن خیل إلیک أو شبه علیک،و ظننت أنه یحتاج أن یوازن بین نظم الشعر و القرآن؛ لأن الشعر أفصح من الخطب،و أبرع من الرسائل،و أدق مسلکا من جمیع أصناف المحاورات،و لذلک قالوا له صلّی اللّه علیه و سلّم:هو شاعر،أو ساحر،و سوّل إلیک الشیطان أن الشعر أبلغ و أعجب،و أرق و أبرع،و أحسن الکلام و أبدع،فهذا فصل فیه نظر بین المتکلمین، و کلام بین المحققین.

باب:أيهما أبلغ..الشعر أم النثر؟!

أسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب و الحذق بهذه الصناعه،مع تقدمه فى الكلام،يقول:إن الكلام المنثور يتأتى فيه من الفصاحه و البلاغه ما لا يتأتى فى الشعر،لأن الشعر يضيّق نطاق الكلام،و يمنع القول من انتهائه،و يصده عن تصرفه على سننه.

و حضره من يتقدم فى صنعه الكلام،فراجعه فى ذلك،و ذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحه.و أبدع إذا تضمن أسباب البلاغه.و يشهد عندى للقول الأخير أن معظم براعه كلام العرب فى الشعر.و لا تجد فى منثور قولهم ما تجد فى منظومه.و إن كان قد أحدثت البراعه فى الرسائل على حد لم يعهد فى سالف أيام العرب.

و لم ينقل من دواوينهم و أخبارهم.و هو و إن ضيق نطاق القول،فهو يجمع حواشيه،و يضم أطرافه و نواحيه.فهو إذا تهذب فى بابه و وفى له جميع أسبابه،لم يقاربه من كلام الآدميين كلام.و لم يعارضه من خطابهم خطاب.

و قد حكى عن المتنبى أنه كان ينظر فى المصحف فدخل إليه بعض أصحابه فأنكر نظره فيه لما كان رآه عليه من سوء اعتقاده،فقال له:هذا المكى على فصاحته كان مفحما.

فإذا صحت هذه الحكايه عنه فى إلحاده،عرف بها أنه كان يعتقد أن الفصاحه فى قول الشعر أبلغ،و إذا كانت الفصاحه فى قول الشعر أو لم تكن،و بينا أن نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم،و يتقدم فى بلاغته على كل قول،بما يتضح به الأمر اتضاح الشمس،و يتبين به بيان الصبح،وقفت على جليه هذا الشأن.فانظر فيما نعرضه عليك،ما نعرضه.و نصور بفهمك ما نصوره.ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن.و تأمل ما نرتبه،ينكشف لك الحق، و إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك،فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيده متفق على كبر محلها، و صحه نظمها،و جوده بلاغتها و معانيها،و إجماعهم على إبداع صاحبها فيها،مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعه،و المعروفين بالحذق فى البراعه،فنوقفك على مواضع خللها،و على تفاوت نظمها،و على اختلاف فصولها،و على كثره فضولها،و على شده تعسفها،و بعض تكلفها،و ما نجمع من كلام رفيع،يقرن بينه و بين كلام وضيع،و بين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى،و غير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها،و نبيّن ترتيبها و تنزيلها.

فأما كلام مسيلمه الكذاب و ما زعم أنه قرآن،فهو أخس من أن نشتغل به،و أسخف من أن نفكر فيه.و إنما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ و ليتبصر الناظر.فإنه على سخافته قد أضل،و على ركاكته قد أذل.و ميدان الجهل واسع،و ممن نظر فيما نقلناه عنه،و فهم

موضع جهله،كان جديرا أن يحمد اللّه على ما رزقه من فهم،و آتاه من علم.

فمما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء(و الليل الأطخم،و الذئب الأدلم،و الجذع الأزلم،ما انتهكت أسيد من محرم)و ذلك قد ذكر فى خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه.

و قال أيضا:(و الليل الدامس و الذئب الهامس ما قطعت أسيد من رطب و لا يابس).

و كان يقول:(و الشاه و ألوانها و أعجبها السوداء،و ألبانها و الشاه السوداء،و اللبن الأبيض إنه لعجب محض،و قد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون).

و كان يقول:(ضفدع بنت ضفدعين،نقى ما تنقين أعلاك فى الماء و أسفلك فى الطين،و لا الشارب تمنعين،و لا الماء تكدرين،لنا نصف الأرض،و لقريش نصفها،و لكن قريشا قوم يعتدون).

و كان يقول:(و المبتديات زرعا،و الحاصدات حصدا،و الذاريات قمحا، و الطاحنات طحنا،و الخابزات خبزا،و الثاردات ثردا،و اللاقمات لقما،أهاله و سمنا.لقد فضلتم على أهل الوبر.و ما سبقكم أهل المدر.ريفكم فامنعوه،و المعتر فآووه،و الباغى فناوئوه).

و قالت سجاح بنت الحارث بن عقبان و كانت تتنبأ،فاجتمع مسيلمه معها فقالت له:

ما أوحى إليك؟فقال:(أ لم تر كيف فعل ربك بالحبلى،أخرج منها نسمه تسعى.من بين صفاق وحشا).

و قالت:فما بعد ذلك..؟قال:أوحى إلى(أن اللّه خلق النساء أفواجا،و جعل الرجال لهن أزواجا،فتولج فيهن قعسا إيلاجا،ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا،فينتجن لنا سخالا نتاجا).فقالت:أشهد أنك نبى.

و لم ننقل كل ما ذكر من سخفه كراهه التثقيل.و روى أنه سأل أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه أقواما قدموا عليه من بنى حنيفه عن هذه الألفاظ فحكوا بعض ما نقلناه.

فقال أبو بكر:«سبحان اللّه و يحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن آل.فأين كان يذهب بكم؟!»و معنى قوله:لم يخرج عن آل،أى عن ربوبيه.و من كان له عقل لم يشتبه عليه سخف هذا الكلام.

فنرجع الآن إلى ما ضمناه من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها و تقدم أصحابها فى صناعتهم،ليتبين لك تفاوت أنواع الخطاب،و تباعد مواقع البلاغه.و تستدل على مواضع البراعه.

و أنت لا تشک فی جوده شعر امرئ القیس،و لا ترتاب فی براعته،و لا تتوقف فی فصاحته.و تعلم أنه قد أبدع فی طرق الشعر أمورا اتبع فیها من ذکر الدیار،و الوقوف علیها، إلی ما یتصل بذلک من البدیع الذی أبدعه،و التشبیه الذی أحدثه،و التلمیح الذی یوجد فی شعره،و التصرف الکثیر الذی یصادفه فی قوله،و الوجوه التی ینقسم إلیها کلامه،من صناعه و طبع،و سلاسه و علو،و متانه ورقه،و أسباب تحمد،و أمور تؤثر و تمدح.

و قد تری الأدباء أولا یوازنون بشعره فلانا و فلانا.و یضمون أشعارهم إلی شعره، حتی ربما وازنوا بین شعر من لقبناه،و بین شعره فی أشیاء لطیفه و أمور بدیعه.و ربما فضلوهم،علیه أو سووا بینهم و بینه،أو قربوا موضع تقدمهم علیه،و برزوه بین أیدیهم.

و لما اختاروا قصیدته فی السبعیات أضافوا إلیها أمثالها،و قرنوا بها نظائرها.ثم تراهم یقولون لفلان لامیه مثلها.ثم تری أنفس الشعراء تتشوق إلی معارضته و تساویه فی طریقته.و ربما عثرت فی وجهه علی أشیاء کثیره و تقدمت علیه فی أسباب عجیبه.

و إذا جاءوا إلی تعداد محاسن شعره،کان أمرا محصورا و شیئا معروفا،أنت تجد من ذلک البدیع،أو أحسن منه فی شعر غیره،و تشاهد مثل ذلک البارع فی کلام سواه،و تنظر إلی المحدثین کیف توغلوا إلی حیازه المحاسن منهم من جمع رصانه الکلام إلی سلاسته، و متانته إلی عذوبته،و الإصابه فی معناه إلی تحسین بهجته،حتی أن منهم من إن قصر عنه فی بعض،تقدم علیه فی بعض،لأن الجنس الذی یرمون إلیه و الغرض الذی یتواردون علیه،مما للآدمی فیه مجال،و للبشری فیه مثال.فکل یضرب فیه بسهم،و یفوز بقدح.ثم قد تتفاوت السهام تفاوتا،و تتباین تباینا.و قد تتقارب تقاربا علی حسب مشارکتهم فی الصنائع،و مساهمتهم فی الحرف.

و نظم القرآن جنس ممیز و أسلوب متخصص و قبیل عن النظیر متخلص.فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه،فتأمل ما نقوله فی هذا الفصل لامرئ القیس فی أجود أشعاره.و ما نبین لک من عواره علی التفصیل و ذلک قوله:

قفا نبک من ذکری حبیب و منزل بسقط اللوی بین الدخول فحومل

فتوضح فالمقراه لم یعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمأل

الذین یتعصبون له،أو یدعون محاسن الشعر،یقولون:هذا من البدیع لأنه وقف، و استوقف و بکی و استبکی،و ذکر العهد و المنزل و الحبیب.و توجع و استوجع،کله فی بیت و نحو ذلک.

و إنما بیّنا هذا لئلا یقع لک ذهابنا عن مواضع المحاسن،إن کانت.و لا غفلتنا عن

مواضع الصناعه،إن وجدت.تأمل-أرشدك اللّه-و انظر هداك اللّه:أنت تعلم أنه ليس فى البيتين شىء قد سبق فى ميدانه شاعرا،و لا تقدّم به صانعا.و فى لفظه و معناه خلل.

فأول ذلك:أنه استوقف من يبكى لذكر الحبيب،و ذكراه لا يقتضى بكاء الخلىّ.

و إنما يصحّ طلب الإسعاد فى مثل هذا على أن يبكى لبكائه،و يرق لصديقه فى شده برحائه.

فأما أن يبكى على حبيب صديقه،و عشيق رفيقه،فأمر محال.

فإن كان المطلوب وقوفه و بكاءه أيضا عاشقا،صح الكلام،و فسد المعنى.من وجه آخر؛لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه،و أن يدعو غيره إلى التغازل عليه،و التواجد معه فيه.

ثم إن فى البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع،و تسميه هذه الأماكن من «الدّخول»و«حومل»،«و توضح»و«المقراه»،و«سقط اللّوى».و قد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعض هذا.و هذا التطويل إذا لم يفد،كان ضربا من العى.

ثم إن قوله:«لم يعف رسمها»،ذكر الأصمعى من محاسنه أنه باق،فنحن نحزن على مشاهدته،فلو عفا لاسترحنا.

و هذا بأن يكون من مساويه أولى؛لأنه إن كان صادق الود فلا يزيده عفاء الرسوم إلا جده عهد،و شده وجد.و إنما فزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائده،خشيه أن يعاب عليه،فيقال:أىّ فائده لأن يعرّفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه؟و أى معنى لهذا الحشو؟ فذكر ما يمكن أن يذكر،و لكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل.ثم فى هذه الكلمه خلل آخر لأنه عقّب البيت بأن قال:

«فهل عند رسم دارس من معول».

فذكر أبو عبيده أنه رجع فأكذب نفسه،كما قال زهير:

قف بالديار التى لم يعفها القدم نعم و غيّرها الأرواح و الدّيم

و قال غيره:أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أثره كله،و بالثانى أنه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكلامان.و ليس فى هذا انتصار؛لأن معنى عفا و درس واحد،فإذا قال لم يعف رسمها ثم قال قد عفا،فهو تناقض لا محاله.و اعتذار أبى عبيده أقرب لو صح.و لكن لم يرد هذا القول مورد الاستدراك،كما قاله زهير فهو إلى الخلل أقرب،و قوله:لما نسجتها، كان ينبغى أن يقول لما نسجها،و لكنه تعسف فجعل ما فى تأويل التأنيث لأنها فى معنى الريح،و الأولى التذكير دون التأنيث.و ضروره الشعر قد دلته على هذا التعسف،و قوله لم يعف رسمها كان الأولى أن يقول لم يعف رسمه،لأنه ذكر المنزل.

فإن كان رد ذلك إلى هذه البقاع،و الأماكن التى المنزل واقع بينها،فذلك خلل؛لأنه إنما يريد صفه المنزل الذى نزله حبيبه بعفائه،أو بأنه لم يعف دون ما جاوره.و إن أراد بالمنزل الدار حتى أنث،فذلك أيضا خلل.و لو سلم من هذا كله،و مما نكره ذكره كراهيه التطويل،لم يشك فى أن شعر أهل زماننا لا يقصر عن البيتين بل يزيد عليهما و يفضلهما.ثم قال:

وقوفا بها صحبى علىّ مطيّهم يقولون لا تهلك أسى و تحمّل

و إن شفائى عبره مهراقه فهل عند رسم دارس من معوّل

و ليس فى البيتين أيضا معنى بديع،و لا لفظ حسن كالأولين.

و البيت الأول منهما متعلق بقوله:«قفا نبك»فكأنه قال:قفا وقوف صحبى بها على مطيهم.أوقفا حال وقوف صحبى.و قوله بها متأخر فى المعنى و إن تقدم فى اللفظ.ففى ذلك تكلف و خروج عن اعتدال الكلام.

و البيت الثانى مختل من جهه أنه قد جعل الدمع فى اعتقاده شافيا كافيا.فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيله أخرى،و تحمّل و معوّل عند الرسوم؟و لو أراد أن يحسن الكلام، لوجب أن يدلّ على أن الدمع لا يشفيه لشده ما به من الحزن.ثم يسائل هل عند الربع من حيله أخرى؟و قوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها و جارتها أمّ الرّباب بمأسل

إذ قامتا تضوّع المسك منهما نسيم الصبا يأتى بريّا القرنفل

أنت لا تشك فى أن البيت الأول قليل الفائده،ليس له مع ذلك بهجه،فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ،و إن كان منزوع المعنى.و أما البيت الثانى فوجه التكلف فيه قوله:

إذا قامتا تضوع المسك منهما.و لو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال.

فأما فى حال القيام فقط فذلك تقصير،ثم فيه خلل آخر لأنه بعد أن شبه عرفها بالمسك،شبه ذلك بنسيم القرنفل،و ذكر ذلك بعد ذكر المسك نقص.و قوله نسيم الصبا فى تقدير المنقطع عن المصراع الأول لم يصله به وصل مثله.و قوله:

ففاضت دموع العين منى صبابه على النحر حتى بلّ دمعى محملى

ألا رب يوم لك منهن صالح و لا سيما يوم بداره جلجل

قوله:ففاضت دموع العين،ثم استعانته بقوله منى،استعانه ضعيفه عند المتأخرين فى الصنعه.و هو حشو غير مليح،و لا بديع.و قوله:على النحر،حشو آخر،لأن قوله:بلّ دمعى محملى يغنى عنه،و يدل عليه.و ليس بحشو حسن.ثم قوله:حتى بلّ دمعى محملى

إعاده ذکره الدمع حشو آخر.و کان یکفیه أن یقول:حتی بلّت محملی،فاحتاج لإقامه الوزن إلی هذا کله.

ثم تقدیره أنه قد أفرط فی إفاضه الدمع حتی بلّ محمله،تفریط منه و تقصیر.و لو کان أبدع لکان یقول:حتی بلّ دمعی مغانیهم و عراصهم.و یشبه أن یکون غرضه إقامه الوزن و القافیه،لأن الدمع یبعد أن یبلّ المحمل.و إنما یقطر من الواقف و القاعد علی الأرض أو علی الذیل.و إن بله فلقلته و أنه لا یقطر.و أنت تجد فی شعر الخبزرزیّ ما هو أحسن من هذا البیت و أمتن و أعجب منه.

و البیت الثانی خال من المحاسن و البدیع،خال من المعنی.و لیس له لفظ یروق و لا معنی یروع.من طبائع السوقه،فلا یرعک تهویله،باسم موضع غریب،و قال:

و یوم عقرت للعذاری مطیّتی فیا عجبا من رحلها المتحمّل

فظلّ العذاری یرتمین بلحمها و شحم کهدّاب الدّمقس المفتّل

تقدیره:أذکر یوم عقرت مطیتی.أو یرده علی قوله:یوم بداره جلجل و لیس فی المصراع الأول من هذا البیت إلا سفاهته.

قال بعض الأدباء قوله:یا«عجبا»،یعجبهم من سفهه فی شبابه من نحره ناقته لهم.

و إنما أراد أن لا یکون الکلام من هذا المصراع منقطعا عن الأول.و أراد أن یکون الکلام ملائما له.

و هذا الذی ذکره بعید.و هو منقطع عن الأول.و ظاهره أنه یتعجب من تحمل العذاری رحله،و لیس فی هذا تعجب کبیر.و لا فی نحر الناقه لهن تعجب،و إن کان یعنی به أنهن حملن رحله،و أن بعضهن حملته،فعبر عن نفسه برحله،فهذا قلیلا یشبه أن یکون عجبا.لکن الکلام لا یدل علیه.و یتجافی عنه.و لو سلم البیت من العیب لم یکن فیه شیء غریب و لا معنی بدیع،أکثر من سفاهته،مع قله معناه،و تقارب أمره،و مشاکلته طبع المتأخرین من أهل زماننا.و إلی هذا الوضع لم یمر له بیت رائع،و کلام رائق.

و أما البیت الثانی فیعدونه حسنا،و یعدون التشبیه ملیحا واقعا،و فیه شیء:و ذلک أنه عرّف اللحم،و نکّر الشّحم،فلا یعلم أنه وصف شحمها،و ذکر تشبیه أحدهما بشیء واقع، و عجز عن تشبیه القسمه الأولی،فمرّت مرسله،و هذا نقص فی الصنعه،و عجز عن إعطاء الکلام حقّه،و فیه شیء آخر من جهه المعنی:و هو أنه وصف طعامه الذی أطعم من أضاف بالجوده،و هذا قد یعاب،و قد یقال إن العرب تفتخر بذلک،و لا یرونه عیبا.و إنما الفرس هم الذین یرون هذا عیبا شنیعا.

و أما تشبيه الشحم بالدّمقس،فشيء يقع للعامه،و يجرى على ألسنتهم،فليس بشيء قد سبق إليه،و إنما زاد المفتّل للقافيه،و هذا مفيد.و مع ذلك،فلست أعلم العامه تذكر هذه الزياده،و لم يعدّ أهل الصنعه ذلك من البديع،و رأوه قريبا.

و فيه شيء آخر،و هو:أن تبجحه بما أطعم للأحباب مذموم و إن سوّغ التبجيح بما أطعم للأضياف إلا أن يورد الكلام مورد المجون،و على طريق أبى نواس فى المزاح و المداعبه.و قوله:

و يوم دخلت الخدر خدر عنيزه فقالت لك الويلات إنك مرجلى

تقول و قد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فأنزل

قوله:دخلت الخدر خدر عنيزه،ذكره تكريرا لإقامه الوزن لا فائده فيه.غيره،و لا ملاحه و لا رونق.و قوله فى المصراع الأخير من هذا البيت:فقالت لك الويلات إنك مرجلى كلام مؤنث من كلام النساء،نقله من جهته إلى شعره،و ليس فيه غير هذا.و تكريره بعد ذلك«تقول و قد مال الغبيط»يعنى قتب الهودج بعد قوله:«فقالت لك الويلات إنك مرجلى»لا فائده فيه غير تقدير الوزن،و إلا فحكايه قولها الأول كاف،و هو فى النظم قبيح، لأنه ذكر مره«فقالت»،و مره«تقول»فى معنى واحد و فصل خفيف.

و فى مصراع الثانى أيضا تأنيث من كلامهن،و ذكر أبو عبيده أنه قال:عقرت بعيرى، و لم يقل ناقتى؛لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى،و فيه نظر؛لأن الأظهر أن البعير اسم للذكر و الأنثى،و احتاج إلى ذكر البعير لإقامه الوزن،و قوله:

فقلت لها سيرى و أرخى زمامه و لا تبعدينى من جناك المعلّل

فمثلك حبلى قد طرقت و مرضع فألهيتها عن ذى تمائم مغيل

البيت الأول قريب النسج،ليس له معنى بديع،و لا لفظ شريف،كأنه من عبارات المنحطين فى الصنعه.و قوله فمثلك حبلى قد طرقت،عابه عليه أهل العربيه.و معناه عندهم حتى يستقيم الكلام(فرب مثلك حبلى قد طرقت)و تقديره أنه زير نساء،و أنه يفسدهن و يلهيهن عن حبلهن و رضاعهن؛لأن الحبلى و المرضعه أبعد من الغزل،و طلب الرجال.

و البيت الثانى فى الاعتذار و الاستهتار و التهيام و غير منتظم مع المعنى الذى قدمه فى البيت الأول.لأن تقديره لا تبعدينى عن نفسك،فإنى أغلب النساء و أخدعهن عن رأيهن و أفسدهن بالتغازل.و كونه مفسده لهن لا يوجب له وصلهن و ترك إبعادهن إياه.بل يوجب هجره و الاستخفاف به،لسخفه و دخوله كل مدخل فاحش،و ركوبه كل مركب فاسد،و فيه

من الفحش و التفحش ما يستنكف من مثله و يأنف من ذكره،و كقوله:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشقّ،و تحتى شقّها لم يحوّل

و يوما على ظهر الكثيب تعذّرت عليّ و آلت حلفه لم تحلّل

فالبيت الأول غايه فى الفحش،و نهايه فى السخف.و أى فائده لذكره لعشيقته،كيف كان يركب هذه القبائح،و يذهب هذه المذاهب،و يرد هذه الموارد؟!إن هذا ليبغضه إلى كل من سمع كلامه.و يوجب له المقت.و هو لو صدق لكان قبيحا،فكيف و يجوز أن يكون كاذبا.ثم ليس فى البيت لفظ بديع،و لا معنى حسن.و هذا البيت متصل بالبيت الذى قبله، من ذكر المرضع التى لها ولد محول.فأما البيت الثانى و هو قوله و يوما يتعجب منه،و إنما تشددت و تعسرت عليه،و حلفت عليه،فهو كلام ردىء النسج،لا فائده لذكره لنا،أن حبيبته تمنعت عليه يوما بموضع يسميه و يصفه.و أنت تجد فى شعر المحدثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذوب معه اللب و تطرب عليه النفس،و هذا مما تستنكره النفس و يشمئز منه القلب،و ليس فيه شىء من الإحسان و الحسن.و قوله:

أ فاطم مهلا بعض هذا التدلّل و إن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرّك منى أن حبّك قاتلى و أنك مهما تأمرى القلب يفعل

فالبيت الأول فيه ركاكه جدا،و تأنيث ورقه.و لكن فيهما تخنيث!و لعل قائلا يقول:

إن كلام النساء بما يلائمهن من الطبع أوقع و أغزل؟و ليس كذلك،لأنك تجد الشعراء فى الشعر المؤنث لم يعدلوا عن رصانه قولهم.

و المصراع الثانى منقطع عن الأول لا يلائمه و لا يوافقه،و هذا يبين لك إذا اعترضت معه البيت الذى تقدمه،و كيف ينكر عليها تدللها،و المتغزل يطرب على دلال الحبيب و تدلّله؟ و البيت الثانى:قد عيب عليه لأنه قد أخبر أن من سبيلها أن لا تغتر بما يريها من أن حبها يقتله.و أنها تملك قلبه،فما أمرته فعله.و المحب إذا أخبر عن مثل هذا صدق،و إن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه،و إنما ذهب مذهبا آخر و هو أنه أراد أن يظهر التجلد، فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات،من الحب و البكاء على الأحبه.فقد دخل فى وجه آخر من المناقضه و الإحاطه فى الكلام،ثم قوله:تأمرى القلب يفعل معناه:

تأمرينى.و القلب لا يؤمر،و الاستعاره فى ذلك غير واقعه و لا حسنه.و قوله:

فإن كنت قد ساءتك منى خليقه فسلّى ثيابى عن ثيابك تنسل

و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتّل

البیت الأول قد قیل فی تأویله:إنه ذکر الثوب و أراد البدن،مثل قول اللّه تعالی وَ ثِیابَکَ فَطَهِّرْ (۱)و قال أبو عبیده:هذا مثل للهجر،و تنسل:تبین.

و هو بیت قلیل المعنی،رکیکه و وضیعه.و کل ما أضاف إلی نفسه،و وصف به نفسه سقوط و سفه و سخف یوجب قطعه.فلم یحکم علی نفسه بذلک،و لکن یورده مورد أن لیست له خلیقه توجب هجرانه.و التقصّی من وصله،و أنه مهذب الأخلاق،شریف الشمائل،فذلک یوجب أن لا ینفک من وصاله.

و الاستعاره فی المصراع الثانی فیها تواضع و تقارب،و إن کانت غریبه.و أما البیت الثانی فمعدود من محاسن القصیده و بدائعها،و معناه ما بکیت إلا لتجرحی قلبا معشّرا،أی مکسرا،من قولهم:برمه أعشار،إذا کانت قطعا هذا تأویل ذکره الأصمعی رضی اللّه عنه، و هو أشبه عند أکثرهم.

و قال غیره:و هذا مثل للأعشار التی تقسم الجزور علیها.و یعنی بسهمیک،المعلی و له سبعه أنصباء،و الرقیب و له ثلاثه أنصباء.فأراد أنک ذهبت بقلبی أجمع.و یعنی بقوله:

مقتل مذلل.و أنت تعلم أنه علی ما یعنی به فهو غیر موافق للأبیات المتقدمه،لما فیها من التناقض الذی بیّنا.

و یشبه أن یکون من قال بالتأویل الثانی فزع إلیه لأنه رأی اللفظ مستکرها علی المعنی الأول،لأن القائل إذا قال:ضرب فلان بسهمه فی الهدف،بمعنی أصابه،کان کلاما ساقطا مرذولا.و هو یری أن معنی الکلمه أن عینیها کالسهمین النافذین فی إصابه قلبه المجروح، فلما بکتا و ذرفتا بالدموع کانتا ضاربتین فی قلبه.

و لکن من حمل علی التأویل الثانی سلم من الخلل الواقع فی اللفظ،و لکنه إذا حمل علی الثانی فسد المعنی و اختل،لأنه إن کان محتاجا علی ما وصف به نفسه من الصبابه، فقلبه کله لها.فکیف یکون بکاؤه هو الذی یخلص قلبه لها؟ و اعلم بعد هذا أن البیت غیر ملائم للبیت الأول،و لا متصل به فی المعنی،و هو منقطع عنه،لأنه لم یسبق کلام یقتضی بکاءها،و لا سبب یوجب ذلک.فترکیبه هذا الکلام علی ما قبله فیه اختلال،ثم لو سلم له بیت من عشرین بیتا و کان بدیعا و لا عیب فیه،فلیس بعجیب لأنه لا یدعی علی مثله أن کلامه کله متناقض،و نظمه کله متباین.

و إنما یکفی أن نبین أن ما سبق من کلامه إلی هذا البیت مما لا یمکن أن یقال إنه یتقدمر.

۱- آیه(۴)سوره المدثر.

فیه أحدا من المتأخرین،فضلا عن المتقدمین،و إنما قدم فی شعره لأبیات قد برع فیها و بان حذقه بها.و إنما أنکرنا أن یکون شعره متناسبا فی الجوده و متشابها فی صحه المعنی و اللفظ،و قلنا إنه یتصرف بین وحشی غریب مستنکر و عربیه کالمهل مستنکره،و بین کلام سلیم متوسط،و بین عامی سوقی فی اللفظ و المعنی،و بین حکمه حسنه،و بین سخف مستشنع.

و لهذا قال اللّه عز اسمه: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً (۱)فأما قوله:

و بیضه خدر لا یرام خباؤها تمتعت من لهوبها غیر معجل

تجاوزت أحراسا و أهوال معشر علیّ حراص لو یسرّون مقتلی

فقد قالوا:عنی بذلک أنها کبیضه خدر فی صفائها و رقتها.و هذه کلمه حسنه،و لکن لم یسبق إلیها،بل هی دائره فی أفواه العرب و تشبیه سائر.

و یعنی بقوله:غیر معجل،أنه لیس ذلک مما یتفق قلیلا و أحیانا،بل یتکرر له الاستمتاع بها.و قد یحمله غیره علی أنه رابط الجأش فلا یستعجل إذا دخلها خوف حصانتها و منعتها.

و لیس فی البیت کبیر فائده،لأنه الذی حکی فی سائر أبیاته،فلا تتضمن مطاولته فی المغازله،و اشتغاله بها.فتکریره فی هذا البیت مثل ذلک قلیل المعنی،إلا الزیاده التی ذکر من منعتها.و هو مع ذلک بیت سلیم اللفظ فی المصراع الأول،دون الثانی.و البیت الثانی ضعیف و قوله:لو یسرون مقتلی،أراد أن یقول لو أسروا فإذا نقله إلی هذا ضعف و وقع فی مضمار الضروره.و الاختلال علی نظمه بیّن حتی أن المحترز یحترز من مثله و قوله:

إذا ما الثریا فی السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصّل

و قد أنکر علیه قوم قوله:«إذا ما الثریا فی السماء تعرضت»،و قالوا:الثریا لا تتعرض،حتی قال بعضهم:سمی الثریا،و إنما أراد الجوزاء لأنها تعرض و العرب تفعل ذلک کما قال زهیر:«کأحمر عاد»و إنما هو أحمر ثمود،و قال بعضهم فی تصحیح قوله:

تعرض له أول ما تطلع کما أن الوشاح إذا طرح یلقاک بعرضه،و هو ناحیته،و هذا کقول الشاعر:

تعرّضت لی بمجان خلّ تعرّض المهره فی الطولء.

۱- آیه(۸۲)سوره النساء.

يقول:تريك عرضها و هى فى الرّسن،و قال أبو عمرو:يعنى إذا أخذت الثريا فى وسط السماء كما يأخذ الوشاح وسط المرأه،و الأشبه عندنا أن البيت غير معيب من حيث عابوه به،و أنه من محاسن هذه القصيده،و لو لا أبيات عده فيه لقابله ما شئت من شعر غيره.و لكن لم يأت فيه بما يفوت الشأو و يستولى على الأمد.

أنت تعلم أنه ليس للمتقدمين و لا للمتأخرين فى وصف شىء من النجوم،مثل ما فى وصف الثريا.و كلّ قد أبدع فيه و أحسن،فإما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه،فمن ذلك قول ذى الرمه (۱):

وردت اعتسافا و الثريا كأنها على قمه الرأس ابن ماء محلّق

و من ذلك قول ابن المعتز (۲):

و ترى الثريا فى السماء كأنها بيضات أدحىّ يلحن بفدفد

و كقوله:

كأن الثريا فى أواخر ليلها تفتّح نور أو لجام مفضّض

و قوله أيضا:

فناولنيها و الثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى به السّاقى

و قول الأشهب بن رميله:

و لاحت لساريها الثريا كأنها لدى الأفق الغربى قرط مسلسل

و لابن المعتز:

و قد هوى النجم و الجوزاء تتبعه كذات قرط أرادته و قد سقطا

أخذه من ابن الرومى فى قوله:

طيّب ريقه إذ ذقت فاه و الثّريا بجانب الغرب قرط

و لابن المعتز:

قد سقانى المدام و الص بح بالليل مؤتزر

و الثّريّا كنور غص ن على الأرض قد نثر

و قوله:

و نروم الثریّا فی السماء مراما

کانکباب طمر کاد یلقی لجاماه.

ص: ۱۱۴

۱- سبقت ترجمته.

۲- سبقت ترجمته.

و لابن الطثريه:

إذا ما الثريا فى السماء كأنها جمان و هى من سلكه فتبدّدا

و لو نسخت لك كل ما قالوا من البديع فى وصف الثريا لطال عليك الكتاب،و خرج عن الغرض.و إنما نريد أن نبين لك أن الإبداع فى نحو هذا أمر قريب،و ليس فيه شىء غريب.

و فى جمله ما نقلناه،ما يزيد على تشبيهه فى الحسن،أو يساويه أو يقاربه.فقد علمت أن ما حلّق فيه،و قدر المتعصب له أنه بلغ النهايه فيه أمر مشترك،و شريعه موروده، و باب واسع،و طريق مسلوك.و إذا كان هذا بيت القصيده،و دره القلاده،و واسطه العقد، و هذا محله فكيف بما تعداه؟ ثم فيه ضرب من التكلف لأنه قال:«إذا ما الثريا فى السماء تعرضت»،تعرض أثناء الوشاح فقوله:تعرضت من الكلام الذى يستغنى عنه،لأنه يشبّه أثناء الوشاح،سواء كان فى وسط السماء،أو عند الطلوع و المغيب.

فالتهويل بالتعرض و التطويل بهذه الألفاظ لا معنى له،و فيه أن الثريا كقطعه من الوشاح المفصّل،فلا معنى لقوله:تعرض أثناء الوشاح و إنما أراد أن يقول تعرض قطعه من أثناء الوشاح،فلم يستقم له اللفظ حتى شبه ما هو كالشىء الواحد بالجمع و قوله:

فجئت و قد نضت لنوم ثيابها لدى السّتر إلا لبسه المتفضّل

فقالت:يمين اللّه ما لك حيله و ما إن أرى عنك المعاويه تنجلى

انظر إلى البيت الأول،و الأبيات التى قبله،كيف خلّط فى النظم،و فرّط فى التأليف! فذكر التمتع بها،و ذكر الوقت و الحال و الحرّاس.ثم يذكر كيف كان صفتها لما دخل عليها، و وصل إليها من نزعها ثيابها إلا ثوبا واحدا،و المتفضّل:الذى فى ثوب واحد،و هو الفضل،فما كان من سبيله أن يقدّمه إنما ذكره مؤخرا.

و قوله لدى الستر حشو،و ليس بحسن و لا بديع،و ليس فى البيت حسن و لا شىء يفضّل لأجله.

و أما البيت الثانى ففيه تعليق و اختلال.ذكر الأصمعى أن معنى قوله:ما لك حيله، أى ليست لك جهه تجىء فيها و الناس حوالى.و الكلام فى المصراع الثانى منقطع عن الأول،و نظمه إليه فيه ضرب من التفاوت،و قوله:

فقمت بها أمشى تجرّ وراءنا على إثرنا أذيال مرط مرحّل

فلما أجزنا ساحه الحی و انتحی بنا بطن خبت ذی حقاف عقنقل

البیت الأول من مساعدتها إیاه،حتی قامت معه لیخلوا،و إنما کانت تجر علی الأثر أذیال مرط مرجّل،و المرجّل:ضرب من البرود،یقال:لو شبه الترجیل و فیه تکلف لأنه قال:وراءنا علی إثرنا.و لو قال علی إثرنا،کان کافیا.و الذیل إنما یجر وراء الماشی،فلا فائده لذکره وراءنا.و تقدیر القول:فقمت أمشی بها،و هذا أیضا ضرب من التکلف.و قوله أذیال مرط،کان من سبیله أن یقول:ذیل مرط،علی أنه لو سلم من ذلک کان قریبا،لیس مما یفوت بمثله غیره،و لا یتقدم به سواه،و قول ابن المعتز أحسن منه:

فبت أفرش خدی فی الطریق له ذلا و اسحب أکمامی علی الأثر

و أما البیت الثانی فقوله:أجزنا بمعنی قطعنا،و الخبت بطن من الأرض،و الحقف رمل منعرج،و العقنقل:المنعقد من الرمل الداخل بعضه فی بعض.

و هذا بیت متقارب مع الأبیات المتقدمه،لأن فیها ما هو سلس قریب یشبه کلام المولدین،و کلام البذله.و هذا قد أغرب فیه و أتی بهذه اللفظه الوحشیه،المتعقده،و لیس فی ذکرها و التفضیل بإلحاقها بکلامها فائده.

و الکلام الغریب،و اللفظه الشدیده المباینه لنسج الکلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجه فی وصف ما یلائمها،کقوله عز و جل فی وصف یوم القیامه: یَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً (۱)فأما إذا وقعت فی غیر هذا الموقع فهی مکروهه مذمومه،بحسب ما تحمد فی موضعها.

و روی أن جریرا أنشد بعض خلفاء بنی أمیه قصیدته:

بان الخلیط برامتین فودعوا أو کلما جدوا لبین تجزع؟

کیف العزاء و لم أجد مذ بنتم قلبا یقر و لا شرابا ینقع

قال:و کان یزحف من حسن هذا الشعر حتی بلغ قوله:

و تقول بوزع:قد دببت علی العصا هلّا هزئت بغیرنا یا بوزع

فقال:أفسدت شعرک بهذا الاسم،و أما قوله:

هصرت بغصنی دوحه فتمایلت علیّ هضیم الکشح ریّا المخلخل

مهفهفه بیضاء غیر مفاضه ترائبها مصقوله کالسّجنجل

فمعنی قوله:هصرت:جذبت و ثنیت.ن.

۱- آیه(۱۰)سوره الإنسان.

و قوله:«بغصنى دوحه»تعسّف،و لم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين.

و المصراع الثانى أصح،و ليس فيه شىء إلا ما يتكرر على ألسنه الناس من هاتين الصفتين.و أنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر،و لكنه مع تكرره على الألسن صالح.

و أما معنى قوله:مهفهفه أنها مخففه ليست مثقله،و المفاضه التى اضطرب طولها، و البيت مع مخالفته فى الطبع الأبيات المتقدمه و نزوعه فيه إلى الألفاظ المستكرهه،و ما فيه من الخلل من تخصيص الترائب بالضوء بعد ذكر جميعها بالبياض،فليس بطائل؛و لكنه قريب متوسط،و قوله:

تصدّ و تبدى عن أسيل و تتّقى بناظره من وحش وجره مطفل

و جيد كجيد الرّيم ليس بفاحش إذا هى نضته و لا بمعطّل

معنى قوله:عن أسيل،أى بأسيل،و إنما يريد خدا ليس بكرا.

و قوله:تتقى يقال اتقاه بترسه أى جعله بينه و بينه،و قوله:تصد و تبدى عن أسيل متفاوت لأن الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد.

و قوله:تتقى بناظره،لفظه مليحه،و لكن أضافها إلى ما نظم به كلامه و هو مختل، و هو قوله:من وحش وجره،و كان يجب أن تكون العباره بخلاف هذا.كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظبا أو المها دون إطلاق الوحش،ففيهن ما تستنكر عيونها.

و قوله:«مطفل»فسروه على أنها ليست بصبيه و أنها قد استحكمت،و هذا اعتذار متعسف.و قوله مطفل زياده لا فائده فيها على هذا التفسير الذى ذكره الأصمعى.و لكن قد يحتمل عندى أن يفيد غير هذه الفائده.فيقال:إنها إذا كانت مطفلا لحظت أطفالها بعين رقه،ففى نظر هذه رقه نظر الموده،و يقع الكلام معلقا تعليقا متوسطا.

و أما البيت الثانى فمعنى قوله:ليس بفاحش،أى ليس بفاحش الطول،و معنى قوله:

نضته،رفعته،و معنى قوله:ليس بفاحش فى مدح الأعناق،كلام فاحش موضوع منه.و إذا نظرت فى أشعار العرب رأيت فى وصف الأعناق ما يشبه السحر.فكيف وقع على هذه الكلمه و دفع إلى هذه اللفظه..؟و هلا قال كقول أبى نواس؟ مثل الظباء سمت إلى روض صوادر عن غدير

و لست أطول عليك،فتستثقل،و لا أكثر القول فى ذمه،فتستوحش.و أكلك الآن إلى جمله من القول،فإن كنت من أهل الصنعه،فطنت و اكتفيت و عرفت ما رمينا إليه و استغنيت.

و إن كنت عن الطبقه خارجا،و عن الإتقان بهذا الشأن خاليا،فلا يكفيك البيان،و إن استقرينا جميع شعره،و تتبعنا عامه ألفاظه،و دللنا على ما فى كل حرف منه.اعلم أن هذه القصيده قد ترددت بين أبيات سوقيه مبتذله،و أبيات متوسطه،و أبيات ضعيفه مرذوله، و أبيات وحشيه غامضه مستكرهه،و أبيات معدوده بديعه.

و قد دللنا على المبتذل منها،و لا يشتبه عليك الوحشى المستنكر الذى يروع السمع، و يهول القلب،و يكدّ اللسان،و يعبس معناه فى وجه كل خاطر،و يكفهر مطلعه على كل متأمل و ناظر،و لا يقع بمثله التمدح و التفاصح و هو مجانب لما وضع له أصل الإفهام، و مخالف لما بنى عليه التفاهم الكلام.فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود،و يلحق باللغز و الإشاره المستبهمه.فأما الذى زعموا أنه من بديع هذا الشعر،فهو قوله:

و يصحى فتيت المسك فوق فراشها تؤم الضّحى لم تنتطق عن تفضّل

و المصراع الأخير عندهم بديع،و معنى ذلك:أنها مترفه متنعمه،لها من يكفيها.

و معنى قوله:لم تنتطق عن تفضل،يقول:لم تنتطق و هو فضل.و«عن»هى بمعنى «بعد».قال أبو عبيده:لم تنتطق فتعمل،و لكنها تتفضل.و مما يعدونه من محاسنها:

و ليل كموج البحر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه و أردف أعجازا و ناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل أ لا انجلى بصبح،و ما الإصباح منك بأمثل

و كان بعضهم يعارض هذا بقول النابغه:

كلينى لهم يا أميمه ناصب و ليل أقاسيه بطىء الكواكب

و صدر أراح الليل عازب همّه تضاعف فيه الحزن من كلّ جانب

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض و ليس الذى يتلو النجوم بآئب

و قد جرى ذلك بين يدى بعض الخلفاء،فقدمت أبيات امرئ القيس،و استحسن استعارتها،و قد جعل لليل صدرا يثقل تنحيه،و يبطئ تقضيه.و جعل له أردافا كثيره، و جعل له صلبا يمتد و يتطاول.و رأوا هذا بخلاف ما يستعيره أبو تمام من الاستعارات الوحشيه البعيده المستنكره.و رأوا أن الألفاظ جميله.

و اعلم أن هذا صالح جميل،و ليس من الباب الذى يقال إنه متناه عجيب و فيه إلمام بالتكلف.و دخول فى التعمل.و قد خرجوا له فى البديع من القصيده قوله:

و قد اغتدی و الطیر فی وکناتها بمنجرد قید الأوابد هیکل

مکرّ مفرّ مقبل مدبر معا کجلمود صخر حطّه السیل من عل

ص: ۱۱۸

و قوله أيضا:

به أيطلا ظبى و ساقا نعامه و إرخاء سرحان و تقريب تنفل

فأما قوله:قيد الأوابد،فهو مليح،و مثله فى كلام الشعراء و أهل الفصاحه كثير.

و التعمل بمثله ممكن.

و أهل زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفا،و يؤلفون المحاسن تأليفا،ثم يوشحون به كلامهم.و الذين كانوا من قبل لغزارتهم و تمكّنهم لم يكونوا يتصنّعون لذلك،إنما كان يتفق لهم اتفاقا،و يطّرد فى كلامهم اطرادا.

و أما قوله فى وصفه:«مكرّ مفرّ»فقد جمع فيه طباقا و تشبيها،و فى سرعه جرى الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا و ألطف.و كذلك فى جمعه بين أربعه وجوه من التشبيه فى بيت واحد صنعه.و لكن قد عورض فيه و زوحم،و التوصل إليه يسير،و تطلبه سهل قريب.

و قد بيّنا لك أن هذه القصيده و نظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بيّنا فى الجوده و الرداءه،و السلاسه و الانعقاد،و السلامه و الانحلال،و التمكن و التسهيل،و الاسترسال، و التوحش و الاستكراه.و له شركاء فى نظائرها و منازعون فى محاسنها،و معارضون فى بدائعها.و لا سواء كلام ينحت عن الصخر تاره،و يذوب تاره،و يتلوّن تلوّن الحرباء، و يختلف اختلاف الأهواء،و يكثر فى تصرفه اضطرابه،و تتقاذف به أسبابه و بين قول يجرى فى سبكه على نظام،و فى رصفه على منهاج،و فى وضعه على حدّ،و فى صفائه على باب، و فى بهجته و رونقه على طريق،مختلفه مؤتلف،و مؤتلفه متّحد،و متباعده متقارب، و شارده مطيع،و مطيعه شارد.و هو على متصرّفاته واحد،لا يستصعب فى حال،و لا يتعقد فى شأن.

و كنا أردنا أن نتصرّف فى قصائد مشهوره،فنتكلم عليها،و ندلّ على معانيها و محاسنها،و نذكر لك من فضائلها و نقائصها،و نبسط لك القول فى هذا الجنس،و نفتح عليك فى هذا النهج.

ثم رأينا هذا خارجا عن غرض كتابنا،و الكلام فيه يتصل بنقد الشعر و عياره،و وزنه بميزانه و معياره؛و لذلك كتب و إن لم تكن مستوفاه،و تصانيف و إن لم تكن مستقصاه.

و هذا القدر يكفى فى كتابنا.و لم نحب أن ننسخ لك ما سطره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض و النحو و المعانى،و ما عابوه عليه فى أشعاره،و تكلموا به على ديوانه، لأن ذلك أيضا خارج عن غرض كتابنا،و مجانب لمقصوده.

و إنما أردنا أن نبين الجمله التى بيّناها،لتعرف أن طريقه الشعر شريعه موروده، و منزله مشهوده،يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم،و يتناول منها ذووها على حسب أحوالهم.و أنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه.و تجد للمتأخر معنى قد أغفله المتقدم.و تجد معنى قد توافدا عليه،و توافيا إليه.فهما فيه شريكا عنان،و كأنهما فيه رضيعا لبان.و اللّه يؤتى فضله من يشاء.

فأما نهج القرآن و نظمه و تأليفه و رصفه؛فإن العقول تتيه فى جهته،و تحار فى بحره، و تضل دون وصفه.و نحن نذكر لك فى تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض،و تستولى به على الأمد.و تصل به إلى المقصد.و تتصور إعجازه كما تتصور الشمس،و تتيقن تناهى بلاغته كما تتيقن الفجر.و أقرّب عليك الغامض،و أسهّل لك العسير.

و اعلم أن هذا علم شريف المحل.عظيم المكان.قليل الطلاب.ضعيف الأصحاب ليست له عشيره تحميه،و لا أهل عصمه تفطن لما فيه.و هو أدق من السحر،و أهول من البحر،و أعجب من الشعر.

و كيف لا- يكون كذلك،و أنت تحسب أن وضع الصبح فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام،إلا أن يكون شعرا أو سجعا،و ليس كذلك.فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى وضع و تزل عن مكان لا تزل عنه اللفظه الأخرى.بل تتمكن فيه و تضرب بجرانها،و تراها فى مظانها،و تجدها فيه غير منازعه إلى أوطانها.و تجد الأخرى لو وضعت موضعها فى محل نفار،و مرمى شراد،و نابيه عن استقرار.

و لا- أكثر عليك المثال،و لا- أضرب لك فيه الأمثال،و أرجع بك إلى ما وعدتك من الدلاله.و ضمنت لك من تقريب المقاله.فإن كنت لا تعرف الفصل الذى بيّنا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام،و مصرفات مجارى النظام،لم تستفد مما نقر به عليك شيئا، و كان التقليد أولى بك،و الاتباع موجب عليك.و لكل شىء سبب،و لكل علم طريق،و لا سبيل إلى الوصول إلى الشىء من غير طريقه.و لا بلوغ غايته من غير سبيله.خذ الآن، هداك اللّه،فى تفريغ الفكر و تخليه البال،و انظر فيما نعرض عليك و نهديه إليك،متوكلا- على اللّه،و معتصما به،و مستعيذا به من الشيطان الرجيم،حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم،سماه اللّه،عز ذكره،حكيما و عظيما و مجيدا.

و قال: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۱)و قال:ت.

۱- آیه(۴۲)سوره فصلت.

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَهِ اللّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۱) و قال: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً (۲)و قال: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۳).

و أخبرنا أحمد بن محمد بن الحسين القزوينىّ،حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن عثمان،حدثنا أبو يوسف الصيدلانىّ،حدثنا محمد بن سلمه عن أبى سنان،عن عمرو بن مرّه،عن أبى البحترى الطائى،عن الحارث الأعور،عن على رضى اللّه عنه قال:«قيل يا رسول اللّه إن أمتك ستفتتن من بعدك،فسأل أو سئل ما المخرج من ذلك؟ فقال:عليكم بكتاب اللّه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه،تنزيل من حكيم حميد،من ابتغى العلم فى غيره أضله اللّه،و من ولى هذا من جبار فحكم بغيره قصمه اللّه،و هو الذكر الحكيم،و النور المبين،و الصراط المستقيم،فيه خبر من قبلكم، و تبيان من بعدكم،و هو فصل ليس بالهزل،و هو الذى سمعته الجن فقالوا: إِنّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنّا بِهِ (۴)،لا يخلق على طول الرد،و لا تنقضى عبره،و لا تفنى عجائبه».

و أخبرنى أحمد بن على بن الحسن،أخبرنا أبى،أخبرنا بشر بن عبد الوهاب،أخبرنا هشام بن عبيد اللّه،حدثنا المسيّب بن شريك،عن عبيده عن أسامه بن أبى عطاء،قال:

«أرسل النبى صلّى اللّه عليه و سلّم إلى على رضى اللّه عنه فى ليله فذكر نحو ذلك فى المعنى،و فى بعض ألفاظه اختلاف».

و أخبرنا أحمد بن على بن الحسن،أخبرنا أبى،أخبرنا بشر بن عبد الوهاب،أخبرنا هشام بن عبيد اللّه،حدثنا المسيّب بن شريك،عن بشر بن نمير،عن القاسم،عن أبى أمامه،قال:

«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوه،و من قرأ نصف القرآن،أعطى نصف النبوه،و من قرأ القرآن كله أعطى النبوه كلها،غير أنه لا يوحى إليه» (۵)و ذكر الحديث.۱.

۱- آيه(۲۱)سوره الحشر.

۲- آيه(۳۱)سوره الرعد.

۳- آيه(۸۸)سوره الإسراء.

۴- آيه(۲)سوره الجن.

۵- الاتحاف ۴۶۶/۴،و الكنز(۲۳۴۸)،و الدرّ المنثور ۳۴۸/۱،و ابن عدى ۴۴۰/۲،و الموضوعات ۲۵۲/۱.

و لو لم يكن من عظم شأنه إلا- أنه طبّق الأرض أنواره،و جلل الآفاق ضياؤه،و نفذ فى العالم حكمه،و قبل فى الدنيا رسمه،و طمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرّواق.

ممدود الأطناب،مبسوط الباع،مرفوع العماد،ليس على الأرض من يعرف اللّه حق معرفته،أو يعبده حق عبادته،أو يدين بعظمته،أو يعلم علوّ جلالته،أو يتفكّر فى حكمته، فكان كما وصفه اللّه تعالى جل ذكره من أنه نور فقال: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لاَ الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱)فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم،و بديع هذا التأليف، و عظيم هذا الرصف،كل كلمه من هذه الآيه تامه،و كل لفظ بديع واقع قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا (۲)يدل على صدوره من الربوبيه،و يبين عن وروده عن الإلهيه،و هذه الكلمه بمنفردها،و أخواتها،كل واحده منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه،و كان واسطه عقده،و فاتحه عقده،و غره شهره،و عين دهره،و كذلك قوله:

وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا (۳) فجعله روحا لأنه يحيى الخلق،فله فضل الأرواح فى الأجساد.و جعله نورا لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق.ثم أضاف وقوع الهدايه به إلى مشيئته.و وقف وقوف الاسترشاد به على إرادته،و بيّن أنه لم يكن ليهتدى إليه لو لا- توفيقه.و لم يكن ليعلم ما فى الكتاب و لا- الإيمان لو لا- تعليمه.و أنه لم يكن ليهتدى،فكيف كان يهدى لولاه؟فقد صار يهدى و لم يكن من قبل ذلك ليهتدى.

فقال وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِراطِ اللّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (۴)فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث:فالكلمتان الأولتان مؤتلفتان،و قوله: أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ كلمه منفصله مباينه للأولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف،و ألطف انتظاما من الحديث الملائم.

و بهذا يبين فضل الكلام،و تظهر فصاحته و بلاغته.الأمر أظهر،و الحمد للّه،و الحال أبين من أن يحتاج إلى كشف.

تأمل قوله: فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۵)انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها،و احتج بها على ظهورم.

۱- آيه(۵۲)سوره الشورى.

۲- الآيه السابقه.

۳- الآيه السابقه.

۴- آيه(۵۳)سوره الشورى.

۵- آيه(۹۶)سوره الأنعام.

قدرته و نفاذ أمره.

أ ليس كل كلمه منها فی نفسها غره،و بمنفردها دره؟و هو مع ذلک يبين أنه يصدر عن علو الأمر،و نفاذ القهر،و يتجلی فی بهجه القدره،و يتحلی بخالصه العزه،و يجمع السلاسه إلی الرصانه،و السلامه إلی المتانه،و الرونق الصافی و البهاء الضافی.

و لست أقول إنه شمل الإطباق المليح،و الإيجاز اللطيف،و التعديل و التمثيل، و التقريب و التشكيل،و إن كان قد جمع ذلک و أكثر منه،لأن العجيب ما بيّنا من انفراد كل كلمه بنفسها حتی تصلح أن تكون عين رساله،أو خطبه،أو وجه قصيده،أو فقره.فإذا ألفت ازدادت حسنا و زادتک إذا تأملت معرفه و إيمانا.

ثم تأمل قوله: وَ آيَهٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَ الشَّمْسُ تَجْرِی لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِکَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتّی عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۱)هل تجد كل لفظه و هل تعلم كل كلمه تستقل بالاشتمال علی نهايه البديع،و تتضمن شرط القول البليغ؟فإذا كانت الآيه تنتظم من البديع،و تتألف من البلاغات،فكيف لا تفوت حد المعهود،و لا تجوز شأو المألوف؟و كيف لا تجوز قصب السبق،و لا تتعالی عن كلام الخلق؟ ثم اقصد إلی سوره تامه فتصرّف فی معرفه قصصها،و راع ما فيها من براهينها و قصصها.تأمل السوره التی يذكر فيها النمل و انظر فی كل كلمه كلمه،و فصل فصل بدأ بذكر السوره،إلی أن بيّن أن القرآن من عنده،فقال: وَ إِنَّکَ لَتُلَقَّی الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۲)آيه(۳۴)سوره الطور.(۳)ثم وصل بذلک قصه موسی عليه السّلام و أنه رأی نارا إِذْ قالَ مُوسی لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۴).

و قال فی سوره طه فی هذه القصه: لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَی النّارِ هُدیً (۵)و فی موضع: لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَهٍ مِنَ النّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۶)قد تصرف فی وجوه،و أتی بذكر القصه علی ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلک.

و لهذا قال فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ (۶)ليكون أبلغ فی تعجيزهم و أظهر للحجه عليهم.و كلر.

۱- آيه(۳۷:۳۹)سوره يس.

۲- آيه

۳- سوره النمل.

۴- آيه(۸)سوره النمل.

۵- آيه(۱۰)سوره طه.

۶- آيه(۲۹)سوره القصص.

کلمه من هذه الکلمات و إن أنبأت عن قصه فهی بلیغه بنفسها،تامه فی معناها.

ثم قال: فَلَمّا جاءَها نُودِیَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِی النّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱)فانظر إلی ما أجری له الکلام من علو أمر هذا النداء،و عظم شأن هذا الثناء، و کیف انتظم مع الکلام الأول،و کیف اتصل بتلک المقدمه،و کیف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبیه،و ما دل به علیها؛من قلب العصا حیه،و جعلها دلیلا یدله علیه، و معجزه تهدیه إلیه.

و انظر إلی الکلمات المفرده القائمه بأنفسها فی الحسن،و فیما تتضمنه من المعانی الشریفه،ثم ما شفع به هذه الآیه،و قرن به هذه الدلاله من الید البیضاء عن نور البرهان من غیر سوء.

ثم انظر فی آیه آیه،و کلمه کلمه،هل تجدها کما وصفنا من عجیب النظم و بدیع الرصف؟فکل کلمه لو أفردت کانت فی الجمال غایه،و فی الدلاله آیه.فکیف إذا قارنتها أخواتها و ضامّتها ذواتها،تجری فی الحسن مجراها،و تأخذ فی معناها؟ ثم من قصه إلی قصه،و من باب إلی باب،من غیر خلل یقع فی نظم الفصل إلی الفصل،و حتی یصوّر لک الفصل وصلا،ببدیع التألیف،و بلیغ التنزیل.

و إن أردت أن تتبین ما قلناه فضل تبیّن،و تتحقق بما ادعیناه زیاده تحقّق،فإن کنت من أهل الصنعه،فاعمد إلی قصه من هذه القصص،و حدیث من هذه الأحادیث،فعبّر عنهن بعباره من جهتک،و أخبر عنه بألفاظ من عندک.حتی تری فیما جئت به النقص الظاهر،و تتبین فی نظم القرآن الدلیل الباهر.و لذلک أعاد قصه موسی فی سور،و علی طرق شتی،و فواصل مختلفه،مع اتفاق المعنی.

فعلک ترجع إلی عقلک،و تستر ما عندک،إن غلطت فی أمرک،أو ذهبت فی مذاهب وهمک ،أو سلّطت علی نفسک وجه ظنک.متی تهیأ البلیغ أن یتصرف فی قدر آیه فی أشیاء مختلفه،فیجعلها مؤتلفه من غیر أن یبین علی کلامه إعیاء الخروج و التنقل.أو یظهر علی خطابه آثار التکلف و التعمّل.

و أحسب أنه لا یسلم من هذا،و محال أن یسلم منه حتی یظفر بمثل تلک الکلمات، الأفراد،و الألفاظ الأعلام،حتی یجمع بینها،فیجلو فیها فقره من کلامه،و قطعه من قوله.و لو اتفق له فی أحرف معدوده،و أسطر قلیله،فمتی یتّفق له فی قدر ما نقول:إنه من القرآن معجز؟ل.

۱- آیه(۸)سوره النمل.

هیهات هیهات!!إن الصبح یطمس النجوم و إن کانت زاهره،و البحر یغمر الأنهار و إن کانت زاخره.

متی تهیأ للآدمی أن یقول فی وصف کتاب سلیمان علیه السّلام،بعد ذکر العنوان و التسمیه،هذه الکلمه الشریفه العالیه: أَلاّ تَعْلُوا عَلَیَّ وَ أْتُونِی مُسْلِمِینَ (۱)و الخلوص من ذلک إلی ما صارت إلیه من التدبیر،و اشتغلت به من المشوره،و من تعظیمها أمر المستشار،و من تعظیمهم أمرها،و طاعتها بتلک الألفاظ البدیعه،و الکلمات العجیبه البلیغه.

ثم کلامها بعد ذلک لتعلم تمکن قولها: یا أَیُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی أَمْرِی ما کُنْتُ قاطِعَهً أَمْراً حَتّی تَشْهَدُونِ (۲)و ذکر قولهم:قالوا: نَحْنُ أُولُوا قُوَّهٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِیدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَیْکِ فَانْظُرِی ما ذا تَأْمُرِینَ (۳)لا تجد فی صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به.

و قوله: وَ الْأَمْرُ إِلَیْکِ تعلم براعته بنفسه،و عجیب معناه،و موضع اتفاقه فی هذا الکلام،و تمکن الفاصله،و ملاءمته لما قبله،و ذلک قوله: فَانْظُرِی ما ذا تَأْمُرِینَ (۴)ثم إلی هذا الاختصار،و إلی البیان مع الإیجاز،فإن الکلام قد یفسد الاختصار و یعمیه التخفیف منه و الإیجاز.و هذا مما یزیده الاختصار بسطا لتمکنه و وقوعه موقعه.و یتضمن الإیجاز منه تصرفا یتجاوز محله و موضعه.

و کم جئت إلی کلام مبسوط یضیق عن الإفهام،و وقعت علی حدیث طویل یقصر عما یراد به من التمام،ثم لو وقع علی الإفهام و التمام،أخلّ بما یجب فیه من شروط الإحکام، أو بمعانی القصه و ما تقتضی من الإعظام ثم لو ظفرت بذلک کله رأیته ناقصا فی وجه الحکمه،أو مدخولا فی باب السیاسه،أو مصفوفا فی طریق السیاده،أو مشترک العبارات إن کان مستجود المعنی،أو جید البلاغه،مستجلب المعنی،أو مستجلب البلاغه،جید المعنی،أو مستنکر اللفظ،وحشی العباره،أو مستبهم الجانب،مستکره الوضع.

و أنت لا تجد فی جمیع ما تلونا علیک إلا ما إذا بسط أفاد.و إذا اختصر کمل فی بابه و جاد.و إذا سرّح الحکیم فی جوانبه طرف خاطبه،و بعث العلیم فی أطرافه عیون مباحثه، لم یقع إلا علی محاسن تتوالی،و بدائع تتری،ثم فکر بعد ذلک فی آیه آیه،أو کلمه کلمه،ت.

۱- آیه(۳۱)سوره النمل.

۲- آیه(۳۲)سوره النمل.

۳- آیه(۳۴)سوره النمل.

۴- سبقت.

فی قوله: إِنَّ الْمُلُوکَ إِذا دَخَلُوا قَرْیَهً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّهَ أَهْلِها أَذِلَّهً وَ کَذلِکَ یَفْعَلُونَ (۱).

هذه الکلمات الثلاث؛کل واحده منها کالنجم فی علوه و نوره،و کالیاقوت یتلألأ بین شذوره.ثم تأمل تمکن الفاصله،و هی الکلمه الثالثه،و حسن موقعها،و عجیب حکمها، و بارع معناها.

و إن شرحت لک ما فی کل آیه طال علیک الأمر،و لکنی قد بینت بما فسرت،و قررت بما فصلت الوجه الذی سلکت،و النحو الذی قصدت،و الغرض الذی إلیه رمیت،و السمت الذی إلیه دعوت.

ثم فکر بعد ذلک فی شیء أدلک علیه،و هو تعادل هذا النظم فی الإعجاز فی مواقع الآیات القصیره و الطویله و المتوسطه.فأجل الرأی فی سوره سوره،و آیه آیه،و فاصله فاصله،و تدبر الخواتم و الفواتح،و البوادی و المقاطع،و مواضع الفصل و الوصل، و مواضع التنقل و التحول،ثم اقض ما أنت قاض.و إن طال علیک تأمل الجمیع،فاقتصر علی سوره واحده،أو علی بعض سور.

ما رأیک فی قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً.یَسْتَضْعِفُ طائِفَهً مِنْهُمْ یُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ یَسْتَحْیِی نِساءَهُمْ إِنَّهُ کانَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۲)هذه تشتمل علی ست کلمات،سناؤها و ضیاؤها علی ما تری،و سلاستها و ماؤها علی ما تشاهد،و رونقها علی ما تعاین،و فصاحتها علی ما تعرف.و هی تشتمل علی جمله و تفصیل،و تفسیر ذکر العلو فی الأرض باستضعاف الخلق،بذبح الولدان،و سبی النساء.و إذا تحکّم فی هذین الأمرین، فما ظنک بما دونهما؟لأن النفوس لا تطمئن علی هذا الظلم،و القلوب لا تقرّ علی هذا الجور.

ثم ذکر الفاصله التی أوغلت فی التأکید،و کفت فی التظلیم،وردت آخر الکلام علی أوله،و عطفت عجزه علی صدره.

ثم ذکر وعده تخلیصهم بقوله: وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّهً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ (۳)و هذا من التألیف بین المؤتلف،و الجمع بین المستأنس،کما أن قوله: وَ ابْتَغِ فِیما آتاکَ اللّهُ الدّارَ الْآخِرَهَ وَ لا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیا.

۱- آیه(۳۴)سوره النمل.

۲- آیه(۵)سوره القصص.

۳- آیه(۵)سوره النمل.

وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۱) و هی خمس کلمات متباعده فی المواقع،نائیه المطارح،قد جعلها النظم البدیع أشد من الشیء المؤتلف فی الأصل.و أحسن توافقا من المتطابق فی أول الوضع.

و مثل هذه الآیه قوله: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللّهِ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ (۲)و مثلها: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاّ قَلِيلاً وَ كُنّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (۳)و من المؤتلف قوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۴)و هذه الثلاث کلمات کل کلمه منها أعز من الکبریت الأحمر.

و من الباب الآخر قوله تعالى: وَ لا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵)کل سوره من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تکلفت العباره عنها بأضعاف کلماتها لم تستوف ما استوفته.

ثم تجد فیما تنظم ثقل النظم،و نفور الطبع،و شراد الکلام،و تهافت القول،و تمنّع جانبه،و قصورک فی الإیضاح عن واجبه.ثم لا تقدر علی أن تنتقل من قصه إلی قصه،و من فصل إلی فصل حتی تتبین علیک مواضع الوصل،و یستصعب علیک أماکن الفصل.ثم لا یمکنک أن تصل بالقصص مواعظ زاجره،و أمثالا سائره و حکما جلیله،و أدله علی التوحید بینه،و کلمات فی التنزیه و التحمید شریفه.

و إن أردت أن تتحقق ما وصفت لک فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقین،هل تجد کلامه فی المدیح و الغزل و الفخر و الهجو یجری مجری کلامه فی ذکر القصص؟إنک لتراه إذا جاء إلی وصف واقعه،أو نقل خبر عامی الکلام،سوقی الخطاب،مسترسلا فی أمره،متساهلا فی کلامه،عادلا عن المألوف من طبعه،و ناکبا عن المعهود من سجیته.

فإن اتفق له فی قصه کلام جید،کان قدر ثنتین أو ثلاثه.و کان ما زاد علیها حشوا،و ما تجاوزها لغوا،و لا أقول إنها تخرج من عادته عفوا،لأنه یقصر عن العفو،و یقف دون العرف،و یتعرض للرکاکه.ص.

۱- آیه(۷۷)سوره القصص.

۲- آیه(۶۸)سوره القصص.

۳- آیه(۵۸)سوره القصص.

۴- آیه(۸۱)سوره القصص.

۵- آیه(۸۸)سوره القصص.

فإن لم تقنع بما قلت لك من الأبيات فتأمل غير ذلك من السور.هل تجد الجميع على ما وصفت لك.لو لم تكن إلا سوره واحده لكفت فی الإعجاز.فكيف بالقرآن العظيم؟و لو لم يكن إلا حديث من سوره لكفی،و أقنع،و شفی.

و لو عرفت قدر قصه موسی وحدها من سوره الشعراء،لما طلبت بينه سواها.بل قصه من قصصه و هی قوله: وَ أَوْحَيْنا إِلی مُوسی أَنْ أَسْرِ بِعِبادِی إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۱)إلی قوله: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَ عُيُونٍ. وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ. كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِيلَ.

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۲) حتی قال: فَأَوْحَيْنا إِلی مُوسی أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۳)ثم قصه إبراهيم عليه السلام.

ثم لو لم تكن إلا الآيات التی انتهی إليها القول فی ذكر القرآن،و هی قوله: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلی قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِينٍ (۴)و هذه كلمات مفرده بفواصلها؛منها ما يتضمن فاتحه و فاصله،و منها ما هی فاتحه و واصله،و فاصله.و منها كلمه بفاصلتها تامه،دل علی أنه نزله علی قلبه ليكون نذيرا.و بيّن أنه آيه لكونه نبينا.ثم وصل بذلك كيفيه النذاره فقال: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۵).

فتأمل آيه آيه،لتعرف الإعجاز،و تتبين التصرف البديع،و التنقل فی الفصول إلی آخر السوره.ثم راع المقطع العجيب و هو قوله: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (۶)هل يحسن أن تأتی بمثل هذا الوعيد و أن تنظم مثل هذا النظم،و أن تجد مثل هذه النظائر السابقه،و تصادف مثل هذه الكلمات المتقدمه؟ و لو لا كراهه الإملال،لجئت إلی كل فصل فاستقريت علی الترتيب كلماته،و بينت لك ما فی كل واحده منها من البراعه،و من عجيب البلاغه.و لعلك تستدل بما قلنا علی ما بعده،و تستضیء بنوره و تهتدی بهداه.و نحن نذكر آيات أخر،لتزداد استبصارا و تتقدم تيقنا.ء.

۱- آيه(۵۲)سوره الشعراء.

۲- آيه(۵۷-۶۰)سوره الشعراء.

۳- آيه(۶۳)سوره الشعراء.

۴- آيه(۱۹۲-۱۹۵)سوره الشعراء.

۵- آيه(۲۱۴-۲۱۵)سوره الشعراء.

۶- آيه(۲۲۷)سوره الشعراء.

تأمل من الكلام المؤتلف قوله: حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱).

أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء اللّه تعالى،و صفاته،فانظر متى وجدت فى كلام البشر و خطبهم مثل هذا النظم فى هذا القدر،و ما يجمع ما تجمع هذه الآيه من شريف المعانى و حسن الفاتحه و الخاتمه.

ثم اتل ما بعدها من الآى،و اعرف وجه الخلوص من شىء إلى شىء؛من احتجاج إلى وعيد،و من إعذار إلى إنذار،و من فنون من الأمر شتى،مختلفه تأتلف بشريف النظم، و متباعده تتقارب بعلىّ الضم.

ثم جاء إلى قوله: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النّارِ (۲)الآيه الأولى أربعه فصول، و الثانيه فصلان،وجه الوقوف على شرف الكلام:أن تتأمل موقع قوله: وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (۳)و هل تقع فى الحسن موقع قوله: لِيَأْخُذُوهُ (۴)كلمه؟و هل تقوم مقامه فى الجزاله لفظه؟و هل يسد مسده فى الأصاله نكته؟لو وضع موضع ذلك«ليقتلوه» أو«ليرجموه»أو«لينفوه»أو«ليطردوه»أو«ليهلكوه»أو«ليذلوه».؟و نحو هذا ما كان ذلك بعيدا،و لا بارعا،و لا عجيبا،و لا بالغا.

فانقد موضع هذه الكلمه،و تعلم بها ما تذهب إليه من تخير الكلام،و جميل الألفاظ،و الاهتداء للمعانى.فإن كنت تقدر أن شيئا من هذه الكلمات التى عددناها عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا من هذا الكتاب،فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب،فافزع إلى التقليد،و أكف نفسك مئونه التفكير.و إن فطنت فانظر إلى ما قال من رد عجز الخطاب إلى صدره بقوله: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (۵)ثم ذكر عقيبها العذاب فى الآخره،و اتلاها تلو العذاب فى الدنيا،على الإحكام الذى رأيت.

ثم ذكر المؤمنين بالقرآن،بعد ذكر المكذبين بالآيات و الرسل،فقال: اَلَّذِينَت.

۱- آيه(۱:۳)سوره غافر.

۲- آيه(۵،۶)سوره غافر.

۳- سبقت.

۴- سبقت.

۵- سبقت.

يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ (۱) إلى أن ذكر ثلاث آيات، و هذا كلام مفصول،تعلم عجيب اتصاله بما سبق و مضى،و انتسابه إلى ما تقدم و تقضى، و عظم موضعه فى معناه،و رفيع ما يتضمن من تحميدهم و تسبيحهم.و حكايه كيفيه دعاء الملائكه بقوله: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً (۲).

هل تعرف شرف هذه الكلمه لفظا و معنى؟و لطيف هذه الحكايه،و تلاؤم هذا الكلام، و تشاكل هذا النظام.و كيف يهتدى إلى وضع هذه المعانى بشرى؟و إلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسى،ثم ذكر ثلاث آيات فى أمر الكافرين على ما ترى،ثم نبه على أمر القرآن و أنه من آياته بقوله: هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ آياتِهِ وَ يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلاّ مَنْ يُنِيبُ (۳).

و إنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدره عليهما،لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء،و لأن الرزّاق الذى لو لم يرزق لم يكن بقاء النفس،تجب طاعته،و النظر فى آياته.

ثم قال: فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ. رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ (۴)،قف على هذه الدلاله و فكر فيها، و راجع نفسك فى مراعاه معانى هذه الصفات العاليه و الكلمات الساميه،و الحكم البالغه، و المعانى الشريفه،تعلم ورودها عن الإلهيه،و دلالتها على الربوبيه،و تتحقق أن الخطب المنقوله عنهم،و الأخبار المأثوره فى كلماتهم الفصيحه،من الكلام الذى تعلق به الهمم البشريه،و ما تحوم عليه الأفكار الآدميه،و تعرف مباينتها لهذا الضرب من القول.

أى خاطر يتشوف إلى أن يقول: يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ. يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ (۵)و أى لفظ يدرك هذا المضمار،و أى حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغور،و أى فصيح يهتدى إلى هذا النظم؟ثم استقرئ الآيه إلى آخرها،و اعتبر كلماتها،و راع بعدها قوله: اَلْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ

۱- آيه(۷)سوره غافر.

۲- نفس الآيه.

۳- آيه(۱۳)سوره غافر.

۴- آيه(۱۴:۱۶)سوره غافر.

۵- سبقت.

اَلْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱) .

من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها،و على خفتها فى النظم و موقعها من القلب؟ ثم تأمل قوله: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَهِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ،ما لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ. يَعْلَمُ خائِنَهَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِى الصُّدُورُ. وَ اللّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲).

كل كلمه من ذلك ما قد وصفتها من أنه إذا رآها الإنسان فى رساله كانت عينها،أو فى خطبه كانت وجهها،أو قصيده كانت غره غرتها،و بيت قصيدتها،كالياقوته التى تكون فريده العقد،و عين القلاده و دره الشذر.إذا وقع بين كلام وشّحه،و إذا ضمّن فى نظام زيّنه،و إذا اعترض فى خطاب تميز عنه،و بان بحسنه منه.

و لست أقول هذا لك فى آيه دون آيه،و سوره دون سوره،و فصل دون فصل،و قصه دون قصه،و معنى دون معنى؛لأنى قد شرحت لك أن الكلام فى حكايه القصص و الأخبار، و فى الشرائع و الأحكام،و فى الديانه و التوحيد،و فى الحجج و التثبيت،هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور.

أ لا ترى أن الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصّر.و الأديب إذا تكلم فى بيان الأحكام و ذكر الحلال و الحرام لم يكن كلامه على حسب كلامه فى غيره..؟و نظم القرآن لا يتفاوت فى شىء،و لا يتباين فى أمر،و لا يختل فى حال.بل له المثل الأعلى،و الفضل الأسنى.و فيما شرحناه لك كفايه و فيما بيناه بلاغ.

و نذكر فى الأحكاميات و غيرها آيات أخر منها قوله: يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۳).

أنت تجد فى هذه الآيه من الحكمه و التصرف العجيب و النظم البارع ما يدل لك إن شئت على الإعجاز مع هذا الاختيار،و الإيجاز.فكيف إذا بلغ ذلك آيات و كانت سوره شئت على الإعجاز مع هذا الاختيار،و الإيجاز.فكيف إذا بلغ ذلك آيات و كانت سوره و نحو هذه الآيه قوله: اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْراهِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُه.

۱- آيه(۷)سوره غافر.

۲- آيه(۱۸:۲۰)سوره غافر.

۳- آيه(۴)سوره المائده.

اَلْخَبـائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَ الْأَغْلاـلَ الَّتِی کـانَتْ عَلَیْهِمْ،فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَـرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ،أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱) و کالآیه التی بعدها فی التوحید و إثبات النبوه کالآیات الثلاث فی المواریث.أی بارع یقدر علی جمع أحکام الفرائض فی قدرها من الکلام؟ثم کیف یقدر علی ما فیها من بدیع النظم؟ و إن جئت إلی آیات الاحتجاج کقوله تعالی: لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَهٌ إِلاَّ اللّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِفُونَ. لا یُسْئَلُ عَمّا یَفْعَلُ وَ هُمْ یُسْئَلُونَ (۲).

و کالآیات فی التوحید کقوله: هُوَ الْحَیُّ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۳)و کقوله: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً. اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً (۴)و کقوله: تَبارَکَ الَّذِی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۵)إلی آخرها،و کقوله: وَ الصَّافّاتِ صَفًّا. فَالزّاجِراتِ زَجْراً. فَالتّالِیاتِ ذِکْراً. إِنَّ إِلهَکُمْ لَواحِدٌ. رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَیْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ. إِنّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَهٍ الْکَواکِبِ. وَ حِفْظاً مِنْ کُلِّ شَیْطانٍ مارِدٍ. لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ. إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَهَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۶)هذه من الآیات التی قال فیها اللّه تعالی ذکره: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللّهِ ذلِکَ هُدَی اللّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۷).

و انظر بعین عقلک،و راجع جلیّه بصیرتک،إذا تفکرت فی کل کلمه مما نقلناه إلیک، و عرضناه علیک،ثم فیما ینتظم من الکلمات،ثم إلی أن یتکامل فصلا و قصه،أو یتم حدیثا و سوره.لا،بل فکر فی جمیع القرآن علی هذا الترتیب،و تدبّره علی نحو هذا التنزیل،فلم ندّع ما ادعیناه لبعضه،و لم نصف ما وصفناه إلا فی کلّه،و إن کانت الدلاله فی البعض أبین و أظهر،و الآیه أکشف و أبهر.ر.

۱- آیه(۱۵۷)سوره الأعراف.

۲- آیه(۲۲،۲۳)سوره الأنبیاء.

۳- آیه(۶۵)سوره غافر.

۴- آیه(۱،۲)سوره الفرقان.

۵- آیه(۱)سوره الملک.

۶- آیه(۱:۱۰)سوره الصافات.

۷- آیه(۸)سوره الزمر.

و إذا تأملت على ما هديناك إليه،و وقفناك عليه،فانظر هل ترى وقع هذا النور فى قلبك و اشتماله على لبّك،و سريانه فى حسك،و نفوذه فى عروقك،و امتلاءك به إيقانا و إحاطه،و اهتداءك به إيمانا و بصيره؟أم هل تجد العرب يأخذ منك مأخذه من وجه.و الهزه تعمل فى جوانبك من لون،و الأريحيّه تستولى عليك من باب؟و هل تجد الطرب يستفزّك للطيف ما فطنت له،و السرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه،و تجد فى نفسك من المعرفه التى حدثت لك عزّه،و فى أعطافك ارتياحا و هزّه.و ترى لك فى الفضل تقدما و تبريزا،و فى اليقين سبقا و تحقيقا،و ترى مطارح الجهال تحت أقدام الغفله،و مهاويهم فى ظلال القله و الذله،و أقدارهم بالعين التى يجب أن تلحظ بها مراتبهم،بحيث يجب أن ترتبها؟هذا كله فى تأمل الكلام،و نظامه،و عجيب معانيه و أحكامه.

فإن جئت إلى ما انبسط فى العالم من بركته و أنواره،و تمكن فى الآفاق من يمنه و أضوائه،و ثبت فى القلوب من إكباره و إعظامه،و تقرر فى النفوس من حتم أمره و نهيه.

و مضى فى الدماء من مفروض حكمه،و إلى أنه جعل عماد الصلاه التى هى تلو الإيمان فى التأكيد،و ثانيه التوحيد فى الوجوب،و فرض حفظه،و وكل الصغار و الكبار بتلاوته،و أمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه من قوله: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۱)لم يؤمر بالتعوذ لافتتاح أمر كما أمر به لافتتاحه،فهل يدلك هذا على عظيم شأنه،و راجح ميزانه،و عالى مكانه..؟و جمله الأمر أنّ نقد الكلام شديد،و تمييزه صعب.

و مما كتب إلى الحسن بن عبد اللّه العسكرى أخبرنى أبو بكر بن دريد،قال:

سمعت أبا حاتم يقول:سمعت الأصمعى يقول:فرسان الشعراء أقل من فرسان الحرب.

و قال:سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول:العلماء بالشعر أعز من الكبريت الأحمر.

و إذا كان الكلام المتعارف المتداول بين الناس يشق تمييزه،و يصعب نقده،و يذهب عن محاسنه الكثير،و ينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن،و كثير من حسنه بعين القبح.ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافا كثيرا،و تتباين آراؤهم فى تفضيل ما يفضل منه.فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم،و لا يتأتى فى مقدورهم،و لا يمثل بخواطرهم؟و قد حيّر القوم الذين لم يكن أحد أفصح منهم،و لا أتم بلاغه،و لا أحسن براعه،حتى دهشوا حين ورد عليهم،و ولهت عقولهم.و لم يكن عندهم فيه جواب غير ضرب الأمثال،و التحرّض عليه،و التوهم فيه،و تقسيمه أقساما،و جعله عضين.ل.

۱- آيه(۹۸)سوره النحل.

و کیف لا یکون أحسن الکلام،و قد قال اللّه تعالی: اَللّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِیثِ کِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِیَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلی ذِکْرِ اللّهِ، ذلِکَ هُدَی اللّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۱)استغنم فهم هذه الآیه، و کفاک.استفد علم هذه الکلمات،و قد أغناک،فلیس یوقف علی حسن الکلام بطوله،و لا تعرف براعته بکثره فصوله.إن القلیل یدل علی الکثیر،و القریب قد یهجم بک علی البعید.

ثم إنه سبحانه و تعالی لما علم من عظم شأن هذه المعرفه،و کبر محلها،و ذهابها علی أقوام،ذکر فی آخر هذه الآیه ما ذکر،و بیّن ما بیّن،فقال: ذلِکَ هُدَی اللّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشاءُ (۲)فلا یعلم ما وصفنا لک إلا بدایه من العزیز الحمید،و قال: وَ مَنْ یُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳)و قال: یُضِلُّ بِهِ کَثِیراً وَ یَهْدِی بِهِ کَثِیراً (۴)و قد بسطنا لک القول،رجاء إفهامک.و هذا المنهاج الذی رأیته إن سلکته یأخذ بیدک،و یدلک علی رشدک،و یغنیک عن ذکر براعته،آیه،آیه لک.

و اعلم أنا لم نقصد فیما سطرناه من الآیات،و سمیناه من السور و الدلالات،ذکر الأحسن و الأکشف و الأظهر؛لأنا نعتقد فی کل سوره ذکرناها،أو أضربنا عن ذکرها، اعتقادا واحدا فی الدلاله علی الإعجاز،و الکفایه فی التمنع و البرهان.و لکن لم یکن بدّ من ذکر بعض،فذکرنا ما تیسر،و قلنا فیما اتجه فی الحال و خطر.و إن کنا نعتقد أن الإعجاز فی بعض القرآن أظهر،و فی بعض أدق و أغمض.و الکلام فی هذا الفصل یجیء بعد هذا.

فاحفظ عنا فی الجمله ما کررنا،و السیر بعد ذلک فی التفصیل إلیک.و حصل ما أعطیناک من العلامه،ثم النظر علیک.

قد اعتمدنا علی أن الآیات تنقسم إلی قسمین:أحدهما ما یتم بنفسه،أو بنفسه و فاصلته.فینیر فی الکلام إناره النجم فی الظلام،و الثانی:ما یشتمل علی کلمتین أو کلمات إذا تأملتها وجدت کل کلمه منها فی نهایه البراعه،و غایه البلاغه.

و إنما یبین ذلک بأن تتصور هذه الکلمه مضمّنه بین أضعاف کلام کثیر،أو خطاب طویل،فتراها ما بینها تدل علی نفسها،و تعلو علی ما قد قرن منها لعلو جنسها.فإذا ضمت إلی أخواتها،و جاءت فی ذواتها،أرتک القلائد منظومه،کما کانت تریک عند تأمل الأفراده.

۱- آیه(۲۳)سوره الزمر.

۲- سبقت.

۳- سبقت.

۴- آیه(۲۶)سوره البقره.

منها اليواقيت منثوره،و الجواهر مبثوثه.

و لو لا ـ ما أكره من تضمين القرآن فی الشعر لأنشدتک ألفاظا وقعت مضمّنه لتعلم کیف تلوح علیه،و کیف تری بهجتها فی أثنائه،و کیف تمتاز منه،حتی أنه لو تأمله من لم یقرأ القرآن،لتبین أنه أجنبی من الکلام الذی تضمنه،و الباب الذی توسطه،و أنکر مکانه، و استکبر موضعه.ثم تناسبها فی البلاغه و الإبداع،و تماثلها فی السلاسه و الإغراب.ثم انفرادها بذلک الأسلوب،و تخصصها بذلک الترتیب.ثم سائر ما قدمنا ذکره مما نکره إعادته.

و أنت تری غیره من الکلام یضطرب فی مجاریه،و یختل تصرفه فی معانیه،و یتفاوت التفاوت الکثیر فی طرقه،و یضیق به النطاق فی مذاهبه،و یرتبک فی أطرافه و جوانبه، و یسلمه للتکلف الوحشی کثره تصرفه،و یحیله علی التصنع الظاهر موارد تنقله و تخلصه.

و نظم القرآن فی مؤتلفه و مختلفه،و فی فصله و وصله،و افتتاحه و اختتامه،و فی کل نهج یسلکه،و طریق یأخذ فیه،و باب یتهجم علیه،و وجه یؤمه علی ما وصفه تعالی به،لا یتفاوت،کما قال: وَ لَوْ کانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلافاً کَثِیراً (۱)و لا یخرج عن تشابهه و تماثله کما قال: قُرْآناً عَرَبِیًّا غَیْرَ ذِی عِوَجٍ (۲)و کما قال: کِتاباً مُتَشابِهاً (۳)و لا ـ یخرج عن إبانته کما قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ (۴)و غیره من الکلام کثیر التلون،دائم التغیر،یقف بک علی بدیع مستحسن،و یعقبه قبیح مستهجن،و یطلع علیک بوجه الحسناء، ثم یعرض للهجر بخد القبیحه الشوهاء،و یأتیک باللفظه المستنکره بین الکلمات التی هی کاللآلئ الزّهر.

و قد یأتیک باللفظه الحسنه بین الکلمات البهم.قد یقع إلیک منه الکلام المثبج و النظم المشوّش،و الحدیث المشوّه.و قد تجد منه ما لا یتناسب و لا یتشابه،و لا یتآلف و لا یتماثل.

و قد قیل فی وصف ما جری هذا المجری:

و شعر کبعر الکبش فرّق بینه لسان دعیّ فی القریض دخیل

و قال آخر:ء.

۱- آیه(۸۲)سوره النساء.

۲- آیه(۲۸)سوره الزمر.

۳- آیه(۲۳)سوره الزمر.

۴- آیه(۱۹۵)سوره الشعراء.

و بعض قریض القوم أولاد علّه یکدّ لسان الناطق المتحفّظ

فإن قال قائل:فقد نجد فی آیات القرآن ما یکون نظمه بخلاف ما وصفت،و لا تتمیز الکلمات بوجه البراعه،و إنما تکون البراعه عندک منه فی مقدار یزید علی الکلمات المفرده،و حدّ یتجاوز حدّ الألفاظ المستنده.و إن کان الأکثر علی ما وصفته به؟قیل له:

نحن نعلم أن قوله: حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ وَ أَخَواتُکُمْ وَ عَمّاتُکُمْ وَ خالاتُکُمْ (۱)إلی آخر الآیه لیس من القبیل الذی یمکن إظهار البراعه فیه و إبانه الفصاحه،و ذاک یجری عندنا مجری ما یحتاج إلی ذکره من الأسماء و الألقاب،فلا یمکن إظهار البلاغه فیه.فطلبها فی نحو هذا ضرب من الجهاله،بل الذی یعتبر فی نحو ذلک تنزیل الخطاب،و ظهور الحکمه فی الترتیب و المعنی.و ذلک حاصل فی هذه الآیه إن تأملت.

أ لا تری أنه بدأ بذکر الأم،لعظم حرمتها،و إدلائها بنفسها،و مکان بعضیّتها،فهی أصل لکل من یدلی بنفسه منهن،لأنه لیس فی ذوات الأنساب أقرب منها.

و لما جاء إلی ذوات الأسباب ألحق بها حکم الأم من الرضاع،لأن الرحم ینشره اللبن بما یغذوه.فیحصل بذلک أیضا لها حکم البعضیه،فنشر الحرمه بهذا المعنی،و ألحقها بالوالده.و ذکر الأخوات من الرضاعه،فنبه بها علی کل من یدلی بغیرها و جعلها تلو الأم من الرضاع.

و الکلام فی إظهار حکم هذه الآیه و فوائدها یطول،و لم نضع کتابنا لهذا.و سبیل هذا أن نذکره فی کتاب معانی القرآن إن سهل اللّه لنا إملاءه و جمعه،فلم تنفک هذه الآیه من الحکم التی تخلف حکمه الإعجاز فی النظم و التألیف.

و الفائده التی تنوب مناب العدول عن البراعه فی وجه الترصیف.فقد علم السائل أنه لم یأت بشیء،و لم یهتد للأغراض فی دلالات الکلام،و فوائده و متصرفاته و فنونه و متوجهاته.و قد یتفق فی الشعر ذکر الأسامی فیحسن موقعه،کقول أبی داود الأسدی:

إن یقتلوک فقد ثللت عروشهم بعتبه بن الحارث بن شهاب

بأشدهم کلبا علی أعدائه و أعزّهم فقدا علی الأصحاب

و قد یتفق ذکر الأسامی فیفسد النظم،و یقبح الوزن.و الآیات الأحکامیات التی لا بد فیها من أمر البلاغه،یعتبر فیها من الألفاظ ما یعتبر فی غیرها.و قد یمکن فیها،و کل موضع أمکن ذلک،فقد وجد فی القرآن فی بابه ما لیس علیه مزید فی البلاغه و عجیب النظم.ء.

۱- آیه(۲۳)سوره النساء.

ثم فی جمله الآیات ما إن لم تراع البدیع البلیغ فی الکلمات الأفراد و الألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلک مع ترکب الکلمتین و الثلاث.و یطرد ذلک فی الابتداء و الخروج،و الفواصل، و ما یقع بین الفاتحه و الخاتمه من الواسطه،أو باجتماع ذلک أو فی بعض ذلک ما یخلف الإبداع فی أفراد الکلمات.و إن کانت الجمله و المعظم علی ما سبق الوصف فیه.

و إذا عرف ما یجری إلیه الکلام،و ینهی إلیه الخطاب،و یقف علیه الأسلوب، و یختص به القبیل بان عند أهل الصنعه تمیّز بابه،و انفراد سبیله.و لم یشک البلیغ فی انتمائه إلی الجهه التی ینتمی إلیها،و لم یرتب الأدیب البارع فی انتسابه إلی ما عرف من نهجه.

و هذا کما یعرف طریقه مترسّل فی رسالته،فهو لا یخفی علیه بناء قاعدته و أساسه، فکأنه یری أنه یعد علیه مجاری حرکاته و أنفاسه.و کذلک فی الشعر و اختلاف ضروبه، یعرف المتحقق به طبع کل أحد،و سبیل کل شاعر.

و فی نظم القرآن أبواب کثیره لم نستوفها،و تقصیها یطول،و عجائبها لا تنقضی.

فمنها اللفظ و الإشارات.و إذا بلغ الکلام من هذا القبیل مبلغا ربما زاد الإفهام به علی الإیضاح،أو ساوی مواقع التفسیر و الشرح مع استیفائه شروطه،کان النهایه فی معناه، و ذلک کقوله: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی الَّذِی بارَکْنا حَوْلَهُ لِنُرِیَهُ مِنْ آیاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ (۱)فصول هذه الآیه و کلماتها علی ما شرحناه من قبل البلاغه و اللطف فی التقدم،و فی تضمن هذا الأمر العظیم،و المقام الکریم.

و یتلو هذه قوله: وَ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدیً لِبَنِی إِسْرائِیلَ (۲)هذا خروج، لو کان فی غیر هذا الکلام،لتصور فی صوره المنقطع.و قد تمثل فی هذا النظم لبراعته، و عجیب أمره،و موقع ما لا ینفک منه القول.

و قد یتبرأ الکلام المتصل بعضه من بعض،و یظهر علیه التثبیج و التباین للخلل الواقع فی النظم.و قد تصوّر هذا الفصل للطفه وصلا،و لم یبن علیه تمیز الخروج.ثم انظر کیف أجری هذا الخطاب إلی ذکر نوح،و کیف أثنی علیه،و کیف یلیق صفته بالفاصله،و یتم النظم بها،مع خروجها مخرج البروز من الکلام الأول إلی ذکره،و إجرائه إلی مدحه بشکره،و کونهم من ذریته یوجب علیهم أن یسیروا بسیرته،و أن یستنوا بسنته فی أن یشکرواء.

۱- آیه(۱)سوره الإسراء.

۲- آیه(۲)سوره الإسراء.

كشكره،و لا يتخذوا من دون اللّه وكيلا،و أن يعتقدوا تعظيم تخليصه إياهم من الطوفان لمّا حملهم عليه،و نجاهم فيه،حين أهلك من عداهم به.و قد عرفهم أنه إنما مؤاخذهم بذنوبهم و فسادهم فيما سلط عليهم من قبلهم و عاقبهم.

ثم عاد عليهم بالإفضال و الإحسان حتى يتذكروا و يعرفوا قدر نعمه اللّه عليهم،و على نوح الذى ولدهم،و هم من ذريته.فلما عادوا إلى جهالتهم و تمردوا فى طغيانهم،عاد عليهم بالتعذيب.ثم ذكر اللّه عز و جل فى ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصه،التى كانت لهم بكلمات قليله فى العدد،كثيره الفوائد،لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير و الكلام الطويل.

ثم لم يخل تضاعف الكلام مما ترى من الموعظه على أعجب تدرج،و أبدع تاريخ بقوله إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها (۱)و لم ينقطع بذلك الكلام.و أنت ترى الكلام يتبدد مع اتصاله،و ينتشر مع انتظامه.فكيف بإلقاء ما ليس منه فى أثنائه،و طرح ما بعده فى أدراجه إلى أن خرج إلى قوله: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا (۲)يعنى إن عدتم إلى الطاعه عدنا إلى العفو،ثم خرج خروجا آخر إلى ذكر القرآن.و على هذا فقس بحثك عن شرف الكلام،و ما له من علو الشأن،لا يطلب مطلبا إلا انفتح،و لا يسلك قلبا إلا انشرح،و لا يذهب مذهبا إلا استنار و أضاء،و لا يضرب مضربا إلا بلغ فيه السماء.

لا تقع منه على فائده،فقدّرت أنها أقصى فوائدها إلا قصّرت.و لا تظفر بحكمه فظننت أنها زبده حكمها إلا و قد أخللت.

إن الذى عارض القرآن بشعر امرئ القيس (۳)لأضل من حمار أهله،و أحمق من هبنّقه،لو كان شعره كله كالأبيات المختاره التى قدمناها،لأوجب البراءه من قوله:

و سنّ كسنّيق سناء و سنّم ذعرت بمدلاج الهجير نهوض

قال الأصمعى (۴):لا أدرى ما السنّ،و لا السنيق،و لا التسنم؟!و قال بعضهم:السنق أكمه،و قال فيها له قصريا عنز،و ساقا نعامه كفحل الهجان القيصرى العضوض و قوله:

عصافير و ذبان و دود و أجرأ من مجلّحه الذّئابه.

۱- آيه(۷)سوره الإسراء.

۲- آيه(۸)سوره الإسراء.

۳- سبقت ترجمته.

۴- سبقت ترجمته.

و زاد فی تقبیح ذلک وقوعه فی أبیات فیها:

فقد طوّفت فی الآفاق حتّی رضیت من الغنیمه بالإیاب

و کل مکارم الأخلاق صارت إلیه همّتی و به اکتسابی

و کقوله فی قصیده قالها فی نهایه السقوط:

أزمان فوها کلما نبهتها کالمسک فاح و ظل فی القدّام

أ فلا تری أظعانهنّ بواکرا کالنّخل من شوکان حین صرام

و کأن شاربها أصاب لسانه موم یخالط جسمه بسقام

و کقوله:

لم یفعلوا فعل آل حنظله إنهم جیر بئسما ائتمروا

لا حمیریّ و فی و لا عدس و لا اس ت غیر یحکّها الثّفر

إن بنی عوف ابتنوا حسبا ضیّعه الداخلون إذ غدروا

و کقوله:

أبلغ شهابا و أبلغ هل أتاک الحیز مال

إنا ترکنا منکم قتلی بخوعی و سبیا کالسعالی

یمشین بین رحالنا معترفات بجوع و هزال

و لم یقع مثل ذلک له وحده فقد قال الأعشی (۱):

فأدخلک اللّه برد الجنان جذلان فی مدخل طیب

و قال أیضا:

فرمیت غفله عینه عن شأنه فأصبت حبه قلبها و طحالها

و قال فی فرسه:

و يأمر لليحموم كل عشيّه بقتّ و تعليق فقد كاد يسنق

و قال:«شاو مشلّ شلول شلشل شول».

و هذه الألفاظ فی معنی واحد و قد وقع لزهير (۲)نحوه كقوله:

فأقسمت جهدا بالمنازل من منی و ما سحفت فيه المقاديم و القمل

كيف يقال هذا فی قصيده يقول فيها:

و هل ينبت الخطی إلا وشيجه و تغرس إلا فی منابتها النّخله.

۱- سبقت ترجمته.

۲- سبقت ترجمته.

و كقول الطرماح (۱):

سوف تدنيک من لميس سبنتا ه أمارت بالبول ماء الكراض

السبنتاه:الناقه الصلبه.و الكراض:ماء الفحل.أسالت ماء الفحل مع البول فلم تعقد عليه،و لم تحمل فتضعف.و المائر:السائل.

فإن قال قائل:أجدک تحاملت على امرئ القيس،و رأيت أن شعره يتفاوت بين اللين و الشراسه،و بين اللطف و الشكاسه،و بين التوحش و الاستئناس،و التقارب و التباعد.

و رأيت الكلام الأعدل أفضل،و النظام المستوثق أكمل،و أنت تجد البحترى (۲)يسبق فى هذا الميدان،و يفوت الغايه فى هذا الشأن.و أنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام،و يقدمون رأيه فى البلاغه على كل رأى.

و كذلک تجد لأبى نواس من بهجه اللفظ،و دقيق المعنى ما يتحير فيه أهل اللفظ، و يقدمه الشطار و الظرف على كل شاعر،و يرون لنظمه روعه لا يرون لنظم غيره،و زبرجا لا يتّفق لسواه.فكيف يعرف فضل ما سواه عليه؟ فالجواب أن الكلام فى أن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن و قد تقدم.و إذ كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس و هو كبيرهم الذى يقرون بتقدمه،و شيخهم الذى يعترفون بفضله، و قائدهم الذى يأتمون به،و إمامهم الذى يرجعون إليه.كيف سبيله؟و كيف طريق منزلته عن منزله نظم القرآن؟و إنه لا يخلط بشعره غبار ذلک النظم.و هو إذا لحظ ذلک كان كما قال:

فأصبحت من ليلى الغداه كناظر مع الصبح فى إعجاز نجم مغرّب

و كما قال أيضا:

راحت مشرقه و رحت مغرّبا فمتى التقاء مشرق و مغرّب

و إذا كنا قد أبّنّا فى القاعده ما علمت،و فصلنا لک فى شعره ما عرفت،لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر شاعر،و كلام كل بليغ.و القليل يدل على الكثير.

و قد بيّنا فى الجمله مباينه أسلوب نظم القرآن جميع الأساليب،و مزيته عليها فى النظم و الترتيب،و تقدمه عليها فى كل حكمه و براعه.ثم تكلمنا على التفصيل على ما شهدت،و لا يبقى علينا بعد ذلک سؤال.ه.

۱- الطرماح هو:ابن حكيم من طى،كان من فحول الشعراء الإسلاميين و فصحائهم،نشأ فى الشام، و انتقل إلى الكوفه بعد ذلک،و اعتقد مذهب الشراه و الأزارقه.مات سنه(۱۰۰ ه).له ترجمه فى: خزانه الأدب ۴۱۸/۳.و الأغانى ۱۵۶/۱۰،و الجمهره(۱۹۰).

۲- سبقت ترجمته.

ثم نقول أنت تعلم أن من يقول بتقدم البحترى فى الصنعه،به من الشغل فى تفضيله على ابن الرّومى،أو تسويه ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس و من فى طبقته.

و كذلك أبو نواس إنما يعدل شعره بشعر أشكاله،و يقابل كلامه بكلام أضرابه من أهل عصره.و إنما يقع بينهم التباين اليسير و التفاوت القليل.فأما يظنّ ظانّ أو يتوهم متوهم أن جنس الشعر معارض لنظم القرآن فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ (۱)و إنما هى خواطر يغير بعضها على بعض،و يقتدى فيها بعض ببعض، و الغرض الذى يرمى إليه و يصح التوافى عليه،فى الجمله،فهو قبيل متداول،و جنس متنازع،و شريعه موروده،و طريقه مسلوكه.

أ لا ترى إلى ما روى عن الحسين (۲)بن الضحاك قال:أنشدت أبا نواس (۳)قصيدتى التى فيها:

و شاطرىّ اللسان مختلق التّك ريه زان المجون بالنّسك

كأنه نصب كأنه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

قال:فأنشدنى أبو نواس بعد أيام قصيدته التى يقول فيها:

أعاذل أعتبت الإمام و اعتبا و أعربت عما فى الضمير و أعربا

و قلت لساقيها أجزها فلم أكد ليأبى أمير المؤمنين و أشربا

فجوّزها عنى عقارا ترى لها إلى الشّرف الأعلى شعاعا مطنبا

إذا عبّ فيها شارب القوم خلّته يقبّل فى داج من الليل كوكبا

قال:فقلت له:يا أبا على هذه مقالتى،فقال:أ تظن أنه يروى لك معنى و أنا حى..؟ فتأمل هذا الأخذ،و هذا الوضع،و هذا الاتباع.أما الخليع فقد رأى الإبداع فى المعنى.فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنّه؛لأن قوله:يكرع ليس بصحيح،و فيه ثقل بيّن و تفاوت، و فيه إحاله؛لأن القمر لا يصح تصوّرا أن يكرع فى نجم.

و أما قول أبى نواس:إذا عب فيها،فكلمه قد قصد فيها المتانه،و كان سبيله أن يختاره.

۱- آيه(۲۱)سوره الحج.

۲- الحسين بن الضحاك،ولد فى البصره،و نشأ فيها،و نادم الخلفاء من بنى العباس،و كان خليعا فاسدا،و هو أول من نادم الأمين،و له فيه مدائح كثيره.مات سنه(۲۵۰ ه).له ترجمه فى:الأغانى ۱۷۰/۶،و وفيات الأعيان ۱۵۴/۱،و شذرات الذهب ۱۲۳/۲.

۳- سبقت ترجمته.

سواها من ألفاظ الشرب،و لو فعل ذلک کان أملح.و قوله شارب القوم فیه ضرب من التکلف الذی لا بد له منه،أو من مثله،لإقامه الوزن.

ثم قوله:«خلته یقبل فی داج من اللیل کوکبا»تشبیه بحاله واحده من أحواله،و هی أن یشرب حیث لا ضوء هناک،و إنما یتناوله لیلا فلیس بتشبیه مستوفی علی ما فیه من الوقوع و الملاحه.و قد قال ابن الرومی (۱)ما هو أوقع منه و أملح و أبدع:

و مهفهف تمّت محاسنه حتی تجاوز منیه النّفس

تصبو الکئوس إلی مراشفه و نحن فی یده إلی الحبس

أبصرته و الکأس بین فم منه و بین أنامل خمس

و کأنها و کأن شاربها قمر یقبّل عارض الشمس

و لا شک فی أن تشبیه ابن الرومی أحسن و أعجب،إلا أنه تمکن من إیراده فی بیتین و هما مع سبقهما إلی المعنی أتیا به فی بیت واحد.

و إنما أردت بهذا أن أعرفک أن هذه أمور متقاربه،یقع فیها التنافس و التعارض و الأطماع،متعلقه بها،و الهمم تسمو إلیها.و هی ألف طباعنا،و طوع مدارکنا،و مجانس لکلامنا.

و إعجاب قوم بنحو هذا و ما یجری مجراها،و إیثار أقوام لشعر البحتری علی أبی تمام،و عبد الصمد،و ابن الرومی،و تقدیم قوم کل هؤلاء أو بعضهم علیه،و ذهاب قوم عند التفرقه لیس بأمر یضرّ بنا،و لا سبب یعترض علی أفهامنا.

و نحن نعمد إلی بعض قصائد البحتری فنتکلم علیها کما تکلمنا علی قصیده امرئ القیس،لیزداد الناظر فی کتابنا بصیره،و یستخلص من سر المعرفه سریره،و یعلم کیف تکون الموازنه،و کیف تقع المشابهه و المقاربه،و نجعل تلک القصیده التی نذکرها أجود شعره.

سمعت الصّاحب إسماعیل بن عباد یقول:سمعت أبا الفضل بن العمید یقول:

سمعت أبا مسلم الرّستمی یقول:سمعت البحتری یذکر أن أجود شعر قاله:

«أهلا بذلکم الخیال المقبل».

قال:و سمعت أبا الفضل بن العمید یقول:أجود شعره هو قوله:

«فی الشیب زجر له لو کان ینزجر».ه.

۱- سبقت ترجمته.

قال:و سئلت عن ذلک فقلت:البحترى أعرف بشعر نفسه من غيره.فنحن الآن نقول فى هذه القصيده ما يصلح فى مثل هذا قوله:

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذى نهواه أو لم يفعل

برق سرى فى بطن وجره فاهتدت بسناه أعناق الرّكاب الضّلّل

البيت الأول فى قوله:ذلكم الخيال،ثقل روح،و تطويل و حشو،و غيره أصلح له، و أخف منه قول الصّنوبرى:

أهلا بذاك الزّور من زور شمس بدت فى فلك الدّور

و عذوبه الشعر تذهب بزياده حرف أو نقصان حرف،فيصير إلى الكزازه،و تعود ملاحته بذلک ملوحه،و فصاحته عيا،و براعته تكلفا،و سلاسته تعسفا،و ملامسته تلويا و تعقدا.فهذا فصل و فيه شىء آخر،و هو:أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال،حال إقباله.فأما أن يحكى الحال التى كانت و سلفت على هذه العياده،ففيه عهده.و فى تركيب الكلام عن هذا المعنى عقده،و هو لبراعته و حذقه فى هذه الصنعه يعلق نحو هذا الكلام،و لا ينظر فى عواقبه،لأن ملاحه قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور.

ثم قوله:«فعل الذى نهواه أو لم يفعل»ليست بكلمه رشيقه،و لا لفظه ظريفه،و إن كانت كسائر الكلام.

فأما بيته الثانى فهو عظيم الموقع فى البهجه و بديع المأخذ،حسن الرواء،أنيق المنظر و المسمع،يملأ القلب و الفهم و يفرح الخاطر.و ترى بشاشته فى العروق،و كان البحترى يسمى نحو هذه الأبيات:«عروق الذهب».و فى نحوه ما يدل على براعته فى الصناعه، و حذقه فى البلاغه.

و مع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل،مع الديباجه الحسنه،و الرونق المليح.و ذلک أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه فى مسراه،كما يقال:إنه يسرى كنسيم الصبا فيطيب ما مر به.كذلک يضىء ما مر حوله و ينور ما مر به.و هذا غلوّ فى الصنعه،إلا أن ذكره:«بطن و جره»حشو،و فى ذكره خلل؛لأن النور القليل يؤثر فى بطون الأرض و ما اطمأن منها، بخلاف ما يؤثر فى غيرها.فلم يكن من سبيله أن يربط ذلک ببطن وجره،و تحديده المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر:«سقط اللوى بين الدخول فحومل، فتوضح فالمقراه»لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربع حدود.كأنه يريد بيع المنزل،فيخشى إن أخل بحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا.فهذا باب.

ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر و دقه المطلب و لطف المسلك.و هذا الذى ذكر يضاد هذا الوجه،و يخالف ما يوضع عليه أصل الباب.

و لا يجوز أن يقدر مقدر أن البحترى قطع الكلام الأول و ابتدأ بذكر برق لمع من ناحيه حبيبه،من جهه بطن و جره،لأن هذا القطع إن كان فعله كان خارجا به عن النظم المحمود، و لم يكن مبدعا.ثم كان لا تكون فيه فائده،لأن كل برق شعل و تكرر وقع الاهتداء به فى الظلام.و كان لا يكون بما نظمه مفيدا،و لا متقدما،و هو على ما كان من مقصده،فهو ذو لفظ محمود،و معنى مستحب غير مقصود.و يعلم بمثله أنه طلب العبارات،و تعليق القول بالإشارات.

و هذا من الشعر الحسن الذى يحلو لفظه و تقل فوائده كقول القائل:

و لما قضينا من منى كل حاجه و مسّح بالأركان من هو ماسح

و شدّت على حدب المهارى رحالنا و لا ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا و سالت بأعناق المطىّ الأباطح

هذه ألفاظ بعيده المطالع و المقاطع،حلوه المجانى و المواقع،قليله المعانى و الفوائد.فأما قول البحترى بعد ذلك:

من غاده منعت و تمنع نيلها فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

كالبدر غير مخيل و الغصن غ ير مميل و الدّعص غير مهيّل

فالبيت الأول على ما تكلف فيه من المطابقه و تجشم الصنعه ألفاظه أوفر من معانيه، و كلماته أكثر من فوائده.و تعلم أن القصد وضع العبارات فى مثله.و لو قال:هى ممنوعه مانعه،كان ينوب عن تطويله،و تكثيره الكلام و تهويله ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان.

و أما البيت الثانى فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر و الغصن و الدعص أمر منقول متداول و لا فضيله فى التشبيه بنحو ذلك.و إنما يبقى تشبيهه ثلاثه أشياء فى البيت،و هذا أيضا قريب لأن المعنى مكرر و يبقى له بعد ذلك شىء آخر،و هو تعلمه للترصيع فى البيت كله.

إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضرب من التكلف،لأن التشبيه بالغصن كاف.فإذا زاد فقال كالغصن غير معوج،كان ذلك من باب التكلف خللا.و كان ذلك زياده يستغنى عنها.

و كذلك قوله:كالدعص غير مهيل،لأنه إذا انهال خرج عن أن يكون مطلق التشبيه مصروفا إليه.فلا يكون لتقييده معنى و أما قوله:

ما الحسن عندك يا سعاد بمحسن فيما أتاه و لا الجمال بمجمل

عذل المشوق و إن من سيما الهوى فى حيث يجهله لجاج العذّل

قوله فى البيت الأول:عندك حشو.و ليس بواقع و لا- بديع،و فيه كلفه.و المعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء.

و فيه شىء آخر لأنه يذكر أن حسنا لم يحسن فى تهييج وجده،و تهييم قلبه.و ضد هذا المعنى هو الذى يميل إليه أهل الهوى و الحب.و بيت كشاجم أسلم من هذا و أبعد من الخلل و هو قوله:

بحياه حسنك أحسنى،و بحق من جعل الجمال عليك وقفا أجملى

و أما البيت الثانى فإن قوله:فى حيث حشا بقوله:فى،و وقع ذلك مستنكرا وحشيا نافرا عن طبعه،جافيا فى وضعه،فهو كرقعه من جلد فى ديباج حسن.فهو يمحو حسنه، و يأتى على جماله.

ثم فى المعنى شىء،لأن لجاج العذل لا- يدل على هوى مجهول و لو كان مجهولا- لم يهتد.و العذل عليه،فعلم أن المقصد استجلاب العبارات دون المعانى.ثم لو سلم من هذا الخلل،لم يكن فى البيت معنى بديع و لا- شىء يفوت قول الشعراء فى العذل،فإن ذلك جملهم الذلول،و قولهم المكرر،و أما قوله:

ما ذا عليك من انتظار متيّم؟ بل ما يضرّك وقفه فى منزل؟

إن سيل عىّ عن الجواب فلم يطق رجعا فكيف يكون إن لم يسأل؟

لست أنكر حسن البيتين و ظرفهما،و رشاقتهما و لطفهما و ماءهما و بهجتهما،إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع،لأنه لم يجر لمشافهه العاذل ذكر،و إنما جرى ذكر العذّال على وجه لا يتصل هذا البيت به و لا يلائمه.

ثم الذى ذكره من الانتظار و إن كان مليحا فى اللفظ فهو فى المعنى متكلف،لأن الواقف فى الدار لا ينتظر أمرا،و إنما يقف تحسرا و تذللا و تحيرا.

و الشطر الأخير من البيت واقع،و الأول مستجلب،و فيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر.لأن وضع البيت يقتضى تقدم عذل على الوقوف،و لم يحصل ذلك مذكورا فى شعره من قبل.

و أما البيت الثانى:فإنه معلق بالأول لا- يستقل إلا به.و هم يعيبون وقوف البيت على غيره،و يرون أن البيت التام هو المحمود،و المصراع التام بنفسه بحيث لا يقف على المصراع الآخر أفضل و أتم و أحسن.

و قوله:فكيف يكون إن لم يسأل،مليح جدا،و لا تستمر ملاحه ما قبله عليه،و لا يطرد فيه الماء اطراده فيه.

و فيه شيء آخر،لأنه لا يصلح أن يكون السؤال سببا لأن يعيا عن الجواب.و ظاهر القول يقتضيه،فأما قوله:

لا تكلفنّ لى الدموع فإن لى دمعا ينمّ عليه إن لم يفضل

و لقد سكنت إلى الصدود من النوى و الشّرى أرى عند طعم الحنظل

و كذاك طرفه حين أوجس ضربه فى الرأس هان عليه فصد الأكحل

فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم فى طلب الإسعاد بالدموع و الإسعاف بالبكاء.

و مخالف لأول كلامه لأنه يفيد مخاطبه العذل.و هذا يفيد مخاطبه الرفيق.و قد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ و تصنيعها دون ضبط المعانى و ترتيبها.

و لذلك قال اللّه عز و جل: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ. وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (۱)فأخبر أنهم يتبعون القول حيث توجه بهم،و اللفظ كيف أطاعهم،و المعانى كيف تتبع ألفاظهم.و ذلك خلاف ما وضع عليه الإبانه عن المقاصد بالخطاب.و لذلك كان طلب الفصاحه فيه أسهل و أمكن،فصار بهذا أبلغ خطابهم.ثم لو أن هذا البيت و ما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا،لم يكن فى ذلك شيء يفوت شعر شاعر،أو كلام متكلم.

و أما قوله:و الشرى أرى،فإنه و إن كان قد تصنع له من جهه الطباق،و من جهه التجنيس المقارب،فهى كلمه ثقيله على اللسان،و هم يذمون نحو هذا.كما عابوا على أبى تمام قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه و الورى معى و متى ما لمته لمته وحدى

ذكر لى الصاحب بن عباد:أنه جارى أبا الفضل بن العميد فى محاسن القصيده،حتى انتهى إلى هذا البيت،فذكر له أن قوله:أمدحه،أمدحه،معيب لثقله من جهه تدارك حروف الحلق.

ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا فى هذه النكته،فعلمت أن ذلك شيء عند أهل الصنعه معروف.ثم إن قوله:عند أكل الحنظل ليس بحسن و لا واقع.ء.

۱- آيه(۲۲۴:۲۲۶)سوره الشعراء.

و أما البيت الثالث فهو أجنبى من كلامه،غريب فى طباعه،نافر من جمله شعره، و فيه كزازه و فجاجه،و إن كان المعنى صالحا.فأما قوله:

و أغرّ فى الزمن البهيم محجّل قد رحت منه على أغرّ محجّل

كالهيكل المبنىّ إلا أنه فى الحسن جاء كصوره فى هيكل

فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروج حسن،بل هو مقطوع عما سلف من الكلام.

و عامّه خروجه نحو هذا،و هو غير بارع فى هذا الباب،و هذا مذموم معيب منه،لأن من كان صناعته الشعر و هو يأكل به،و تغافل عما يدفع إليه فى كل قصيده،و استهان بأحكامه و تجويده مع تتبعه لأن يكون عامه ما يصدر به أشعاره من النسيب عشره أبيات،و تتبعه للصنعه الكثيره،و تركيب العبارات و تنقيح الألفاظ و تزويرها،كان ذلك أدخل فى عيبه، و أدل على تقصيره أو قصوره،و إنه لا يقع له الخروج منه.

و أما قوله:«و أغرّ فى الزمن البهيم محجل»فإن ذكر التحجيل فى الممدوح قريب، و ليس بجيد.و قد يمكن أن يقال:بأنه إذا قرن بالأغر حسن و جرى مجراه،و انخرط فى سلكه،و أهوى إلى مضماره،و لم ينكر لمكانه من جواره.فهذا عذر،و العدول عنه أحسن.

و إنما أراد أن يرد العجز على الصدر،و يأتى بوجه فى التجنيس.و فيه شىء؛لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطى الأغر الأول،و رائحا عليه.و لو سلم من ذلك لم يكن فيه ما يفوت حدود الشعراء و أقاويل الناس.فأما ذكر الهيكل فى البيت الثانى و رده عجز البيت عليه،و ظنه أنه قد ظفر بهذه اللفظه،و عمل شيئا حتى كررها،فهى كلمه فيها ثقل، و نحن نجدهم إذا أرادوا أن يصنعوا نحو هذا قالوا:ما هو إلا صوره،و ما هو إلا تمثال،و ما هو إلا دميه،و ما هو إلا ظبيه،و نحو ذلك من الكلمات الخفيفه على القلب و اللسان.

و قد استدرك هو أيضا على نفسه فذكر أنه كصوره فى هيكل،و لو اقتصر على ذكر الصوره و حذف الهيكل كان أولى و أجمل.و لو أن هذه الكلمه كررها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها و أفزعوهم بذكرها و ذلك من كلامهم،و شبيه بصناعتهم،و أما قوله:

وافى الضّلوع يشدّ عقد حزامه يوم اللقاء على معمّ مخول

أخواله للرّستمين بفارس و جدوده للتّبّعين بموكل

نبل المحزم مما يمدح به الخيل،فهو لم يأت فيه ببديع.و قوله:يشد عقد حزامه داخل فى التكلف،و التعسف لا يقبل من مثله.و إن قبلناه من غيره لأنه يتتبع الألفاظ و ينقدها نقدا شديدا.فهلا قال:يشد حزامه،أو يأتى بحشو آخر سوى العقد.فقد عقد هذا

البیت بذکر العقد.ثم قوله:«یوم اللقاء»حشو آخر لا یحتاج إلیه.و أما البیت الثانی:

فمعناه أصلح من ألفاظه،لأنها غیر مجانسه لطباعه،و فیها غلظ و نفار و أما قوله:

یهوی کما تهوی العقاب و قد رأت صیدا و ینقض انقضاض الأجدل

متوجس برقیقتین کأنما تریان من ورق علیه موصل

ما إن یعاف قذی و لو أوردته یوما خلائق حمدویه الأحول

البیت الأول صالح و قد قاله الناس،و لم یسبق إلیه،و لم یقل ما لم یقولوه،بل هو منقول.و فی سرعه عدو الفرس تشبیهات لیس هذا بأبدعها،و قد یقولون:یفوت الطرف و یسبق الریح،و یجاری الوهم،و یکدّ النظر،و لو لا أن الإتیان علی محاسن ما قالوه فی ذلک یخرج الکلام عن غرض الکتاب،نقلت لک جمله مما ذهبوا إلیه فی هذا المعنی،فتتّبع تعلم أنه لم یأت فیها بما یجل عن الوصف،أو یفوت منتهی الحد.

علی أن الهویّ یذکر عند الانقضاض خاصه،و لیس للفرس هذه الصفه فی الحقیقه إلا أن یشبه جده فی العدو بحاله انقضاض البازی و العقاب.و لیست تلک الحاله بأسرع أحوال طیرانها.

و أما البیت الثانی فقوله:إن الأذنین کأنهما من ورق موصل،و إنما أراد بذلک حدتهما،و سرعه حرکتهما،و إحساسهما بالصوت،کما یحس الورق بحفیف الریح.

و ظاهر التشبیه غیر واقع،و إذا ضمن ما ذکرنا من المعنی کان المعنی حسنا.و لکن لا یدل علیه اللفظ،و إنما یجری مجری المضمن.و لیس هذا البیت برائق اللفظ،و لا مشاکل فیه لطیفه غیر قوله:متوجس برقیقتین.فإن هذا القدر هو حسن.

و أما البیت الثالث:فقد ذکرنا فیما مضی من الکتاب أنه من باب الاستطراد،و نقلنا نظائر ذلک من قول أبی تمام و غیره.و قطعه أبی تمام فی نهایه الحسن فی هذا المعنی.

و الذی وقع للبحتری فی هذا البیت عندی لیس یجید فی لفظ و لا معنی.و هو بیت وحش جدا،قد صار قذی فی عین هذه القصیده،بل وخزا فیها و وبالا علیها،قد کدر صفاءها، و أذهب بهاءها و ماءها،و طمس بظلمته سناها.

و ما وجه مدح الفرس بأنه لا یعاف قذی من المیاه إذا وردها؟کأنه أراد أن یسلک مسلک بشار فی قوله:«و لا یشرب الماء إلا بدم»و إذا کان لهذا الباب مجانبا،و عن هذا السمت بعیدا،فهلا وصفها بعزه الشرب کما وصفها المتنبی فی قوله:

وصول إلی المستصعبات بخیله فلو کان قرن الشمس ماء لأوردا

و هلا سلك فيه مسلك القائل:

و إنى للماء الذى شابه القذى إذا كثرت وزّاده لعيوف

ثم قوله:«و لو أردته يوما حشو بارد»ثم قوله:«حمدويه الأحول»وحش جدا فما أمقت هذا البيت و أبغضه و ما أثقله و أسخفه.و إنما غطى على عينه عيبه،و زين له إيراده طمعه فى الاستطراد.و هلا طمع فيه على وجه لا يفض من بهجه كلامه،و لا معنى ألفاظه.

فقد كان يمكن ذلك و لا يتعذر.فأما قوله:

ذنب كما سحب الرداء يذبّ عن عرف و عرف كالقناع المسبل

تتوهم الجوزاء فى أرساغه و البدر فوق جبينه المتهلل

فالبيت الأول:وحش الابتداء،منقطع عما سبق من الكلام.و قد ذكرنا أنه لا يهتدى لوصل الكلام و نظام بعضه إلى بعض.و إنما يتصنع لغير هذا الوجه،و كان يحتاج أن يقول:

ذنب كالرداء،فقد حذف الوصل غير متسق و لا مليح،و كان من سبيله أن لا يخفى عليه، و لا يذهب عن مثله.ثم قوله:«كما سحب الرداء»قبيح فى تحقيق التشبيه،و ليس بواقع و لا مستقيم فى العباره إلا على إضمار أنه ذنب يسحبه كما يسحب الرداء.و قوله:«يذب عن عرف»ليس بحسن و لا صادق،و المحمود ما ذكره امرؤ القيس و هو قوله:«فويق الأرض ليس بأعزل»و أن قوله:«تتوهم الجوزاء فى أرساغه»فهو تشبيه مليح،و لكنه لم يسبق إليه و لا انفرد به.

و لو نسخت لك ما قاله الشعراء فى تشبيه الغره بالهلال،و البدر و النجم،و غير ذلك من الأمور،و تشبيه الحجول،لتعجبت من بدائع قد وقعوا عليها،و أمور مليحه قد ذهبوا إليها.و ليس ذلك موضع كلامنا،فتتبع ذلك فى أشعارهم تعلم ما وصفت لك.

و اعلم أنا تركنا بقيه كلامه فى وصف الفرس،لأنه ذكر عشرين بيتا فى ذلك.و الذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده،و لا يعدو ما تركناه أن يكون متوسطا إلى حد لا يفوت طريقه الشعراء.

و لو تتبعت أقاويل الشعراء فى وصف الخيل علمت أنه و إن جمع فأوعى و حشر فنادى،ففيهم من سبقه فى ميدانه،و منهم من ساواه فى شأوه،و منهم من داناه.فالقبيل واحد،و النسيج متشاكل،و لو لا كراهه التطويل،لنقلت جمله من أشعارهم فى ذلك لتقف على ما قلت.فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله فى المدح فى هذه القصيده قال:

لمحمد بن علىّ الشرف الذى لا يلحظ الجوزاء إلا من عل

و سحابه لو لا تتابع مزنها فينا لراح المزن غير مبخّل

و الجود يعذله عليه حاتم سرفا و لا جود لمن لم يعذل

البيت الأول منقطع عما قبله،على ما وصفنا به شعره:من قطعه المعانى،و فصله بينها،و قله تأنيه لتجويد الخروج و الوصل.و ذلك نقصان فى الصناعه،و تخلف فى البراعه،و هذا إذا وقع فى مواضع قليله عذر فيها.و أما إذا كان بناء الغالب من كلامه على هذا فلا عذر له.

و أما المعنى الذى ذكره فليس بشىء مما سبق إليه.و هو شىء مشترك فيه.و قد قالوا فى نحوه و إن مجده سماء المساء،و قالوا فى نحوه الكثير الذى يصعب نقل جميعه،و كما قال المتنبى:

و عزمه بعثتها همّه زحل من تحتها بمكان الترب من زحل

و حدثنى إسماعيل بن عباد أنه رأى أبا الفضل بن العميد قام لرجل قال لمن حضره:

أ تدرى من هذا؟هو الذى قال فيه أبيه البحترى:

«لمحمد بن القاسم الشرف الذى».

فذلك يدل على استعظامه للميت بما مدح به من البيت.

و البيت الثانى فى تشبيه جوده بالسحاب قريب.و هو حديث مكرر ليس ينفك مديح شاعر منه.و كان من سبيله أن يبدع فيه زياده إبداع كما قد يقع لهم فى نحو هذا.و لكنه لم يتصنع له و أرسله إرسالا.

و قد وقع فى المصراع الثانى ضرب من الخلل،و ذلك أن المزن إنما يبخل إذا منع نيله.فذلك موجود فى كل نيل ممنوع،و كلاهما محمود مع الإسعاف.فإن أسعف أحدهما و منع الآخر لم يمكن التشبيه.و إن كان إنما شبه غالب أحدهما بالآخر.و ذكر قصور أحدهما عن صاحبه،حتى أنه قد يبخل فى وقت و الآخر لا يبخل بحال،فهذا جيد و ليس فى حمل الألفاظ على الإشاره إلى هذا شىء.

و البيت الثالث:و إن كان معناه مكررا فلفظه مضطرب بالتأخير و التقديم.يشبه ألفاظ المبتدئين و أما قوله:

فضل و إفضال و ما أخذ المدى بعد المدى كالفاضل المتفضّل

سار إذا ادّلج العفاه إلى الندى لا يصنع المعروف غير معجّل

فالبيت الأول منقطع عما قبله،و ليس فيه شىء غير التجنيس،الذى ليس ببديع لتكرره على كل لسان.و قوله:ما أخذ المدى فإنه لفظ مليح و هو كقول القائل:

«قد أركب الآله بعد الآله»،و روى:«الحاله بعد الحاله».

و كقول امرئ القيس:«سموّ حباب الماء حالا على حال»و لكنها طريقه مذلّله.فهو فيها تابع.و أما البيت الثانى فقريب فى اللفظ و المعنى.و قوله:«لا يصنع المعروف»ليس بلفظ محمود،و أما قوله:

عال على نظر الحسود كأنما جذبته أفراد النجوم بأحبل

أو ما رأيت المجد ألقى رحله فى آل طلحه ثمّ لم يتحوّل

فالبيت الأول منكر جدا فى جر النجوم بالأرسان موضعه إلى العلو.و التكلف فيه واقع.

و البيت الثانى أجنبى عنه،بعيد منه.و افتتاحه ردىء،و ما وجه الاستفهام و التقرير و الاستبانه و التوقيف؟و البيتان أجنبيان من كلامه،غريبان فى قصيدته،و لم يقع له فى المدح فى هذه القصيده شىء جيد.أ لا ترى أنه قال بعد ذلك:

نفسى فداؤك يا محمد من فتى يوفى على ظلم الخطوب فتنجلى

إنى أريد أبا سعيد و العدا بينى و بين سحابه المتهلّل

كأن هذا ليس من طبعه و لا من سبكه و قوله:

مضر الجزيره كلّها و ربيعه ال خابور توعدنى و أزد الموصل

قد جدت بالطرف الجواد فثنه لأخيك من أدد أبيك بمنصل

البيت الأول حسن المعنى،و إن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين.

و هذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ و أبدع منه و أرق منه كقوله:

إذا أغضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلّهم غضابا

و البيت الثانى قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف،و هو قبيح اللفظ،حيث يقول فيه:فثنّه لأخيك من أدد أبيك.و من آخذه بهذا التعرض لهذا السجع و ذكر هذا النسب حتى أفسد به شعره.

و أما قوله بعد ذلك فى وصف السيف يقول:

يتناول الروح البعيد مثالها عفوا و يفتح فى القضاء المقفل

بإبانه فى كل حتف مظلم و هدايه فى كل نفس مجهل

ماض و إن لم تمضه يد فارس بطل و مصقول و إن لم يصقل

ليس لفظ البيت الأول بمضاه لديباجه شعره،و لا له بهجه نظمه،لظهور أثر التكلف عليه،و تبين ثقل فيه.

ص: ۱۵۱

و أما«القضاء المقفل»و فتحه،فكلام غير محمود و لا مرضى!و استعاره لو لم يستعرها كانت أولى به!و هلّا عيب عليه كما عيب على أبى تمام قوله:

فضربت فى أخدعيه ضربه غادرته عودا ركوبا

و قالوا:يستحق بهذه الاستعاره أن يصفع فى أخدعيه!و قد اتبعه البحترى فى استعاره الأخدع ولوعا باتباعه،فقال فى الفتح:

و إنى و قد بلغتنى الشرف العلى و أعتقت من ذلّ المطامع أخدعى

إن شيطانه،حيث زين له هذه الكلمه،تابعه حين حسن عنده هذه اللفظه،لخبيث مارد و ردىء معاند،أراد أن يطلق أعنه الذم فيه،و يسرّح جيوش العتب إليه.و لم يقع بقفل القضاء،حتى جعل للحتف ظلمه تجلى بالسيف،و جعل السيف هاديا فى النفس المجهل الذى لا يهتدى إليه!و ليس فى هذا مع تحسين اللفظ و تنميقه شىء.لأن السلاح و إن كان معيبا فإنه يهتدى إلى النفس.و كان يجب أن يبدع فى هذا إبداع المتنبى فى قوله:

كأنّ إلهام فى الهيجا عيون و قد طبعت سيوفك من رقاد

و قد صغت الأسنه من هموم فما يخطرن إلا فى فؤاد

فالاهتداء على هذا الوجه فى التشبيه بديع حسن،و فى البيت الأول شىء آخر،و ذلك أن قوله:«و يفتح فى القضاء»فى هذا الموضع حشو ردىء يلحق بصاحبه اللكنه،و يلزمه الهجنه.

أما البيت الثالث:فإنه أصلح هذه الأبيات.و إن كان ذكر الفارس حشوا و تكلفا و لغوا.لأن هذا لا يتغير بالفارس و الراجل.على أنه ليس فيه بديع،و أما قوله:

يغشى الوغى و التّرس بجنه من حدّه و الدّرع ليس بمعقل

مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت،و إذا قضى لم يعدل

متوقد يبرى بأوّل ضربه ما أدركت،و لو أنها فى يذبل

البيتان الأولان من الجنس الذى يكثر كلامه عليه،و هى طريقه الذى يجتنبها،و ذلك من السبك الكتابى،و الكلام المعتدل.إلا أنه لم يبدع فيها بشىء،و قد زيد عليه فيها و من قصد إلى أن يكمل عشره أبيات فى وصف السيف فليس من حكمه أن يأتى بأشياء منقوله، و أمور مذكوره.و سبيله أن يغرب و يبدع كما أبدع المتنبى فى قوله:

سلّه و الركض بعد وهن بنجد فتصدّى للغيث أهل الحجاز

هذا فی باب صقاله،و أضوائه و کثره مائه،و کقوله:

ریان لو قذف الذی أسقیته لجری من المهجات بحر مزبد

و قوله:«مصغ إلی حکم الردی إن تأملته»مقلوب کان ینبغی أن یقول یصغی الردی إلی حکمه کما قال الآخر:«فالسیف یأمر و الأقدار تنتظر».و قوله:«و إذا قضی لم یعدل» متکرر علی ألسنتهم فی الشعر خاصه فی نفس هذا المعنی.و البیت الثالث سلیم،و هو کالأولین فی خلوه عن البدیع،فأما قوله:

فإذا أصاب فکلّ شیء مقتل و إذا أصیب فما له من مقتل

و کأنما سود النمال و حمرها دبّت بأید فی قراه و أرجل

البیت الأول یقصد به صنیعه اللفظ،و هو فی المعنی متفاوت،لأن المضرب قد لا یکون مقتلا.و قد یطلق الشعراء ذلک،و یرون أن هذا أبدع من قول المتنبی،و إنه بضده:

یقتل السیف فی جشم القتیل به و للسّیوف کما للنّاس آجال

و هذه طریقه لهم یتمدحون بها فی قصف الرمح طعنا،و تقطیع السیف ضربا،و فی قوله:«و إذا أصیب فما له من مقتل»،تعسف لأنه یرید بذلک أنه لا یتکسر.فالتعبیر بما عبر به عن المعنی الذی ذکرناه یتضمن ضربا من التکلف،و ضربا من المحال.و لیس بالنادر، و الذی علیه الجمله ما حکیناه عن غیره و نحوه.قال بعض أهل الزمان:

یقصّف فی الفارس السّمهریّ و صدر الحسام فریقا فریقا

البیت الثانی أیضا:هو معنی مکرر علی ألسنه الشعراء،و أما تصنیعه بسود النمال و حمرها،فلیس بشیء؛و لعله أراد بالحمر الذّرّ.و التفصیل بارد!و الإعراب به منکر!و هو کما حکی عن بعضهم أنه قال:کان کذا حین کانت الثریا بحذاء رأسی علی سواء،أو منحرفا قدر شبر أو نصف شبر،أو إصبع أو ما یقارب ذلک.فقیل له:هذا من الورع الذی یبغضه اللّه،و یمقته الناس،و رب زیاده کانت نقصانا.وصفه النمل بالسواد و الحمره فی هذا من ذلک الجنس،و علیه خرج بقیه البیت فی قوله:«دبّت بأید فی قراه و أرجل».

و کان یکفی ذکره الأرجل عن ذکر الأیدی،و وصف الفرند بمدبّ النمل شیء لا یشذّ عن أحد منهم،و أما قوله:

و کأن شاهره إذا استضوی به الزّ حفان یعصی بالسّماک الأعزل

حملت حمائله القدیمه بقله من عهد عاد غضّه لم تذبل

البیت الأول منهما فیه ضرب من التکلف،و هو منقول من أشعارهم و ألفاظهم،و إنما

يقول:«قمر يشد على الرجال بكوكب»فجعل ذلك الكوكب السماك و احتاج إلى أن يجعله أعزل للقافيه.

و لو لم يحتج إلى ذلك كان خيرا له؛لأن هذه الصفه فى هذا الموضع تفضه من الموضع.و موضع التكلف الذى ادعيناه الحشو الذى ذكره من قوله:«إذا استضوى به الزحفان».و كان يكفى أن يقول كان صاحبه يعصى بالسماك،و هذا و إن كان قد تعمل فيه للفظ،فهو لغو على ما بينا.

و أما البيت الثانى.ففيه لغو من جهه قوله:حمائله قديمه،و لا فضيله له فى ذلك.ثم تشبيه السيف بالبقله من تشبيهات العامه،و الكلام الرّذل النّذل؛لأن العامه قد يتفق منها تشبيه واقع حسن.

ثم انظر إلى هذا المقطع الذى هو بالعىّ أشبه منه بالفصاحه،و إلى اللكنه أقرب منه إلى البراعه.و قد بينا أن مراعاه الفواتح،و الخواتم،و المطالع،و المقاطع،و الفصل، و الوصل بعد صحه الكلام،و وجود الفصاحه فيه،مما لا بد منه.و أن الإخلال بذلك يخل بالنظم،و يذهب رونقه،و يحيل بهجته،و يأخذ ماءه و بهاءه.

و قد اطلعت عليك فيما نقلت،و تكلفت ما سطرت،لأن هذا القبيل،قبيل موضوع متعمل مصنوع.و أصل الباب فى الشعر على أن ينظر إلى جمله القصه،ثم يتأمل الألفاظ و لا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها و لا يتأمل مطارحها،و قد يقصد تاره إلى تحقيق الأغراض و تصوير المعانى التى فى النفوس.و لكنه يلحق بأصل بابه،و يميل بك إلى موضعه، و يحسب الاهتمام بالصنعه يقع فيها التفاضل.

و إن أردت أن تعرف أوصاف الفرس فقد ذكرت لك أن الشعراء قد تصرفوا فى ذلك بما يقع إليك إن كنت من أهل الصنعه،مما يطول على نقله،و كذلك فى السيف.و ذكر لى بعض أهل الأدب أن أحسن قطعه فى السيف قول أبى الهول الحميرى:

حاز صمصامه الزّبيدى من بى ن جميع الأنام موسى الأمين

سيف عمرو و كان فيما سمعنا خير ما أطبقت عليه الجفون

أخضر اللّون بين برديه حدّ من ذعاف تميس فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق نارا ثمّ شابت له الذّعاف القيون

فإذا ما شهرته بهر الشّم س ضياء فلم تكد تستبين

يستطير الأبصار كالقبس المش عل لا تستقيم فيه العيون

و كأنّ الفرند و الرّونق الجا رى فى صحفتيه ماء معين

نعم مخراق ذی الحفیظه فی الهی جاء یعصی به و نعم القرین

ما یبالی إذا انتحاه بضرب أ شمال سطت به أم یمین

و إنما یوازن شعر البحتری بشعر شاعر من طبقته،و من أهل عصره،و من هو فی مضماره،أو فی منزلته،و معرفته أجناس الکلام،و الوقوف علی أسراره،و الوقوع علی مقداره شیء.و إن کان عزیزا،و أمر و إن کان بعیدا فهو سهل علی أهله،مستجیب لأصحابه،مطیع لأربابه،ینقدون الحروف،و یعرفون الصروف،و إنما یتقی الشبهه فی ترتیب الحال بین البحتری و أبی تمام و ابن الرومی و غیره.

و نحن و إن کنا نفضل البحتری بدیباجه شعره علی ابن الرومی و غیره من أهل زمانه، و نقدمه بحسن عبارته و سلاسه کلامه،و عذوبه ألفاظه،و قله تعقد قوله.

و الشعر قبیل ملتمس مستدرک،و أمر ممکن منطبع.و نظم القرآن عال عن أن یعلق به الوهم،أو یسمو إلیه الفکر،أو یطمع فیه طامع،أو یطلبه طالب. لا یَأْتِیهِ الْباطِلُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ (۱)و کنت قد ذکرت لک قبل هذا أنک إن کنت بصنعه علم اللسان متدربا،و فیه متوجها متقدما،أمکنک الوقوف علی ما ذکرنا،و النفوذ فیما وصفنا.و إلا فاجلس فی مجلس المقلدین،و ارض بمواقف المتحیرین.

و نصحت لک حیث قلت؛انظر،هل تعرف عروق الذهب،و محاسن الجوهر، و بدائع الیاقوت،و دقائق السحر،من غیر معرفه بأسباب هذه الأمور و مقدماتها؟و هل یقطع سمت البلاد من غیر اهتداء فیها؟ و لکل شیء طریق یتوصل إلیه به،و باب یؤخذ نحوه فیه،و وجه یؤتی منه.و معرفه الکلام أشد من المعرفه بجمیع ما وصفت لک،و أغمض و أدق و ألطف.و تصویر ما فی النفس و تشکیل ما فی القلب حتی تعلمه و کأنک مشاهده و إن کان قد یقع بالإشاره و یحصل بالدلاله و الإماره،کما یحصل بالنطق الصریح،و القول الفصیح.فللإشاره أیضا مراتب، و للسان منازل.رب وصف یصور لک الموصوف کما هو علی جهته،لا خلف فیه.و رب وصف یربو علیه و یتعداه و رب وصف یقصر عنه.

ثم إذا صدق الوصف انقسم إلی صحه و إتقان،و حسن و إحسان،و إلی إجمال و شرح،و إلی استیفاء و تقریب،و إلی غیر ذلک من الوجوه.

و کل مذهب و طریق له باب و سبیل،فوصف الجمله الواقعه کقوله تعالی:ت.

۱- آیه(۴۲)سوره فصلت.

لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱) و التفسير كقوله: وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲)إلى آخر الآيات فى هذا المعنى.

و كنحو قوله: يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها،وَ تَرَى النّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ (۳)هذا مما يصور الشيء على جهته و يمثل أهوال ذلك اليوم،و مما يصور لك الكلام الواقع فى الصفه كقوله حكايه عن السحره،لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا قالوا: إِنّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ. إِنّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۴).

و قال فى موضع آخر: إِنّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ. وَ ما تَنْقِمُ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِآياتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتْنا،رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (۵)و هذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسه.

و من باب التسخير و التكوين قوله تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶)و قوله: فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (۷)و كقوله: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۸)و تقصى أقسام ذلك مما يطول،و لم أقصد استيفاء ذلك،و إنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل،و أشرت إليك بما أشرت لتتأمل.

و إنما اقتصرنا على ذكر قصيده البحترى لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره، و يقدمونه على من فى عصره.و منهم من يدّعى له الإعجاز غلوا،و يزعم أنه يناجى النجم فى قوله علوا.و الملحده تستظهر بشعره،و تتكثر بقوله،و تدّعى كلامه من شبهاتهم، و عباراته مضافا إلى ما عندهم من ترهاتهم.فبيّنا قدر درجته،و موضع رتبته،و حد كلامه.ء.

۱- آيه(۱۸)سوره الكهف.

۲- آيه(۴۷)سوره الكهف.

۳- آيه(۱،۲)سوره الحج.

۴- آيه(۵۱،۵۲)سوره الشعراء.

۵- آيه(۱۲۵،۱۲۶)سوره الأعراف.

۶- آيه(۸۲)سوره يس.

۷- آيه(۶۵)سوره البقره.

۸- آيه(۶۳)سوره الشعراء.

و هيهات أن يكون المطموع فيه كالميئوس منه.و أن يكون الليل كالنهار،و الباطل كالحق،و كلام رب العالمين ككلام البشر.

فإن قال قائل:فقد قدح الملحد فى نظم القرآن،و ادّعى عليه الخلل فى البيان، و أضاف إليه الخطأ فى المعنى و اللفظ،و قال ما قال فهل من فصل؟ قيل:الكلام على مطاعن الملحده فى القرآن،مما قد سبقنا إليه،و صنّف أهل الأدب فى بعضه فكفوا.و أتى المتكلمون على ما وقع إليهم فشفوا،و لو لا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا.

و أما الغرض الذى صنفنا فيه فى التفصيل و الكشف عن إعجاز القرآن،فلم نجده على التقريب الذى قصدنا،و قد رجونا أن يكون ذلك مغنيا و وافيا،و إن سهّل اللّه لنا ما نويناه من إملاء معانى القرآن،ذكرنا فى ذلك ما يشتبه من الجنس الذى ذكروه،لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه،فإنما يقع على جهل القوم بالمعانى أو بطريقه كلام العرب.

و ليس ذلك من مقصود كتابنا هذا،و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و سلّم:(فضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه) (۱)و قد قصدنا فيما أمليناه الاختصار،و مهدنا الطريق،فمن كمل طبعه للوقوف على فصل أجناس الكلام استدرك ما بينا،و من تعذر عليه الحكم بين شعر جرير و الفرزدق و الأخطل،و الحكم بين فضل زهير و النابغه أو الفضل بين البحترى و أصحابه،و لم يعرف سخف مسيلمه فى نظمه،و لم يعلم أنه من الباب الذى يهزأ به و يسخر منه كشعر أبى العيس فى جمله الشعر،و شعر على بن صلاه فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، و الحكم على ما بينا؟ فإن قال قائل:فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر،و الأبلغ،قيل له:

هذا أيضا خارج عن غرض هذا الكتاب،و قد تكلم فيه الأدباء و يحتاج أن يجدد لنحو هذا كتاب،و يفرد له باب،و ليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل.

و ليس لقائل أن يقول:قد يسلم بعض الكلام من العوارض و العيوب،و يبلغ أمده فى الفصاحه و النظم العجيب،و لا يبلغ عندكم حد المعجز،فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام؟ و إنما لم يصح هذا السؤال،و ما نذكر فيه من أشعار فى نهايه الحسن،و خطب ۱.

۱- الترمذى(۲۹۲۶)،و الترغيب ۴۳۵/۲،و الأسماء و الصفات(۲۳۸)،و فتح البارى ۶۶/۹، و القرطبى ۴/۱.

و رسائل فی غایه الفضل،لأنا قد بینا أن هذه الأجناس قد وقع النزاع فیها،و المساماه علیها، و التنافس فی طرقها،و التنافر فی بابها.و کان البون بین البعض و البعض فی الطبقه الواحده قریبا،و التفاوت خفیفا،و ذلک القدر من السبق إن ذهب عند الواحد لم ییأس منه الباقون، و لم ینقطع الطمع فی مثله.

و لیس کذلک سمت القرآن،لأنه قد عرف أن الوهم ینقطع دون مجاراته،و الطمع یرتفع عن مباراته و مساماته،و أن الکل فی العجز عنه علی حد واحد.و کذلک قد یزعم زاعمون أن کلام الجاحظ من السمت الذی لا یأخذ فیه،و الباب الذی لا یذهب عنه.و أنت تجد قوما یرون کلامه قریبا و منهاجه معیبا،و نطاق قوله ضیقا حتی یستعین بکلام غیره، و یفرغ إلی ما یوشح به کلامه من بیت سائر،و مثل نادر،و حکمه ممهده منقوله،و قصه عجیبه مأثوره.

و أما کلامه فی أثناء ذلک فسطور قلیله و ألفاظ یسیره،فإذا أحوج إلی تطویل الکلام خالیا عن شیء یستعین به فیخلطه بقوله من قول غیره کان کلاما ککلام غیره.

فإن أردت أن تحقق هذا،فانظر فی کتبه فی نظم القرآن،و فی الرد علی النصاری، و فی خبر الواحد،و غیر ذلک مما یجری هذا المجری.هل تجد فی ذلک کله ورقه تشتمل علی نظم بدیع؟أو کلام ملیح؟علی أن متأخری الکتاب قد نازعوه فی طریقته.و جاذبوه علی منهجه.فمنهم من ساواه حین ساماه،و منهم من أبر علیه إذا باراه.هذا أبو الفضل بن العمید قد سلک مسلکه،و أخذ طریقه،فلم یقصر عنه،و لعله قد بان تقدمه علیه لأنه یأخذ فی الرساله الطویله فیستوفیها علی حدود مذهبه،و یکملها علی شروط صنعته،و لا یقتصر علی أن یأتی بالأسطر من نحو کلامه،کما تری الجاحظ یفعله فی کتبه،متی ذکر من کلامه سطرا اتبعه من کلام الناس أوراقا.و إذا ذکر منه صفحه بنی علیه من قول غیره کتابا.

و هذا یدلک علی أن الشیء إذا استحسن اتبع،و إذا استملح قصد له و تعمّد،و هذا الشیء یرجع إلی الأخذ بالفضل و التنافس فی التقدم.

فلو کان فی مقدور البشر معارضه القرآن لهذا الغرض وحده،لکثرت المعارضات، و دامت المنافسات.

فکیف و هناک دواع لا انتهاء لها،و جوالب لا حد لکثرتها؛لأنهم لو کانوا عارضوه لتوصلوا إلی تکذیبه،ثم إلی قطع المحامین دونه عنه،أو تنفیرهم علیه،و إدخال الشبهات علی قلوبهم.و کان القوم یکتفون بذلک عن بذل النفوس،و نصب الأرواح،و الأخطار بالأموال و الذراری فی وجه عدواته.و یستغنون بکلام هو طبعهم و عادتهم و صناعتهم عن

محاربته،و طول منافسته و مجاذبته.و هذا الذی عرضناه علی قلبک یکفی إن هدیت لرشدک.و یشفی إن دللت علی قصدک،و نسأل اللّه حسن التوفیق و العصمه و التسدید،إنه لا معرفه إلا بهدایته،و لا عصمه إلا بکفایته،و هو علی ما یشاء قدیر،و حسبنا اللّه و نعم الوکیل.

ص: ۱۵۹

فصل: فی جوانب إعجاز القرآن

اشاره

فإن قال قائل:قد یجوز أن یکون أهل عصر النبی صلّی اللّه علیه و سلّم قد عجزوا عن الإتیان بمثل القرآن،و إن کان من بعدهم من أهل الأعصار لم یعجزوا،قیل:هذا سؤال معروف،و قد أجیب عنه بوجوه،منها ما هو صواب،و منها ما فیه خلل.

لأن من کان یجیب عنه بأنهم لا یقدرون علی معارضته فی الإخبار عن الغیوب،إن قدروا علی مثل نظمه،فقد سلّم المسأله.لأنا ذکرنا أن نظمه معجز لا یقدر علیه.فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل عن مراده،و الوجه أن یقال:فیه طرق،منها أنا إذا علمنا أن أهل ذلک العصر کانوا عاجزین عن الإتیان بمثله،فمن بعدهم أعجز؛لأن فصاحه أولئک فی وجوه ما کانوا یتفننون فیه من القول،مما لا یزید علیه فصاحه من بعدهم،و أحسن أحوالهم أن یقاربوهم أو یساووهم.فأمّا أن یتقدموهم أو یسبقوهم فلا.

و منها أنا قد علمنا عجز أهل سائر الأعصار کعلمنا بعجز أهل العصر الأول.و الطریق فی العلم بکل واحد من الأمرین طریق واحد،لأن التحدی فی الکل علی جهه واحده، و التنافر فی الطباع علی حد.و التکلف علی منهاج لا یختلف.و لذلک قال اللّه تبارک و تعالی: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً (۱)

التحدی

یجب أن تعلم أنّ من حکم المعجزات إذا ظهرت علی الأنبیاء أن یدّعوا فیها أنها من دلالتهم و آیاتهم،لأنه لا یصح بعثه النبی من غیر أن یؤتی دلاله،و یؤیّد بآیه.لأن النبی لا یتمیز من الکاذب بصورته،و لا بقول نفسه،و لا بشیء آخر سوی البرهان الذی یظهر علیه، فیستدل به علی صدقه.

فإذا ذکر لهم أن هذه آیتی،و کانوا عاجزین عنها،صح له ما ادعاه.و لو کانوا غیر عاجزین عنها،لم یصح أن یکون برهانا له.

۱- آیه(۸۸)سوره الإسراء.

و ليس يكون ذلك معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا.فإذا تحداهم و بان عجزهم صار ذلك معجزا.و إنما احتيج فى باب القرآن إلى التحدى؛لأن من الناس من لا يعرف كونه معجزا،فإنما يعرف أولا إعجازه بطريقه،لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه و صورته.و إنما يحتاج إلى علم و طريق يتوصل به إلى معرفه كونه معجزا.فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا،حتى يمكنه أن يستدل به.و متى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدى إليه و التقريع به،و التمكين منه،صار حينئذ بمنزله من رأى اليد البيضاء،و انقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما يأفكون.

و أما ما كان من أهل صنعه العربيه،و التقدم فى البلاغه،و معرفه فنون القول،و وجوه المنطق،فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله.و يعرف أيضا أهل عصره ممن هو فى طبقته،أو يدانيه فى صناعته عجزهم عنه.فلا يحتاج إلى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا.

و لو كان أهل الصنعه الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزا حتى يعرفوا عجز غيرهم عنه،لم يجز أن يعرف النبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن القرآن معجز،حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدى إليه.و إذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهى إلى التحدى إلى أقصاهم،و حتى يعرف عجز مسيلمه الكذاب عنه.ثم يعرف حينئذ كونه معجزا.

و هذا القول إن قيل أفحش ما يكون من الخطأ.فيجب أن تكون منزله أهل الصنعه فى معرفه إعجاز القرآن بأنفسهم منزله من رأى اليد البيضاء،و فلق البحر،بأن ذلك معجز.

و أما من لم يكن من أهل الصنعه،فلا بد له من مرتبه قبل هذه المرتبه،يعرف بها كونه معجزا،فيساوى حينئذ أهل الصنعه،فيكون استدلالها فى تلك الحاله به على صدق من ظهر ذلك عليه سواه،إذا ادعاه،دلاله على نبوته،و برهانا على صدقه.

فأما من قدّر أن القرآن لا يصير معجزا إلا بالتحدى إليه،فهو كتقدير من ظن أن جميع آيات موسى و عيسى عليهما السلام،ليست بآيات حتى يقع التحدى إليها و الحض عليها،ثم يقع العجز عنها فيعلم حينئذ أنها معجزات.و قد سلف من كلامنا فى هذا المعنى ما يغنى عن الإعاده.

و يبين ما ذكرناه فى غير البليغ أن الأعجمى الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائده على الأعجمى الذى كان فى ذلك الزمان مشاهدا له.لأن من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه.و إنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقله إليه،أنّ النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد تحدى العرب إليه،فعجزوا عنه.و يحتاج فى النقل إلى شروط و ليس يصير القرآن بهذا

النقل معجزا.كذلك لا يصير معجزا بأن يعلم العربى الذى ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأبلغهم،بل هو معجز فى نفسه.و إنما طريق معرفه هذا وقوعهم على العلم بعجزهم عنه.

قدر المعجز من القرآن

الذى ذهب إليه عامه أصحابنا،و هو قول أبى الحسن الأشعرى فى كتبه،أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السوره قصيره كانت أو طويله،أو ما كان بقدرها.قال:فإذا كانت الآيه بقدر حروف سوره،و إن كانت سوره الكوثر فذلك معجز.

قال:و لم يقم دليل على عجزهم عن المعارضه فى أقل من هذا القدر.و ذهبت المعتزله إلى أن كل سوره برأسها فهى معجزه.و قد حكى عنهم نحو قولنا،إلا أن منهم من لم يشترط كون الآيه بقدر السوره بل شرط الآيات الكثيره.و قد علمنا أنه تحداهم تحديا إلى السور كلها،و لم يخصّ.و لم يأتوا الشيء منها بمثل.فعلم أن جميع ذلك معجز.

و أما قوله عز و جل: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ (۱)فليس بمخالف لهذا.لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سوره قصيره.و هذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا، و يؤيده.و إن كان قد يتأول قوله: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ (۲)على أن يكون راجعا إلى القبيل دون التفصيل.

و كذلك يحمل قوله تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ (۳)على القبيل.لأنه لم يجعل الحجه عليهم عجزهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره.

فإن قيل:هل تعرفون إعجاز السور القصار،بما تعرفون به إعجاز السور الطوال؟ و هل تعرفون إعجاز كل قدر من القرآن بلغ الحد الذى قدرتموه بمثل ما تعرفوه إعجاز سوره البقره و نحوها؟ فالجواب:أن أبا الحسن (۴)الأشعرى-رحمه اللّه-أجاب عن ذلك:بأن كل سوره قد علم كونها معجزه بعجز العرب عنها.و سمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول:إنّ ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفا.

۱- آيه(۵۲)سوره الطور.

۲- سبقت.

۳- آيه(۸۸)سوره الإسراء.

۴- سبقت ترجمته.

و الطریقه الأولی أسدّ.و لیس هذا الذی ذکرناه أخیرا بمناف له،لأنه لا یمتنع أن یعلم إعجازه بطرق مختلفه تتوافی علیه،و تجتمع فیه.

و اعلم أن تحت اختلاف هذه الأجوبه ضربا من الفائده،لأن الطریقه الأولی تبین أن ما علم به کون جمیع القرآن معجزا.موجود فی کل سوره صغرت أو کبرت.فیجب أن یکون الحکم فی الکل واحدا.

و الطریقه الأخیره تتضمن تعذر معرفه إعجاز القرآن بالطریقه التی سلکناها فی بناء من التفصیل الذی بینا،فیما تعرف به فی الکلام الفصاحه،و تتبین به البلاغه،حتی یعلم ذلک بوجه آخر،فیستوی فی هذا القدر البلیغ و غیره فی أن لا یعلمه معجزا،حتی یستدلّ به من وجه آخر،سوی ما یعلمه البلغاء من التقدم فی الصنعه،و هذا غیر ممتنع.

أ لا تری أن الإعجاز فی بعض السور و الآیات أظهر،و فی بعضها أغمض و أدق،فلا یفتقر البلیغ فی النظر فی حال بعضها إلی تأمّل کثیر،و لا بحث شدید،حتی یتبین له الإعجاز،و یفتقر فی بعضها إلی نظر دقیق،و بحث لطیف،حتی یقع علی الجلیّه،و یصل إلی المطلب.و لا یمتنع أن یذهب علیه الوجه فی بعض السور،فیحتاج أن یفزع فیه إلی إجماع أو توقیف،أو ما علمه من عجز العرب قاطبه عنه.فإن ادّعی ملحد،أو زعم زندیق أنه لا یقع العجز عن الإتیان بمثل السور القصار أو الآیات بهذا المقدار،قلنا له:إن الإعجاز قد حصل بما بیناه،و عرف بما وقفنا علیه من عجز العرب عنه.

ثم فیه شیء آخر،و هو:أن هذا سؤال لا یستقیم للملحد،لأنه یزعم أنه لیس فی القرآن کله إعجاز.فکیف یجوز أن یناظره؟!علی تفصیله،و إذا ثبت لنا معه إعجازه فی السور الطوال،قامت الحجه علیه،و ثبتت المعجزه.و لا معنی لطلبه لکثره الأدله و المعجزات.و نحن نعلم أن إعجاز البعض بما بیناه،و البعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل، لم یبق بعد ذلک إلا قولنا،لأنا عرفنا فی البعض الإعجاز بما بینا.ثم عرفنا فی الباقی بالتّوقیف و نحو ذلک،و لیس بممتنع اختلاف حال الکلام حتی یکون الإعجاز علی بعضه أظهر،و فی بعضه أغمض،و من آمن ببعض دون بعض،کان مذموما علی ما قال اللّه تعالی:

أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْکِتابِ وَ تَکْفُرُونَ بِبَعْضٍ (۱) و قال: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲)فظاهره عند بعض أهل التأویل کالدلیل علی أن الشفاء ببعضه أوقع، و إن کنا نقول إنه یدل علی أن الشفاء فی جمیعه.و اعلم أن الکلام یقع فیه الأبلغ.

۱- آیه(۸۵)سوره البقره.

۲- آیه(۸۲)سوره الإسراء.

و البليغ،و لذلک کانوا یسمون الکلمه یتیمه،و یسمون البیت الواحد یتیما.

سمعت إسماعیل بن عباد یقول:سمعت أبا بکر بن مقسم یقول:سمعت ثعلبا (۱)یقول:سمعت الفراء (۲)یقول:العرب تسمی البیت الواحد یتیما،و کذلک یقال:الدره الیتیمه لانفرادها.فإذا بلغ البیتین و الثلاثه فهی نتفه،و إلی العشره تسمی قطعه،و إذا بلغ العشرین استحق أن یسمی قصیدا.و ذلک مأخوذ من المخ القصید،و هو المتراکم بعضه علی بعض.و هو ضد الرار و مثله الرثید.انتهت الحکایه.ثم استشهد بقول لبید:

فتذکرا ثقلا رثیدا بعد ما ألقت ذکاء یمینها فی کافر

یرید بیض النعام لأنه ینضد بعضه علی بعض،و کذلک یقع فی الکلام البیت الوحشی و النادر،و المثل السائر،و المعنی الغریب،و الشیء الذی لو اجتهد له لم یقع علیه فیتفق له و یصادفه.قال لی بعض علماء هذه الصنعه و جاریته فی ذلک:إن هذا مما لا سبب له یخصه،و إنما سببه القراره فی أصل الصنعه،و التقدم فی عیون المعرفه.فإذا وجد ذلک وقع له من الباب ما یطرد عن حساب و ما یشذ عن تفصیل الحساب،فأما ما قلنا من أن ما بلغ قدر السوره معجز فإن ذلک صحیح.۰.

۱- سبقت ترجمته.

۲- الفراء هو:أبو زکریا یحیی بن زیاد الفراء الدیلمی،کان إماما ثقه له شأن عظیم فی اللغه.قال ثعلب: لو لا الفراء لما کانت لغه،و لو لا الفراء لسقطت العربیه،مات سنه(۲۰۷ ه).له ترجمه فی:وفیات الأعیان ۲۲۸/۲،و طبقات الأدباء(۱۲۶)،و معجم الأدباء ۹/۲۰.

فصل: فی أنه هل العلم بإعجاز القرآن ضروره؟

ذهب أبو الحسن الأشعری إلی أن ظهور ذلک علی النبی صلّی اللّه علیه و سلّم یعلم ضروره.و کونه معجزا یعلم باستدلال.و هذا المذهب محکی عن المخالفین.و الذی نقوله فی هذا:إن الأعجمی لا یمکنه أن یعلم إعجازه إلا استدلالا.و کذلک من لم یکن بلیغا.فأما البلیغ الذی قد أحاط بمذاهب العربیه و غرائب الصنعه،فإنه یعلم من نفسه ضروره عجزه عن الإتیان بمثله.و یعلم عجز غیره بمثل ما یعرف عجز نفسه.کما أنه إذا علم الواحد منا أنه لا یقدر علی ذلک فهو یعلم عجز غیره استدلالا.

فصل: فيما يتعلق به الإعجاز

إن قال قائل:بيّنوا لنا ما الـذى وقع التحـدى إليه؟أ هو الحروف المنظومه؟أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك؟قيل:الذى تحداهم به:أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن،منظومه كنظمها،متتابعه كتتابعها،مطّرده كاطّرادها،و لم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له.

و إن كـان كـذلك فالتحـدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومه،التى هى عباره عن كلام اللّه تعالى فى نظمها و تأليفها.و هى حكـايه لكلامـه و دلالاـت عليه،و أمـارات له، على أن يكونوا مسـتأنفين لـذلك،لا حاكين بما أتى به النبى صـلّى اللّه عليه و سلّم.

و لاـ يجب أن يقـدّر مقـدر،أو يظن ظـانّ أنـا حين قلنا:إن القرآن معجز،و إنّه تحـداهم إلى أن يأتوا بمثله،أردنا غير ما فسـرناه من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات.

و قـد بينا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزا،لكونه عباره عن الكلام القديم؛لأن التوراه و الإنجيل عباره عن الكلام القديم،و ليس ذلك بمعجز فى النظم و التأليف.و كذلك ما دون الآيه،كاللفظه عباره عن كلامه،و ليست بمنفردها بمعجزه.

و قد جوز بعض أصـحابنا أن يتحداهم إلى مثل كلامه القديم القائم بنفسه،و الذى عول عليه مشايخنا ما قدمنا ذكره.و على ذلك أكـثر مـذاهب النـاس.و لم يجب أن نفسـر و نـذكر مـوجب هـذا المـذهب الـذى حكينـاه و مـا يتصـل به؛لأـنه خـارج عن غرض كتابنـا،لأـن الإعجـاز وقع فى نظم الحروف التى هى دلالاـت و عبـارات عن كلاـمه.و إلى مثل هـذا النظم وقع التحـدى،فبيّنا وجه ذلـك،و كيفيه مـا يتصـور القول فيه،و أزلنـا توهم من يتوهم أن الكلاـم القـديم حروف منظومه،أو حروف غير منظومه،أو شـىء مؤلّف أو غير ذلك مما يصح أن يتوهّم على ما سبق من إطلاق القول فيما مضى.

فصل: فی وصف وجوه من البلاغه

ذکر بعض أهل الأدب و الکلام:أن البلاغه علی عشره أقسام:الإیجاز،و التشبیه، و الاستعاره،و التلاؤم،و الفواصل،و التجانس،و التصریف،و التضمین،و المبالغه، و حسن البیان.

فأما الإیجاز فإنما یسن مع ترک الإخلال باللفظ و المعنی.فیأتی باللفظ القلیل الشامل لأمور کثیره.و ذلک ینقسم إلی حذف و قصر.فالحذف:الإسقاط للتخفیف کقوله:

وَ سْئَلِ الْقَرْیَهَ (۱) و قوله: طاعَهٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ (۲)و حذف الجواب کقوله: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُیِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی (۳)کأنه قیل:لکان هذا القرآن،و الحذف أبلغ من الذکر،لأن النفس تذهب کل مذهب فی القصد من الجواب.

و الإیجاز بالقصد کقوله: وَ لَکُمْ فِی الْقِصاصِ حَیاهٌ (۴)و قوله: یَحْسَبُونَ کُلَّ صَیْحَهٍ عَلَیْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ (۵)و قوله: إِنَّما بَغْیُکُمْ عَلی أَنْفُسِکُمْ (۶)و قوله: وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ (۷).

و الإطناب فیه بلاغه،فأما التطویل ففیه عیّ.

و أما التشبیه بالعقد علی أن أحد الشیئین یسد مسد الآخر فی حس أو عقل،کقوله:

وَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمالُهُمْ کَسَرابٍ بِقِیعَهٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتّی إِذا جاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً (۸) و قوله: مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ کَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عاصِفٍ (۹)

۱- آیه(۸۲)سوره یوسف.

۲- آیه(۲۱)سوره محمد.

۳- آیه(۳۱)سوره الرعد.

۴- آیه(۱۷۹)سوره البقره.

۵- آیه(۴)سوره المنافقون.

۶- آیه(۲۳)سوره یونس.

۷- آیه(۴۳)سوره فاطر.

۸- آیه(۳۹)سوره النور.

۹- آیه(۱۸)سوره إبراهیم.

و قوله: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ (۱)و قوله: إِنَّما مَثَلُ الْحَياهِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمّا يَأْكُلُ النّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ (۲)و قوله: إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَنْزِعُ النّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۳)و قوله: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (۴)و قوله: أَنَّمَا الْحَياهُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَهٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً (۵)و قوله: وَ جَنَّهٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ (۶)و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراهَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً (۷)و قوله تعالى: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ (۸)و قوله: كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَهٍ (۹)و قوله: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ (۱۰)و قوله: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۱۱)و قوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ (۱۲)آيه(۹۴)سوره الحجر.(۱۳)و نحو ذلك.

و من ذلك باب الاستعاره:و هو بيان التشبيه كقوله تعالى: وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (۱۴)و كقوله: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۴)و كقوله: إِنّا لَمّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَهِ (۱۵)و قوله: وَ لَمّا سَكَتَ عَنْ مُوسَيه.

۱- آيه(۱۷۱)سوره الأعراف.

۲- آيه(۲۴)سوره يونس.

۳- آيه(۱۹،۲۰)سوره القمر.

۴- آيه(۳۷)سوره الرحمن.

۵- آيه(۲۰)سوره الحديد.

۶- آيه(۲۱)سوره الحديد.

۷- آيه(۴)سوره الجمعه.

۸- آيه(۱۷۶)سوره الأعراف.

۹- آيه(۷)سوره الحاقه.

۱۰- آيه(۴۱)سوره العنكبوت.

۱۱- آيه(۲۴)سوره الرحمن.

۱۲- آيه

۱۳- سوره الرحمن.

۱۴- آيه(۲۳)سوره الفرقان.

۱۵- آيه(۱۱)سوره الحاقه.

اَلْغَضَبُ (۱) و كقوله: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً (۲)آيه(۲۴)سوره يونس.(۳)و قوله: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ (۴)آيه(۵)سوره الأنبياء.(۶)فالدمغ و القذف مستعار،و قوله: وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ (۷)و قوله: وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ (۸)آيه(۴)سوره محمد.(۹)و قوله:

فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (۱۰) و قوله: حَتّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها (۷)و قوله: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۱)آيه(۱۴۹)سوره الأعراف.(۱۲)و قوله: مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرّاءُ (۱۳)و قوله: فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ (۱۴)و قوله: أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً (۱۱)و قوله: حَصِيداً خامِدِينَ (۱۲)و قوله: أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (۱۵)و قوله: وَ داعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۱۶)و قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ (۱۵)و قوله: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ (۱۷)و قوله: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ (۱۸)يريد أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم.و قوله: وَ لَمّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ (۱۸).

و هذا أوقع من اللفظ الظاهر،و أبلغ من الكلام الموضوع.

و أما التلاؤم فهو تعديل الحروف فى التأليف،و هو نقيض التنافر.كقول الشاعر:

و قبر حرب بمكان قفر و ليس قرب قبر حرب قبرف.

۱- آيه(۱۵۴)سوره الأعراف.

۲- آيه

۳- سوره الإسراء.

۴- آيه

۵- آيه(۲۹)سوره الإسراء.

۶- سوره الأنبياء.

۷- آيه(۳۷)سوره يس.

۸- آيه

۹- سوره الأنفال.

۱۰- آيه(۵۱)سوره فصلت.

۱۱- آيه

۱۲- سوره التكوير.

۱۳- آيه(۲۱۴)سوره البقره.

۱۴- آيه(۱۷۸)سوره آل عمران.

۱۵- آيه(۲۲۵)سوره الشعراء.

۱۶- آيه(۴۶)سوره الأحزاب.

۱۷- آیه(۲۱)سوره السجده.

۱۸- آیه(۱۱)سوره الکهف.

قالوا:هو من شعر الجن،حروفه متنافره،لا يمكن إنشاده إلا بتتعتع فيه.و التلاؤم على ضربين أحدهما:فى الطبقه الوسطى،كقوله:

رمتنى و ستر اللّه بينى و بينها عشيه آرام الكناس رميم

رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم أن لا يزال يهيم

ألا ربّ يوم لو رمتنى رميتها و لكن عهدى بالنضال قديم

قالوا:و المتلائم فى الطبقه العليا القرآن كله،و إن كان بعض الناس أحسن إحساسا من بعض،كما أن بعضهم يفطن للموزون بخلاف بعض.

و التلاؤم حسن الكلام فى السمع،و سهولته فى اللفظ،و وقع المعنى فى القلب.

و ذلك كالخط الحسن،و البيان الشافى،و المتنافر كالخط القبيح.فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان،و صحه البرهان فى أعلى الطبقات،ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، و بصيرا بجوده الكلام،كما يظهر له أعلى طبقه الشعر.

«و المتنافر»:ذهب الخليل إلى أنه من بعد شديد،أو قرب شديد،فإذا بعد فهو كالظّفر.و إذا قرب جدا كان بمنزله مشى المقيد.و يبين ذلك بقرب مخارج الحروف و تباعدها.

و أما الفواصل فهى حروف متشاكله فى المقاطع يقع بها إفهام المعانى،و فيها بلاغه، و الإسجاع عيب؛لأن السجع يتبع المعنى.و الفواصل تابعه للمعانى.و السجع كقول مسيلمه.

ثم الفواصل قد تقع على حروف متجانسه،كما قد تقع على حروف متقاربه.و لا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل؛لأنها ليست فى الطبقه العليا فى البلاغه.لأن الكلام يحسن فيها بمجانسه القوافى،و إقامه الوزن.

و أما التجانس فإنه بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد.و هو على وجهين مزاوجه و مناسبه.فالمزاوجه كقوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (۱)و قوله: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ (۲)و كقول عمرو بن كلثوم (۳):.

۱- آيه(۱۹۴)سوره البقره.

۲- آيه(۵۴)سوره آل عمران.

۳- عمرو بن كلثوم التغلبى،كان شاعرا مطبوعا،و كان أعز الناس نفسا،و أكثرهم امتناعا و أنفه و لقد ساد قومه و هو فى الخامسه عشره.مات سنه(۶۰۰ م).له ترجمه فى:الأغانى ۱۸۱/۹،و الشعر و الشعراء(۱۱۷)،و الجمهره(۷۴).

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

و أما المناسبه فهی کقوله تعالی: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ (۱)و قوله:

یَخافُونَ یَوْماً تَتَقَلَّبُ فِیهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (۲) .

و أما«التصریف»فهو تصریف الکلام فی المعانی،کتصریفه فی الدلالات المختلفه، کتصریف«الملک»فی معانی الصفات،فصرّف فی معنی«مالک»،و«ملک»،و«ذی الملکوت»،و«المالیک».و فی معنی:«التملیک»و«التملک»،و«الإملاک».و تصریف المعنی فی الدلالات المختلفه.کما کرر من قصه موسی فی مواضع.

و أما التضمین فهو حصول معنی فیه،من غیر ذکره له باسم أو صفه هی عباره عنه.

و ذلک علی وجهین:تضمین توجیه البنیه.کقولنا:معلوم یوجب أنه لا بد من عالم.

و تضمین یوجبه معنی العباره من حیث لا یصح إلا به؛کالصفه بضارب یدل علی مضروب.

و التضمین کله إنجاز.و التضمین الذی تدل علیه دلالات القیاس أیضا إنجاز و ذکر أن: بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ من باب التضمین لأنه تضمن تعلیم الاستفتاح فی الأمور باسمه علی جهه التعظیم للّه تبارک و تعالی،أو التبرک باسمه.

و أما«المبالغه»فهی الدلاله علی کثره المعنی،و ذلک علی وجوه منها مبالغه فی الصفه المبینه.لذلک کقولک:«رحمن»عدل عن ذلک للمبالغه،و کقوله: لَغَفّارٌ و کذلک فعّال و فعول کقولهم«شکور و غفور»و فعیل کقوله: اَلرَّحِیم و قَدِیرٌ و من ذلک أن یبالغ باللفظه التی هی صفه عامه کقوله: خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ (۳)و کقوله: فَأَتَی اللّهُ بُنْیانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ (۴)و کقوله: وَ لا یَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ حَتّی یَلِجَ الْجَمَلُ فِی سَمِّ الْخِیاطِ (۵)و کقوله:

إِنّا أَوْ إِیّاکُمْ لَعَلی هُدیً أَوْ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۶) و قد یدخل فیه الحذف الذی تقدم ذکره للمبالغه،و أما حسن البیان فالبیان علی أربعه أقسام:کلام،و حال،و إشاره،و علامه.

و یقع التفاضل فی البیان،و لذلک قال عز من قائل: اَلرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ.

۱- آیه(۱۲۷)سوره التوبه.

۲- آیه(۳۷)سوره النور.

۳- آیه(۶۲)سوره الزمر.

۴- آیه(۲۶)سوره النحل.

۵- آیه(۴۰)سوره الأعراف.

۶- آیه(۲۴)سوره سبأ.

اَلْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ (۱) و قيل:«أعيا من باقل»سئل عن ظبيه فى يده،بكم اشتراها فأراد أن يقول:بأحد عشر،فأشار بيديه مادا أصابعه العشر،ثم أدلع لسانه و أفلت الظبى من يده.

ثم البيان على مراتب:قلنا قد كنا حكينا أن من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغه التى ذكرنا أنها تسمى البديع فى أول الكتاب مما مضت أمثلته فى الشعر.

و من الناس من زعم:أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التى عددناها فى الفضل.و اعلم أن الذى بيناه قبل هذا،و ذهبنا إليه هو سديد.و هو أن هذه الأمور تنقسم.فمنها ما يمكن الوقوع عليه و التعمل له،و يدرك بالتعلم.فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفه إعجاز القرآن به.

و أما ما لا سبيل إليه بالتعلم و التعمل من البلاغات،فذلك هو الذى يدل على إعجازه،و نحن نضرب لذلك أمثله لتقف على ما ذهبنا إليه.

و ذكرنا فى هذا الفصل عن هذا القائل:إن التشبيه تعرف به البلاغه.و ذلك مسلّم، و لكن إن قلنا ما وقع من التشبيه فى القرآن معجز،عرض علينا من التشبيهات الجاريه فى الأشعار ما لا يخفى عليك.و أنت تجد فى شعر ابن المعتز من التشبيه البديع الذى يشبه السحر،و قد تتبع فى هذا ما لم يتتبع غيره،و اتفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء.و كذلك كثير من وجوه البلاغه قد بيّنا أن تعلمها يمكن،و ليس تقع البلاغه بوجه واحد منها دون غيره.

فإن كان إنما يعنى هذا القائل أنه إذا أتى فى كل معنى يتفق فى كلامه بالطبقه العاليه.

ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض،و ينتهى منه إلى متصرفاته على أتم البلاغه،و أبدع البراعه.فهذا مما لا نأباه بل نقول به.

و إنما ننكر أن يقول قائل:إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به الكلام،و يفضى إليه.مثل ما يقول:إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز،و إن التشبيه معجز،و إن التجنيس معجز،و المطابقه بنفسها معجزه.

فأما الآيه التى فيها ذكر للتشبيه،فإن ادعى إعجازها لألفاظها و نظمها و تأليفها،فإنى لا أدفع ذلك و أصححه،و لكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه.

و صاحب«المقاله»التى حكيناها،أضاف ذلك إلى موضع التشبيه،و ما قرن به من الوجوه.و من تلك الوجوه ما قد بيّنا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان.و ذلك لا يختص بجنس.

۱- آيه(۱:۴)سوره الرحمن.

من المبيّن دون جنس.و لذلك قال: هذا بَيانٌ لِلنّاسِ (۱)و قال: تِبْياناً لِكَلِّ شَیْءٍ (۲)و قال: بِلِسانٍ عَرَبِیٍّ مُبِینٍ (۳)فكرر فی مواضع ذكره أنه مبین.

فالقرآن أعلی منازل البیان،و أعلی مراتبه ما جمع وجوه الحسن و أسبابه و طرقه و أبوابه،من تعدیل النظم و سلامته،و حسنه و بهجته،و حسن موقعه فی السمع،و سهولته علی اللسان،و وقوعه فی النفس موقع القبول،و تصوره تصور المشاهد،و تشكله علی جهته حتی یحل محل البرهان و دلاله التألیف،مما لا ینحصر حسنا و بهجه و سناء و رفعه.

و إذا علا الكلام فی نفسه كان له من الوقع فی القلوب و التمكن فی النفوس،ما یذهل و یبهج،و یقلق و یؤنس،و یطمع و یؤیس،و یضحك و یبكی،و یحزن و یفرح،و یسكن و یزعج،و یشجی و یطرب،و یهز الأعطاف،و یستمیل نحوه الأسماع،و یورث الأریحیّه و العزّه.و قد یبعث علی بذل المهج و الأموال شجاعه وجودا،و یرمی السامع من وراء رأیه مرمی بعیدا.و له مسالك فی النفوس لطیفه،و مداخل إلی القلوب دقیقه.

و بحسب ما یترتب فی نظمه،و یتنزل فی موقعه،و یجری علی سمت مطلعه و مقطعه یكون عجیب تأثیراته،و بدیع مقتضیاته.و كذلك علی حسب مصادره،یتصور وجوه موارده.

و قد ینبئ الكلام عن محل صاحبه،و یدل علی مكان متكلمه،و ینبه علی عظیم شأن أهله،و علی علو محله.

أ لا تری أن الشعر فی الغزل،إذا صدر عن محب كان أرق و أحسن،و إذا صدر عن متغزل و حصل من متصنع نادی علی نفسه بالمداجاه،و أخبر عن خبیئه فی المراءاه.و كذلك قد یصدر الشعر فی وصف الحرب عن الشجاع،فیعلم وجه صدوره،و یدل علی كنهه و حقیقته.

و قد یصدر عن المتشبه،و یخرج عن المتصنع،فیعرف من حاله ما ظن أنه یخفیه، و یظهر من أمره خلاف ما یبدیه،و أنت تعرف قول المتنبی (۴):

فالخیل و اللیل و البیداء تعرفنی و الحرب و الطّعن و القرطاس و القلمه.

۱- آیه(۱۳۸)سوره آل عمران.

۲- آیه(۸۹)سوره النحل.

۳- آیه(۱۹۵)سوره الشعراء.

۴- سبقت ترجمته.

من الواقع فی القلب لما یعلم أنه من أهل الشجاعه ما لا تجده للبحتری (۱)فی قوله:

و أنا الشجاع و قد بدا لک موقفی بعقرقس و المشرفیه مشهدی

و تجد لابن المعتز (۲)فی موقع شعره من القلب فی الفخر و غیره ما لا تجده لغیره لأنه إذا قال:

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا و سارت ورائی هاشم و نزار

و عمّ سماء النّقع حتی کأنه دخان و أطراف الرماح شرار

و قال:

قد تردّیت بالمکارم دهرا و کفتنی نفسی من الافتخار

أنا جیش إذا غزوت وحیدا و وحید فی الجحفل الجرّار

و قال:

أیها السائلی عن الحسب الأط یب ما فوقه لخلق مزید

نحن آل الرسول و العتره الح ق و أهل القربی فما ذا ترید..؟

و لنا ما أضاء صبح علیه و أتته رایات لیل سود

و کما أنشدنی الحسن بن عبد اللّه قال:أنشدنا محمد بن یحیی لابن المعتز قصیدته التی یقول فیها:

أنا ابن الذی سادهم فی الحیا ه و سادهم بی تحت الثّری

و ما لی فی أحد مرغب بلی فیّ یرغب کلّ الوری

و اسهر للمجد و المکرمات إذا اکتحلت أعین بالکری

فانظر فی القصیده کلّها،ثم فی جمیع شعره،تعلم أنه ملک الشعر،و أنه یلیق به من الفخر خاصه.ثم مما یتبعه مما یتعاطاه مما لا یلیق بغیره.بل ینفر عن سواه.و لم أحب أن أکثر علیک فأطول الکتاب بما یخرج عن غرضه.و کما تری من قول أبی فراس الحمدانی فی نفسک إذا قال:

و لا أصبح الحیّ الخلوف بغاره و لا الجیش ما لم یأته قبلی النّذر

و یا رب دار لم تخفنی منیعه طلعت علیها بالردیء أنا و الفجر

و ساحبه الأذیال نحوی لقیتها فلم یلقها جافی اللقاء و لا وعر

وهبت لها ما حازه الجیش کله و أبت و لم یکشف لأبیاتها ستره.

ص: ۱۷۴

۱- سبقت ترجمته.

۲- سبقت ترجمته.

و ما راح يطغينى بأثوابه الغنى و لا بات يثنينى عن الكرم الفقر

و ما حاجتى فى المال أبغى وفوره إذا لم أفر وفرى فلا وفر الوفر

و الشىء إذا صدر من أهله،و بدا من أصله،و انتسب إلى ذويه سلم فى نفسه،و بانت فخامته،و شواهد أثر الاستحقاق فيه.

و إذا صدر من مكلف و بدا من متصنع بان أثر الغرابه عليه،و ظهرت مخايل الاستنحاس فيه،و عرف شمائل التخير منه.

إنا نعرف فى شعر أبى نواس أثر الشطاره،و تمكن البطاله،و موقع كلامه فى وصف ما هو بسبيله من أمر العباره،و وصف الخمر و الخمار.كما نعرف موقع كلام ذى الرّمّه فى وصف المهامه و البوادى،و الجمال و الاتساع و الأزمّه.

و عيب أبى نواس التصرف فى وصف الطلول و الرّباع و الوحش.ففكر فى قوله:

ودع الأطلال تسقيها الجنوب و تبلى عهد جدّتها الخطوب

و خلّ لراكب الوجناء أرضا تخبّ به النّجيبه و النجيب

بلاد نبتها عشر و طلح و أكثر صيدها ضبع و ذيب

و لا تأخذ عن الأعراف لهوا و لا عيشا،فعيشهم جديب

دع الألبان يشربها رجال رقيق العيش عندهم غريب

إذا راب الحليب فبل عليه و لا تحرج فما فى ذاك حوب

فأطيب منه صافيه شمول يطوف بكأسها ساق أديب

كأنّ هديرها فى الدّنّ يحكى قراءه القس قابله الصّليب

أعاذل أقصرى عن طول لومى فراجى توبتى عندى يخيب

تعيبين الذنوب و أى حرّ من الفتيان ليس له ذنوب؟!

و قوله:

صفه الطلول بلاغه القدم فاجعل صفاتك لابنه الكرم

و سمعت الصاحب إسماعيل بن عباد يقول:سمعت براكويه الزنجانى يقول:أنشد بعض الشعراء هلال بن يزيد قصيده على وزن قصيده الأعشى (۱):

ودّع هريره إن الركب مرتحل و هل تطيق وداعا أيها الرجل..؟ه.

ص: ۱۷۵

۱- سبقت ترجمته.

و كان وصف فيها الطلل،قال براكويه:فقال لى هلال:فقلت بديها:

إذا سمعت فتى يبكى على طلل من أهل زنجان فاعلم أنه طلل

و إنما ذكرت لك هذه الأمور،لتعلم أن الشيء فى معدنه أعز،و فى مظانه أحسن، و إلى أصله أنزع،و بأسبابه أليق.و هو يدل على ما صدر منه،و ينبه ما أنتج عنه،و يكون قراره على موجب صورته و أنواره على حسب محله.و لكل شيء حد و مذهب.و لكل كلام سبيل و منهج.

و قد ذكر أبو بكر (۱)الصديق رضى اللّه عنه فى كلام مسيلمه ما أخبرتك به،فقال:(إن هذا كلام لم يخرج من إله)فدل على أن الكلام الصادر عن عزه الربوبيه و رفعه الإلهيه يتميز عما لم يكن كذلك.

ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان.و لو لم يكن فيه إلا ما منّ به اللّه على خلقه بقوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ (۲)فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان، و أهداه و أكمله..و أعلاه و أبلغه و أسناه.

تأمل قوله تعالى: أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۳)آيه(۲۸)سوره الأنعام.(۴)فى شده التنبيه على تركهم الحق،و الإعراض عنه.و موضع امتنانه بالذكر و التحذير.

و قوله: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۵)و هذا بليغ فى التحسير و قوله: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ (۵)و هذا يدل على كونهم مجبولين على الشر،معوّدين لمخالفه النهى و الأمر،و قوله: اَلْأَخِلاّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (۶)هو فى نهايه الوضع من الخله الأعلى التقوى.

و قوله: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ (۷)و هذا نهايه فى التحذير من التفريط.

و قوله: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَهِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمار.

۱- سبقت ترجمته.

۲- آيه(۳،۴)سوره الرحمن.

۳- آيه

۴- سوره الزخرف.

۵- آيه(۳۹)سوره الزخرف.

۶- آيه(۶۷)سوره الزخرف.

۷- آيه(۵۶)سوره الزمر.

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱) هو النهايه فی الوعيد و التهديد.

و قوله: وَ تَرَى الظّالِمِينَ لَمّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (۲)نهايه فی الوعيد.و قوله:

وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (۳) نهايه فی الترغيب.

و قوله: مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ (۴)و كذلک قوله: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَهٌ إِلَّا اللّهُ لَفَسَدَتا (۵)نهايه فی الحجاج،و قوله: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (۶)نهايه فی الدلاله على علمه بالخفيات.

و لا وجه للتطويل،فإن بيان الجميع فی الرفعه و كبر المنزله على سواء.و قد ذكرنا من قبل:أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز،و هو معجز من القرآن.

و ما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغه فی اللفظ.فليس ذلک بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التی ذكرها قد تتفق فی كلام غيره،و ليس ذلک بمعجز.بل قد يصح أن يقع فی المبالغه فی المعنی و الصفه،وجوه من اللفظ يثمر الإعجاز.

و«تضمين المعانی»أيضا،قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعباره طريق البلاغه فی أعلى درجاتها.

و أما«الفواصل»فقد بيّنا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز،و كذلک قد بيّنا فی المقاطع و المطالع نحو هذا.و بيّنا فی تلاؤم الكلام ما سبق من صحه تعلق الإعجاز به.

و التصرّف فی«الاستعاره»البديعه يصح أن يتعلق به الإعجاز،كما يصح مثل ذلک فی حقائق الكلام،لأن البلاغه فی كل واحد من البابين تجرى مجرى واحدا،و تأخذ مأخذا مفردا.

و أما«الإيجاز و البسط»فيصح أن يتعلق بهما الإعجاز كما يتعلق بالحقائق.

و«الاستعاره»و«البيان»فی كل واحد منهما ما لا يضبط حدّه،و لا يقدّر قدره،و لا يمكنک.

۱- آيه(۴۰)سوره فصلت.

۲- آيه(۴۴،۴۵)سوره الشورى.

۳- آيه(۷۱)سوره الزخرف.

۴- آيه(۹۱)سوره المؤمنون.

۵- آيه(۲۱)سوره الأنبياء.

۶- آیه(۱۳،۱۴)سوره الملک.

التوصل إلى ساحل بحره بالتعلم،و لا يتطرّق إلى غوره بالتسبّب.و كلّ ما يمكن تعلمه، و يتهيأ تلقنه،و يمكن تخليصه،و يستدرك أخذه فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به.

و لذلك قلنا:«السجع»مما ليس يلتمس فيه الإعجاز؛لأن ذلك أمر محدود و سبيل مورود.و متى تدرب الإنسان به و اعتاده لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه.

و كذلك«التجنيس»و«التطبيق»متى أخذ أحدهما و طلب وجههما استوفى ما شاء، و لم يتعذر عليه أن يملأ خطابه منه،كما أولع بذلك أبو تمام و البحترى.و إن كان البحترى أشغف بالمطابق،و أقل طلبا للمجانس.

فإن قال قائل:هلا قلت:إن هذين البابين يقع فيهما مرتبه عاليه،لا يوصل إليها بالتعلّم،و لا تملك بالتعمّل؛كما ذكرتم فى البيان و غير ذلك؟ قلنا:لو عمد إلى كتاب«الأجناس»،و نظر فى كتاب«العين»،لم يتعذر عليه التجنيس الكثير.

فأما«الإطباق»فهو أقرب منه،و ليس كذلك البيان.و الوجوه التى رأينا الإعجاز فيها؛لأنها لا تستوفى بالتعلم.فإن قيل:فالبيان قد يتعلم؟قيل:إن الذى يمكن أن يتوصل إليه بالتعلم يتفاوت فيه الناس،و تتناهى فيه العادات.و هو كما يعلم من مقادير القوى فى حمل الثقيل.و أن الناس يتقاربون فى ذلك فيرمون فيه إلى حد،فإذا تجاوزوه وقفوا بعده و لم يمكنهم التخطى،و لم يقدروا على التعدى إلا أن يحصل ما يخرق العاده و ينقض العرف.و لن يكون ذلك إلا للدلاله على النبوات على شروط فى ذلك.

و القدر الذى يفوت الحد فى البيان،و يتجاوز الوهم،و يشذ عن الصنعه،و يقذفه الطبع فى النادر القليل،كالبيت البديع،و القطعه الشريفه التى تتفق فى ديوان شاعر،و الفقره تتفق فى رساله كاتب.حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين أو قطعه أو قطعتين،و الأديب شهيد كلمه أو كلمتين.و ذلك أمر قليل.

و لو كان كلامه كله يطرد على ذلك المسلك،و يستمر على ذلك المنهج،أمكن أن يدّعى فيه الإعجاز.

و لكنك إن كنت من أهل الصنعه تعلم قله الأبيات الشوارد،و الكلمات الفرائد، و أمهات القلائد.

فإن أردت أن تجد قصيده كلها وحشيه،و أردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضيه، لم تجد ذلك فى الدواوين،و لم تظفر بذلك إلى يوم الدين.

و نحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمه شريفه،و لفظه بديعه،و إنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سوره أو نحوها.و أحلنا أن يتمكنوا من حد فى البلاغه و مقدار فى الخطابه.

و هذا كما قلناه من أن صوره الشعر قد تتفق فى القرآن و إن لم يكن له حكم الشعر.

فأما قدر المعجز فقد بيّنا أنها السوره طالت أو قصرت.و بعد ذلك خلاف من الناس، من قال مقدار كل سوره أو أطول آيه فهو معجز.و عندنا كل واحد من الأمرين معجز، و الدلاله عليه ما تقدم،و البلاغه لا تتبين بأقل من ذلك.فلذلك لم نحكم بإعجازه،و ما صح أن تتبين فيه البلاغه،و محصولها الإبانه فى الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى، و أجزل لفظ،و بلوغ الغايه فى المقصود بالكلام.

فإذا بلغ الكلام غايته فى هذا المعنى،كان بالغا و بليغا.فإذا تجاوز حد البلاغه إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعه،و انتهى إلى أمر يعجز عنه الكامل فى البراعه،صح أن يكون له حكم المعجزات،و جاز أن يقع موقع الدلالات.

و قد ذكرنا أنه بجنسه و أسلوبه مباين لسائر كلامهم.ثم بما يتضمن من تجاوزه فى البلاغه الحد الذى يقدر عليه البشر.

فإن قيل:فإذا كان يجوز عندكم أن يتفق فى شعر الشاعر قطعه عجيبه شارده،تباين جميع ديوانه فى البلاغه،و يقع فى ديوانه بيت واحد يخالف مألوف طبعه،و لا يكون سبب ذلك البيت،و لا تلك القطعه فى التفصيل،و لو أراد أن يأتى بمثل ذلك و يجعل جميع كلامه من ذلك النمط،لم يجد إلى ذلك سبيلا.و له سبب فى الجمله و هو التقدم فى الصنعه،لأنه يتفق من المتأخر فيها.فهلاّ قلتم:إنه إذا بلغ فى العلم بالصناعه مبالغه القصوى،كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت و سمت تلك القطعه؟و هلا قلتم:إن القرآن من هذا الباب؟ فالجواب:إنا لم نجد أحدا بلغ الحد الذى وصفتم فى العاده،و هؤلاء الناس أهل البلاغه أشعارهم عندنا محفوظه،و خطبهم منقوله،و رسائلهم مأثوره،و بلاغاتهم مرويه، و حكمهم مشهوره.و كذلك أهل الكهانه و البلاغه مثل قسّ بن ساعده،و سحبان وائل، و مثل:شقّ و سطيح و غيرهم.كلامهم معروف عندنا،و موضوع بين أيدينا،لا يخفى علينا فى الجمله بلاغه بليغ،و لا خطابه خطيب،و لا براعه شاعر مفلق،و لا كتابه كاتب مدقق.

فلما لم نجد فى شىء من ذلك ما يدانى القرآن فى البلاغه،أو يشاكله فى الإعجاز مع ما وقع من التحدى إليه المده الطويله.و تقدّم من التقريع و المجازاه الأمد المديد،و ثبت له وحده خاصه قصب السبق،و الاستيلاء على الأمر،و عجز الكل عنه،و وقفوا دونه حيارى، يعرفون عجزهم و إن جهل قوم سببه،و يعلمون نقصهم و إن أغفل قوم وجهه.

رأينا أنه ناقض للعاده،و رأينا أنه خارق للمعروف فى الجبلّه.و خرق العاده إنما تقع بالمعجزات على وجه إقامه البرهان على النبوات،و على أن من ظهرت عليه،و وقعت موقع الهدايه إليه.صادق فيما يدعيه من نبوته،و محق فى قوله،و مصيب فى هديه،قد سادت له الحجه البالغه،و الكلمه التامه،و البرهان النير،و الدليل البين.

ص: ۱۸۰

فصل: فی حقیقه المعجز

معنی قولنا:«إن القرآن معجز»علی أصولنا أنه لا یقدر العباد علیه.و قد ثبت أن المعجز الدال علی صدق النبی صلّی اللّه علیه و سلّم،لا یصح دخوله تحت قدره العباد.و إنما ینفرد اللّه تعالی بالقدره علیه،و لا یجوز أن یعجز العباد عما تستحیل قدرتهم علیه،کما یستحیل عجزهم عن فعل الأجسام.فنحن لا نقدر علی ذلک و إن لم یصح وصفنا بأنا عاجزون عن ذلک حقیقه.و کذلک معجزات سائر الأنبیاء علی هذا.

فلما لم یقدر علیه أحد،شبه بما یعجز عنه العاجز.و إنما لا یقدر العباد علی الإتیان بمثله؛لأنه لو صح أن یقدروا علیه بطلت دلاله المعجز.و قد أجری اللّه العاده بأن یتعذر فعل ذلک منهم،و أن لا یقدروا علیه.و لو کان غیر خارج عن العاده لأتوا بمثله،أو عرضوا علیه من کلام فصحائهم و بلغائهم ما یعارضه.

فلما لم یشتغلوا بذلک،علم أنهم فطنوا إلی خروج ذلک عن أوزان کلامهم،و أسالیب نظامهم،و زالت أطماعهم عنه.

و قد کنا بیّنا أن التواضع لیس یجب أن یقع علی قول الشعر،و وجوه النظم المستحسنه فی الأوزان المطربه للسمع.و لا یحتاج فی مثله إلی توقیف،و أنه یتبین أن مثل ذلک یجری فی الخطاب،فلما جری فیه فطنوا له و اختاروه و طلبوا أنواع الأوزان و القوافی.

ثم وقفوا علی حسن ذلک،و قدروا علیه بتوفیق اللّه عز و جل.و هو الذی جمع خواطرهم علیه،و هداهم له،و هیّأ دواعیهم إلیه.و لکنه أقدرهم علی حد محدود،و غایه فی العرف مضروبه،لعلمه بأنه سیجعل القرآن معجزا.و دل علی عظم شأنه،بأنهم قدروا علی ما بیّنا من التألیف،و علی ما وصفناه من النظم من غیر توقیف و لا اقتضاء أثر،و لا تحدّ إلیه،و لا تقریع.

فلو کان هذا من ذلک القبیل،أو من الجنس الذی عرفوه و ألفوه،لم تزل أطماعهم عنه.و لم یدهشوا عند وروده علیهم،فکیف و قد أمهلهم و فسح لهم الوقت،و کان یدعو إلیه سنین کثیره.

و قال عز من قائل: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ (۱)و بظهور العجز عنه بعد طول التقريع و التحدى،بان أنّه خارج عن عادتهم، و أنهم لا يقدرون عليه.

و قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ،لأن ذلك طبعهم و لغتهم،فلم يحتاجوا إلى تجربه عند سماع القرآن.و هذا فى البلغاء منهم دون المتأخرين فى الصنعه.

و الذى ذكرناه بذلك على أنه لا كلام أزيد فى قدر البلاغه من القرآن.و كل من جوز أن يكون للبشر قدره على أن يأتوا بمثله فى البلاغه لم يمكنه أن يعرف أن القرآن معجز بحال.

و لو لم يكن جرى فى المعلوم أنه سيجعل القرآن معجزا،لكان يجوز أن تجرى عادات البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغه،و أمر يفوق ما عرفوه من الفصاحه.

و أما«نظم القرآن»فقد قال أصحابنا فيه:إن اللّه تعالى يقدر على نظم القرآن فى الرتبه التى لا مزيد عليها،فقد قال مخالفونا:إن هذا غير ممتنع لأن فيه من الكلمات الشريفه الجامعه للمعانى البديعه،و انضاف إلى ذلك حسن الموقع،فيجب أن يكون قد بلغ النهايه لأنه عندهم،و إن زاد على ما فى العاده،فإن الزائد عليها و إن تفاوت،فلا بد من أن ينتهى إلى حد لا مزيد عليه.و الذى نقوله إنه لا يمتنع أن يقال:يقدر اللّه تعالى على أن يأتى بنظم أبلغ و أبدع من القرآن كله.

و أما قدره العباد فهى متناهيه فى كل ما يقدرون عليه مما تصح قدرتهم عليه.ر.

۱- آيه(۴۵)سوره فاطر.

فصل: فی کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم و أمور تتصل بالإعجاز

إن قال قائل:إذا کان النبی صلّی اللّه علیه و سلّم أفصح العرب،و قد قال هذا فی حدیث مشهور،و هو صادق فی قوله،فهلا قلتم:إن القرآن من نظمه لقدرته فی الفصاحه علی مقدار لا یبلغه غیره؟قیل:قد علمنا أنه لم یتحداهم إلی مثل قوله و فصاحته،و القدر الذی بینه و بین کلام غیره من الفصحاء،کقدر ما بین شعر الشاعرین،و کلام الخطیبین فی الفصاحه؛و ذلک مما لا یقع به الإعجاز.

و قد بینا قبل هذا:أنا إذا وازنّا بین خطبه،و رسائله،و کلامه المنثور،و بین نظم القرآن،تبین من البون بینهما،مثل ما بین کلام اللّه عز و جل،و کلام الناس.و لا معنی لقول من ادعی أن کلام النبی صلّی اللّه علیه و سلّم معجز،و إن کان دون القرآن فی الإعجاز.

فإن قیل:لو لا أن کلامه معجز لم یشتبه علی ابن مسعود الفصل بین المعوذتین و بین غیرهما من القرآن.و کذلک لم یشتبه دعاء القنوت فی أنه هل هو من القرآن أم لا؟و لا یجوز أن یخفی علیهم القرآن من غیره،و عدد السور عندهم محفوظ مضبوط.

و قد یجوز أن یکون شذّ عن مصحفه،لا لأنه نفاه من القرآن،بل عوّل علی حفظ الکل إیاه.

علی أن الذی یروونه خبر واحد لا یسکن إلیه فی مثل هذا،و لا یعمل علیه.

و یجوز أن یکتب علی ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ینساه کما یکتب الواحد منا بعض الأدعیه علی ظهر مصحفه.

و هذا نحو ما یذکره الجهال من اختلاف کثیر بین مصحف ابن مسعود و بین مصحف عثمان رضوان اللّه علیهما.

و نحن لا ننکر أن یغلط فی حروف معدوده،کما یغلط الحافظ فی حروف،و ینسی، ما لا نجیزه علی الحفاظ مما لم نجزه علیه.

و لو کان قد أنکر السورتین علی ما ادعوا لکانت الصحابه تناظره علی ذلک.و کان یظهر و ینتشر.فقد تناظروا فی أقل من هذا،و هذا أمر یوجب التکفیر و التضلیل.فکیف

يجوز أن يقع التخفيف فيه؟!و قد علمنا إجماعهم على ما جمعوه فى المصحف،فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذه المولّده بالإجماع المتقرر،و الاتفاق المعروف؟ و يجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه،لأنه خالف فى النظم و الترتيب،فلم يثبتهما فى آخر القرآن.و الاختلاف بينهم فى موضع الاثبات غير الكلام فى الأصل.أ لا ترى أنهم قد اختلفوا فى أول ما نزل من القرآن.

فمنهم من قال قوله: اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ (۱)،و منهم من قال: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۲)و منهم من قال:فاتحه الكتاب.

و اختلفوا أيضا فى آخر ما أنزل فقال ابن عباس (۳): إِذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ (۴)و قالت عائشه:سوره المائده.و قال البراء (۵)بن عازب آخر ما نزل سوره براءه،و قال سعيد (۶)بن جبير آخر ما أنزل قوله تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ (۷)و قال السّدّىّ آخر ما أنزل: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ (۸)و يجوز أن يكون فى مثل هذا خلاف،و أن يكون كل واحد ذكر آخر ما سمع.و لو كان القرآن من كلامه،لكان البون بين كلامه و بينه،مثل ما بين خطبه و خطبه ينشئها رجل واحد، و كانوا يعارضونه لأنا قد علمنا أن القدر الذى بين كلامهم،و بين كلام النبى صلّى اللّه عليه و سلّم لا يخرج إلى حد الإعجاز،و لا يتفاوت التفاوت الكثير.و لا يخفى كلام من جنس أوزان كلامهم.و ليس كذلك نظم القرآن.لأنه خارج من جميع ذلك.

فإن قيل:لو كان غير ما ادعيتم لعرفنا بالضروره أنه معجز دون غيره،قبل معرفه الفصل من وزن الشعر و وزنه،و الفرق بينه و بين غيره من الأوزان إلى نظر و تأمل،و فكر و رويه.

۱- آيه(۱)سوره العلق.

۲- آيه(۱)سوره المدثر.

۳- سبقت ترجمته.

۴- آيه(۱)سوره النصر.

۵- البراء بن عازب أبو عماره الأنصارى الأوسى الحارثى،استصغر يوم بدر فلم يشهدها،و شهد أحدا و ما بعدها،و شهد بيعه الرضوان.مات بعد سنه(۷۰).له ترجمه فى:الرياض المستطابه ص(۳۷).

۶- سعيد بن جبير بن هشام الأسدى.كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفه يستفتونه،يقول:أ ليس فيكم ابن أم الدهماء؟يعنيه.قتله الحجاج سنه(۹۲).له ترجمه فى:شذرات الذهب ۱۰۸/۱،و وفيات الأعيان ۲۰۴/۱،و تذكره الحفاظ ۷۶/۱.

۷- آيه(۲۸۱)سوره البقره.

۸- آيه(۱۲۹)سوره التوبه.

و اکتساب..و إن کان النظم المختلف الشدید التباین إذا وجد أدرک اختلافه بالحاسه،إلا أن کل وزن و قبیل إذا أردنا تمییزه من غیره احتجنا فیه إلی الفکره و التأمل.

فإن قیل:لو کان معجزا لم یختلف أهل المله فی وجه إعجازه؟قیل:قد یثبت الشیء دلیلا و إن اختلفوا فی وجه دلاله البرهان،کما قد یختلفون فی الاستدلال علی حدوث العالم من الحرکه و السکون،و الاجتماع و الافتراق.

فأما المخالفون،فإنه یتعذر علیهم أن یعرفوا أن القرآن کلام اللّه؛لأن مذهبهم أنه لا فرق بین أن یکون القرآن من قبل الرسول أو من قبل اللّه عز و جل فی کونه معجزا؛لأنه إن خصه بقدر من العلم لم تجر العاده بمثله،أمکنه أن یأتی بما له هذه الرتبه.و کان متعذرا علی غیره لفقد علمه بکیفیه النظم.

و لیس القوم بعاجزین عن الکلام،و لا عن النظم و التألیف.و المعنی المؤثر عندهم فی تعذر مثل نظم القرآن علینا:فقد العلم بکیفیه النظم.و قد بیّنا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا یقدرون علیه.و المفحم قد یعلم کیفیه الأوزان و اختلافها،و کیفیه الترکیب.و هو لا یقدر علی نظم الشعر.

و قد یعلم الشاعر وجوه الفصاحه.و إذا قالا الشعر جاء شعر أحدهما فی الطبقه العالیه و شعر الآخر فی الطبقه الوضیعه.

و قد یطّرد فی شعر المبتدی و المتأخر فی الحذق القطعه الشریفه و البیت النادر،و مما لا یتفق للشاعر المتقدم.

و العلم بهذا الشأن فی التفصیل لا یغنی،و یحتاج معه إلی ماده من الطبع،و توفیق من الأصل.

و قد یتساوی العالمان بکیفیه الصناعه و النّساجه،ثم یتفق لأحدهما من اللطف فی الصنعه،ما لا یتفق فی الآخر.

و کذلک أهل نظم الکلام یتفاضلون مع العلم بکیفیه النظم.و کذلک أهل الرمی یتفاضلون فی الإصابه،مع العلم بکیفیه الإصابه.

و إذا وجدت للشاعر بیتا أو قطعه أحسن من شعر امرئ القیس،لم یدل ذلک علی أنه أعلم بالنظم منه.لأنه لو کان کذلک کان یجب أن یکون جمیع شعره علی ذلک الحد.

و یحسب ذلک البیت فی الشرف و الحسن و البراعه،و لا یجوز أن یعلم نظم قطعه و یجهل نظم مثلها.و إن کان کذلک علم أن هذا لا یرجع إلی ما قدروه من العلم.أو لسنا نقول إنه یستغنی عن العلم فی النظم،بل یکفی علم به فی الجمله،ثم یقف الأمر علی القدره.

و هذا يبين لک بأنه قد يعلم الخط فيکتب سطرا،فلو أراد أن يأتی بمثله بحيث لا يغادر منه شيئا لتعذّر.و العلم حاصل.

و کذلک قد يحسن کيفيه الخط،و الجيد منه من الردیء.و لا يمکنه أن يأتی بأرفع درجات الجيد.

و قد يعلم قوم کيفيه إداره الأقلام،و کيفيه تصور الخطّ.ثم يتفاوتون فی التفصيل، و يختلفون فی التصوير.

و ألزمهم أصحابنا أن يقولوا بقدرتنا علی إحداث الأجسام،و إنما يتعذر وقوع ذلک منا لأنا لا نعلم الأسباب التی إذا عرفنا إيقاعها علی وجوه اتفق لنا فعل الأجسام.

و قد ذهب بعض المخالفين إلی أن العاده انتقضت بأن أنزله جبريل،فصار القرآن معجزا لنزوله علی هذا الوجه.و من قبله لم يکن معجزا.

و هذا قول أبی هاشم،و هو الظاهر الخطأ،لأنه يلزم أن يکونوا قادرين علی مثل القرآن،و إن لم يتعذر عليهم فعل مثله.و إنما تعذر بإنزاله،و لو کانوا قادرين علی مثل ذلک،کان قد اتفق مع بعضهم مثله.

و إن کانوا فی الحقيقه غير قادرين قبل نزوله و لا بعده علی مثله فهو قولنا.

و أما قول کثير من المخالفين فهو علی ما بيّنا،لأن معنی المعجز عندهم تعذر فعل مثله.و کان ذلک متعذرا قبل نزوله و بعده.فأما الکلام فی أن التأليف،هل له نهايه؟فقد اختلف المخالفون من المتکلمين فيه.فمنهم من قال:ليس لذلک نهايه،کالعدد،فلا يمکن أن يقال:إنه لا يتأتی قول قصيده إلا و قد قيلت من قبل.

و منهم من قال:إن ما جرت به العاده فله نهايه،و ما لم تجر به العاده فلا يمکن أن نعلم نهايه الرتبه فيه.و قد بيّنا أن علی أصولنا قد تقرر لکلامنا حد فی العاده،و لا سبيل إلی تجاوزه،و لا يقدر.فإن القرآن خرق العاده فزاد عليها.

فصل:إن قيل هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتی به من ظهر عليه؟قيل:لا بد من ذلک.لأنا لو نعلم أن النبی صلّی اللّه عليه و سلّم هو الذی أتی بالقرآن و ظهر ذلک من جهته،لم يمکن أن يستدل به علی نبوته.و علی هذا،لو تلقی رجل منه سوره،فأتی بها بلدا و ادعی ظهورها عليه،و أنها معجزه له،لم تقم الحجه عليهم،حتی يبحثوا أو يتبينوا أنها ظهرت عليه.و قد تحققنا أن القرآن أتی به النبی صلّی اللّه عليه و سلّم و ظهر من جهته،و جعله علما علی نبوته،و علمنا ذلک ضروره فصار حجه علينا.

خاتمه

قد ذكرنا فى الإبانه عن معجز القرآن وجيزا من القول،رجونا أن يكفى،و أمّلنا أن يقنع.و الكلام فى أوصافه إن استقصى بعيد الأطراف،واسع الأكناف،لعلو شأنه،و شريف مكانه.

و الذى سطرناه فى الكتاب،و إن كان موجزا،و أمليناه فيه،و إن كان خفيفا،فإنه ينبه على الطريقه،و يدل على الوجه،و يهدى إلى الحجه.

و متى عظم محل لشىء فقد يكون الإسهاب فيه عيّا،و الإكثار فى وصفه تقصيرا.

و قد قال الحكيم،و قد سئل عن البليغ،متى يكون عيبا؟فقال:متى وصف هوى أو حبيبا.

و ضلّ أعرابى فى سفر له ليلا و طلع القمر فاهتدى به،فقال:ما أقول لك؟أقول:

رفعك اللّه؟و قد رفعك،أم أقول:نورك اللّه؟و قد نورك،أم أقول:أجملك اللّه؟و قد جملك! و لو لا أن العقول تختلف،و الأفهام تتباين،و المعارف تتفاضل،لم نحتج إلى ما تكلفنا.و لكن الناس يتفاوتون فى المعرفه،و لو اتفقوا فيها،لم يجز أن يتفقوا فى معرفه هذا الفن،أو يجتمعوا فى الهدايه إلى هذا العلم لاتصاله بأسباب،و تعلقه بعلوم غامضه الغور، عميقه القعر،كثيره المذاهب،قليله الطلاب،ضعيفه الأصحاب،و بحسب تأتّى مواقعه، يقع الإفهام دونه.و على قدر لطف مسالكه،يكون القصور عنه.

أنشدنى أبو القاسم الزعفرانى قال:أنشدنى المتنبى لنفسه،القطعه التى يقول فيها:

و كم من عائب قولا صحيحا و آفته من الفهم السقيم

و لكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح و العلوم

و أنشدنى الحسن بن عبد اللّه قال:أنشدنا بعض مشايخنا للبحترى:

أهزّ بالشعر أقواما ذوى سنه لو أنهم ضربوا بالسيف ما شعروا

علىّ نحت القوافى من مقاطعها و ما علىّ لهم أن تفهم البقر

فإذا كان نقد الكلام كله صعبا،و تمييزه شديدا،و الوقوع على اختلاف فنونه متعذرا، و هذا فى كلام الآدمى.فما ظنك بكلام رب العالمين؟

قد أبنّا لک أن من قدّر أن البلاغه فی عشره أوجه من الکلام،لا یعرف من البلاغه إلا القلیل،و لا یفطن منها إلا الیسیر.

و من زعم أن البدیع یقتصر علی ما ذکرناه من قبل عنهم فی الشعر،فهو متطرّف.

بلی إن کانوا یقولون إن هذه من وجوه البلاغه و غرر البدیع،و أصول اللطیف.و إن ما یجری مجری ذلک و یشاکله ملحق بالأصل و مردود علی القاعده.فهذا قریب.

و قد بیّنا فی نظم القرآن أن الجمله تشتمل علی بلاغه منفرده،و الأسلوب یختص بمعنی آخر من الشرف.

ثم الفواتح و الخواتم،و المبادی و المثانی،و الطوالع و المقاطع،و الوسائط و الفواصل.

ثم الکلام فی نظم السور و الآیات،ثم فی تفاصیل التفاصیل.ثم فی الکثیر و القلیل، ثم الکلام الموشح و المرصع،و المفصّل و المصرّع،و المجنس و الموشی،و المحلی و المکلل،و المطوق و المتوج،و الموزون و الخارج عن الوزن،و المعتدل فی النظم و المتشابه فیه.

ثم الخروج من فصل إلی فصل،و وصل إلی وصل،و معنی إلی معنی،و معنی فی معنی،و الجمع بین المؤتلف و المختلف،و المتفق و المتسق،و کثره التصرف،و سلامه القول فی ذلک کله من التعسف،و خروجه عن التعمق و التشدق،و بعده عن التعمل و التکلف.و الألفاظ المفرده و الإبداع فی الحروف و الأدوات،کالإبداع فی المعانی و الکلمات.و البسط و القبض،و البناء و النقض،و الاختصار و الشرح،و التشبیه و الوصف، و تمیز الإبداع من الاتباع؛کتمیز المطبوع عن المصنوع.

و القول الواقع عن غیر تکلف،و لا تعمّل.و أنت تتبینه فی کل ما تصرف فیه من الأنواع أنه علی سمت شریف،و مرقب منیف،یبهر إذا أخذ فی النوع الربی،و الأمر الشرعی،و الکلام الإلهی الدال علی أنه یصدر عن عزه الملکوت،و شرف الجبروت،و ما لا یبلغ الوهم مواقعه من حکمه و أحکام،و احتجاج و تقریر و استشهاد،و تقریع و إعذار و إنذار،و تبشیر و تحذیر و تنبیه،و تلویح و إشباع و تصریح،و إشاره و دلاله،و تعلم أخلاق زکیه،و أسباب رضیه،و سیاسات جامعه،و مواعظ نافعه،و أوامر صادعه،و قصص مفیده، و ثناء علی اللّه عز و جل بما هو أهله،و أوصاف کما یستحقه،و تحمید کما یستوجبه،و أخبار عن کائنات فی التأنی صدقت،و أحادیث عن المؤتنف تحققت،و نواه زاجره عن القبائح و الفواحش،و إباحه الطیبات و تحریم المضار و الخبائث،و حث علی الجمیل و الإحسان.

تجد فيه الحكمه و فصل الخطاب،مجلوه عليك فی منظر بهيج،و نظم أنيق، و معرض رشيق،غير متعاص على الأسماع،و لا متلو على الأفهام،و لا مستكره فی اللفظ و لا متوحش فی المنظر غريب فی الجنس،غير غريب فی القبيل،ممتلئ ماء و نضاره و لطفا و غضاره،يسری فی القلب كما يسری السرور،يمر إلى مواقعه كما يمر السهم،و يضیء كما يضیء الفجر،و يزخر كما يزخر البحر،طموح العباب،جموح على المتناول المنتاب، كالروح فی البدن،و النور المستطير فی الأفق،و الغيث الشامل،و الضياء الباهر. لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ،تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۱).

من توهم أن الشعر يلحق شأوه بان ضلاله.و صح جهله.إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن،و تداولته القلوب،و انثالت عليه الهواجس،و ضرب الشيطان فيه بسهمه،و أخذ منه بحظه.و ما دونه من كلامهم،فهو أدنى محلا،و أقرب مأخذا،و أسهل مطلبا.و لذلك قالوا:فلان مفحم،فأخرجوه مخرج العيب.كما قالوا:فلان عيی،فأوردوه مورد النقص.

و القرآن كتاب دل على صدق متحمله،و رساله دلت على صحه قول المرسل بها، و برهان شهد له برهان الأنبياء المتقدمين.و بينه على طريقه من سلف من الأولين،حيرهم به إذا كان من جنس القول الذی زعموا أنهم أدركوا فيه النهايه.و بلغوا فيه الغايه.فعرفوا عجزهم،كما عرف قوم عيسی نقصانهم.فيما قدروا من بلوغ أقصی الممكن فی العلاج، و الوصول إلى أعلى مراتب الطب.فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى،و إبراء الأكمه و الأبرص.و كما أتى موسی بالعصا التی تلقفت ما دققوا فيه من سحرهم،و أتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم.و كما سخّر لسليمان من الرياح و الطير و الجن حين كانوا يولعون بدقائق الحكمه،و بدائع من اللطف.ثم كانت هذه المعجزه مما يقف عليه الأول و الآخر وقوفا واحدا.و بقی حكمها إلى يوم القيامه.

انظر وفقك اللّه لما هديناك إليه،و فكر فی الذی دللناك عليه،فالحق منهج واضح، و الدين ميزان راجح،و الجهل لا يزيد إلا غما،و لا يورث إلا ندما.قال اللّه عز و جل: قُلْ هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲)و قال: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتابُ وَ لاَ الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا (۳)و قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِی بِهِی.

۱- آيه(۴۲)فصلت.

۲- آيه(۹)سوره الزمر.

۳- آيه(۵۲)سوره الشوری.

كَثِيراً (۱) على حسب ما آتى من الفضل،و أعطى من الكمال و العقل،تقع الهدايه و التبيين.فإن الأمور تتم بأسبابها،و تحصل بآلتها،و من سلبه التوفيق و حرمه الإرشاد و التسديد فكأنما: خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّيحُ فِی مَكانٍ سَحِيقٍ (۲)لا يستطيعون حيله و لا يهتدون سبيلا فاحمد اللّه على ما رزقك من الفهم إن فهمت.و قل:

رَبِّ زِدْنِی عِلْماً (۳) و قل: رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (۴)و إن ارتبت فيما بيناه فازدد فى تعلم الصنعه،و تقدم فى المعرفه الأرشد،و يقف بك على الوجه الأحمد.فإنك إذا فعلت ذلك أحطت علما،و تيقنت فهما.

و لا- يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان من هو أعلم منك بالعربيه،و أرجح منك فى الفصاحه أقوام و أقوام،و رجال و رجال،فكذبوا و ارتابوا لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز.

و لكن اختلفت أحوالهم،فكانوا بين جاهل و جاحد.و بين كافر نعمه و حاسد،و بين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات،و حائد عن النظر فى الدلالات،و ناقص فى باب البحث، و مختل الآله فى وجه الفحص،و مستهين بأمر الأديان،و غاو تحت حباله الشيطان، و مقذوف بخذلان الرحمن.و أسباب الخذلان و الجهاله كثيره،و درجات الحرمان مختلفه.

و هلا- جعلت بإزاء الكفره مثل:«لبيد (۵)بن ربيعه العامرى»فى حسن إسلامه، و«كعب (۶)بن زهير»فى صدق إيمانه،و«حسان (۷)بن ثابت»و غيرهم من الشعراء و الخطباء الذين أسلموا؟ على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر،أو بحر زاخر.و قد بينا أن لا- اعتصام إلا- بهدايه اللّه،و لا- توفيق إلا- بنعمه اللّه، ذلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ (۸)،فتأمّل ما عرّفناك فى كتابنا،و فرغ له قلبك،و اجمع له لبك،ثم اعتصم باللّه يهدك،و توكل عليه يغنك و يجرك،و استرشده يرشدك،و هو حسبى و حسبك و نعم الوكيل.ه.

۱- آيه(۲۶)سوره البقره.

۲- آيه(۳۱)سوره الحج.

۳- آيه(۱۱۴)سوره طه.

۴- آيه(۹۷)سوره المؤمنون.

۵- سبقت ترجمته.

۶- كعب بن زهير،كان من المخضرمين،و كان هجا الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم،ثم أسلم و مدحه.مات سنه (۲۴ ه).له ترجمه فى:الأغانى ۱۴۷/۱۵.و الجمهره(۱۴۸)،و الشعر و الشعراء(۵۸،۶۷).

۷- سبقت ترجمته.

۸- آيه(۴)سوره الجمعه.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹